t.me/twinkling4

أونوريه دي بلزاك

إمرأة في الثلاثين

رواية

ترجمة: عبد الفتاح الديدي

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمَ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

t.me/twinkling4

المقدمة

الروائي العظيم

يعد أنوريه دي بلزاك بين أشهر كُتَّاب الرواية قاطبة، فعلى يديه اكتمل تحول الرواية من مجرد «حكاية» أو سرد لأحداث حقيقية أو خيالية إلى بناء فني متكامل يزخر بالحياة والأحداث، ويخضع لمعايير فنية واضحة. وهو لم يفعل ذلك كما يفعل النقَّاد عن طريق صياغة النظريات، وإنما صنعه عملًا عن طريق عشرات الروايات التي كتبها خلال حياته التي لم تزد على واحد وخمسين عامًا. وليس أدل على منزلته الأدبية من أن أعماله قد تخطَّت منذ أمد بعيد إطار الأدب الفرنسي، ونقلت إلى الكثير من لغات البشر. فهو -إلى جوار شكسبير وديكنز- أكثر الأدباء نشرًا في مختلف اللغات. ومن الغريب أن تفتقر المكتبة العربية إلى معظم مؤلفاته.

وقد ولد الكاتب الفرنسي الكبير في العشرين من مايو 1799، نفس السنة التي عاد فيها نابليون من حملته على مصر، أي أنه ولد عشية إعلان نابليون نفسه إمبراطورًا على الفرنسيين، وقد مات في الثامن من شهر أغسطس 1851 عشية إعلان لويس نابليون، ابن أخي بونابرت نفسه، إمبراطورًا من جديد، وخلال تلك الخمسين عامًا شهدت فرنسا انهيار الإمبراطورية الأولى، وإعادة الملكية في 1815، ثم ثورة 1830 التي أطاحت بفرع من الأسرة

المالكة، لتأتي بفرع آخر، ثم ثورة 1848 التي أعلنت الجمهورية الثانية، وأخيرًا انقلاب لويس نابليون المذكور. وهكذا عاش بلزاك فترة من أغنى فترات تاريخ بلاده من حيث التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ما كانت لتفلت من نظره الثاقب.

وهو ينتمي اجتماعيًّا إلى الطبقات الوسطى، فأبوه موظف من أصل ريفي أمضى حياته في خدمة الدولة عبر تغير أشكالها السياسية؛ وأمه ابنة أحد التجار من باريس. وكانت تلك الطبقات في قلب الأحداث التاريخية، فهي تزعمت الثورة الفرنسية الكبرى ضد النبلاء الإقطاعيين، وهي التي استفادت من إمبراطورية نابليون، ثم انقلبت عليه حين رأت مطامعه الشخصية تضر بمصالحها. وقد حاولت أجزاء منها أن تتعايش مع الملكية حين عودتها إلى السلطة، وهي الطبقات التي كان ينتمي إليها غالبية المثقفين، وقد حاول أهل بلزاك أن يدفعوا به إلى إحدى المهن القانونية، فقطع المرحلة الأولى من دراسة القانون، ثم عمل في مكتب محام، ومكتب موثق عقود؛ ولكن هذا العمل الرتيب ما كان ليرضي الفتى الطموح الذي كان يرقُب من حوله مجتمعًا يمكن أن يرتقي فيه ضابط صغير من كورسيكا إلى عرش الإمبراطورية، ويصبح فيه تاجر صغير -بفضل المضاربة أو توريد المؤن للجيوش- من أصحاب الملايين، وترفع المغامرات السياسية بعض أصحاب القلم إلى مراكز الصدارة. ومن ثَمَّ هجر بلزاك مهمة القانون

محاولًا تحقيق «المجد» عن سبل أخرى، فجرّب الصحافة والنشر والطباعة والعمليات المالية، ولكن كل محاولاته لم تورثه إلا الإخفاق والديون التي تراكمت عليه حتى وفاته. وكانت أعماله الأدبية الأولى أبعد ما تكون عن النجاح. ولكنه عاد إلى الكتابة تحت إلحاح مزدوج من موهبته الطبيعية، ومن حاجته إلى المال، فقد كان ينشر معظم أعماله في الصحف في شكل «مسلسلات» يقبض ثمنها مقدمًا.

وأول ما يلفت النظر في أدب بلزاك هو غزارة الإنتاج بشكل منقطع النظير. فقد كتب في حوالي ربع قرن ما يزيد على تسعين رواية وقصة قصيرة ومسرحية. وفي السنوات الثلاث ما بين 1832 و1835 وحدها كتب عشرين مؤلفًا! وقد أحصى بعض المتخصصين في الدراسات البلزاكية الشخصيات المذكورة في رواياته، فوجد أن تلك الروايات تضم 2472 شخصية خيالية محددة بالاسم والمعالم، و566 شخصية مذكورة بالوظيفة فقط، فضلًا عن شخصيات تاريخية حقيقية عديدة. ولكن ثمة ما يذهل أكثر من الأرقام: لقد تمكن بلزاك من أن يجمع الجزء الأهم من رواياته بعد الطبقة الأولى في أكثر من عشرين مجلدًا تحت اسم «الكوميديا الإنسانية». وفي تلك الروايات جميعًا تصادف حشدًا من الشخصيات تلعب من رواية إلى أخرى الدور الذي رسمه لها بلزاك. ويخرج القارئ بإحساس عميق بأنه أمام عالم متكامل متشابك

المصالح متواتر الأحداث، تمثل كل رواية جانبًا من حياته، أو طرفًا من أحداثه، أو لحظة من تاريخه. وبرغم أن المؤلف لم يرسم خطة «للكوميديا الإنسانية» مقدمًا، بل كتب رواياتها عبر الخاطر، ولم يقم بجمعها إلا فيما بعد، فإن الشخصيات التي تعاود الظهور من رواية إلى أخرى تحافظ على مميزاتها وتنسق تصرفاتها كما لو كانت تحيا دائمًا في وجدان بلزاك.

وكانت تلك الشخصيات الكثيرة تعطي تقريبًا كل النماذج البشرية التي تميز بها المجتمع الفرنسي، في النصف الأول من القرن الماضي: فمن النبيل المغامر الذي يحاول تنظيم مقاومة مسلحة لصالح الملكية ضد الثورة، إلى السيدة «الأرستقراطية» المرفهة، إلى قاطع الطريق الهارب من «الليمان». والواقع أن بلزاك كان من خلال عمله الروائي الضخم مؤرخًا للمجتمع الذي عاش فيه كأدق ما يكون المؤرخ. وتعد رواياته مرجعًا أساسيًّا لكل من يدرس الحياة اليومية لفرنسا في تلك الفترة. وقد ساعده على ذلك عدة أمور: فهو كان يقصد قصدًا أن يؤرخ لعصره بعد أن حاول في البداية كتابة روايات تاريخية عن نشأة فرنسا. وهو من ناحية أخرى كان على معرفة وثيقة بالمجتمع الذي عاش فيه. فكان أجداده لوالده يربطون أصوله بالفلاحين وبمعيشة القرية وأحلام شباب مدن الأقاليم الطامحين للمجد في العاصمة؛ كما عرف من أسرة والدته حياة تجار باريس ومشاغلهم؛ ومن فترة

عمله القصيرة في الشئون القانونية لمس عن كثب أنواع العلاقات القانونية الجديدة التي بدأت تستقر في البلاد على ضوء قوانين نابليون الشهيرة؛ وخلال مغامراته المالية المخففة خالط أوساط «البورصة» وتعلم الكثير عن المضاربين وأصحاب البنوك؛ وهو كصحفي، ثم كأديب، عاش عن كثب حياة الصحافة، وهي بعد في مرحلة الطفولة تخلط الإعلام بالرأي، والمعارضة بالتشهير والابتزاز. وهو كفنان نجح في أن يشق لنفسه طريقًا -بفضل ما حبته به بعض سيدات المجتمع «الأرستقراطي» من حماية- إلى «صالونات» باريس، وعرف طرفًا مما يدور فيها وفيما وراءها. وهو أخيرًا كان حريصًا جدّ الحرص على استمرار المراسلة بينه وبين قرائه، وبصفة خاصة قارئاته اللاتي كن يقطنَّ خارج باريس، ويجدن في رسائلهن إليه وسيلة لبث أشجانهن، والتنفيس عما يحسسن به من ضيق. ومن خلال بعض هذه المراسلات تعرف إلى السيدة التي أصبحت «حبه الكبير» ومن ناحية ثالثة كان بلزاك يجيد الوصف ويولع به، فهو حين يشير إلى مرض سيدة واعتكافها في حجرة نومها لا يملك أن يمنع نفسه عن أن يتناول أثاث الحجرة قطعة قطعة بالوصف الدقيق. وربما كان ولعه هذا بالتصوير هو الذي دفعه إلى حد صياغة الحوار في رواياته بالعامية عند اللزوم، أو بمحاكاته اللكنة الأجنبية إذا لم يكن المتحدث فرنسيًا أصيلًا.

وأبرز ما أرخ له بلزاك عبر راوياته هو مظاهر صعود

الطبقة الرأسمالية الجديدة وأساليب تكوينها، فهذا الأب «جوريو» يقتر على نفسه كل التقتير ليوفر «الدوطة» لبنتيه الحسناوين ليتزوجا بعض النبلاء أو الأثرياء، وهذا «جرانديه» يدخر محاولًا تحويل مطبعته الصغيرة إلى مؤسسة تجارية كبيرة، وذلك «البارون نوسينجن» يضارب في البورصة ويسحق منافسيه في غير رحمة بعد دعم مركزه كأحد ملوك المال، وهناك «لوسيان شاردان» يحاول استغلال وسامته وأدبه ليكسب قلوب بعض سيدات الأرستقراطية ويصعد بفضل نفوذهن. وثمة المضارب على أسعار القمح الذي جمع ثروة ضخمة أثناء حروب نابليون، وهناك «سيزار بيروتو» الذي حاول أن ينشئ صناعة حديثة لمستحضرات التجميل مستخدمًا «فن الإعلان» على نطاق واسع، فنجح أول الأمر، ولكن أطاحت به المضاربة. وفي خلفية الصورة نجد رجل «البوليس السياسي» الذي خدم جميع نظم الحكم المتعاقبة، والذي يستخدم ما جمع من المعلومات في الضغط على الكُتَّاب والساسة.

ولم تكن الوفرة في إنتاج بلزاك على حساب المستوى الفني. وإذا كان أسلوبه أحيانًا يقل عن المستوى المنتظر من كاتب مثله، فإن عددًا كبيرًا من رواياته قد احتل محلًّا ممتازًا بين أروع القصص العالمي في كل العصور. وقد اخترنا من بينها «امرأة في الثلاثين» لما تمتاز به من تحليل عميق وجمال عرض. ويبدو أن الكاتب قد اختار

البطلة من خلال الرسائل الكثيرة التي كان يتلقاها من نساء في سن الثلاثين، لأنها برزت أمامه لقوة شخصيتها. وأغلب الظن أنها كانت شديدة الحظوة لدى الناس. وقد استطاعت تجربة حكيمة أن تقنع بلزاك -عندما قابلها- بثبات مبادئها، وكانت مصدر إيحاء بالنسبة لأغلب مواقف الصرامة التي تخللت حياة السيدة ديجليمون داخل هذه الرواية.

لقد كان بلزاك يعتز بأن يكون روائيًّا قادرًا على تصوير المجتمع على حقيقته دون تجميل لما يسوده من عادات أو أوضاع أو سلوك أو أخلاق؛ برغم غضب الجمهور الذي يرعبه أحيانًا أن يتعرف على الصور الطبيعية. وقد اعتزت الإنسانية بإنتاج بلزاك الذي تجاوز التاريخ لعصره، وقدم شخصيات أقرب إلى جوهر الإنسان في شتى أوضاعه وظروفه. ولعل هذا سر قول الفيلسوف الفرنسي المعروف «ألان»: «لقد تعلمت من مؤلفات بلزاك أكثر مما تعلمت لدى الفلاسفة والسياسيين».

الإهداء

مهداة إلى المصوِّر

«لوي بولانجيه»

1

الأخطاء الأولى

في صباح يوم من أيام الأحد، في أوائل شهر أبريل سنة 1813، وكان الجو يبشر بيوم جميل من الأيام التي يرى الباريسيون فيها أرض شوارعهم خالية من الطين، وسماءهم خالية من السحب لأول مرة في السنة... اخترقت عربة ركوب بادية الفخامة، يجرها جوادان نشيطان شارع «ريفولي» من ناحية شارع «كاستيليون» قرب الظهيرة. وتوقفت العربة وراء خيول عربات عديدة مرابطة أمام الأسوار المقامة حديثًا وسط فناء دير «فييان». وكان يقود هذه العربة السريعة رجل يدل مظهره على المرض والقلق، ويغطي شعره الأبيض جمجمته المصفرة، مما كان يضفي عليه مظهر الشيخوخة قبل الأوان. وقذف الرجل بالعنان إلى التابع الذي كان يقود حصانه مقتفيًا اثر العربة، ثم نزل من العربة ليتلقى بين ذراعيه فتاة شابة استرعى حسنها اللطيف انتباه المتسكّعين من المتنزهين في الفناء.

وتركت الفتاة الصغيرة نفسها لرفيقها عن طيب خاطر ليحملها من خصرها عندما أشرفت على حافة العربة، ووضعت ذراعيها حول عنقه، حتى أنزلها على أرض الطِّوار، دون أن يؤثر في نضارة الزينة التي غطت فستانها المصنوع من القماش «التافتاه» الصقيل الأخضر؛ ولو

كان محبًّا لما بلغ به الاهتمام ذلك المبلغ. ولا بد أن يكون ذلك الرفيق المجهول والد هذه الابنة التي أمسكت بذراعه دون أن تشكره، وبغير كلفة، ثم سحبته فجأة إلى داخل الحديقة.

ولاحظ الأب المسن نظرات بعض الشباب المأخوذة، فزال من وجهه طابع الشقاء برهة محدودة. وعلى الرغم من أنه كان منذ وقت طويل قد بلغ السن التي يرضى فيها الرجال بالمتع الخادعة من جراء الغرور، أخذ يبتسم، وقال: «لقد اعتقدوا أنك زوجتي». قال هذا في أذن الشابة وهو يقوّم مظهره ويمضي في بطء يبعثها على اليأس.

وكان الرجل يبدو مدلًّا بابنته، وأكثر استمتاعًا منها، بالنظرات التي كان الفضوليون يصوبونها نحو قدميها الصغيرتين المنتعلتين حذاء ذا أربطة وذا فص كالبرغوث، ونحو قامة ممتعة مرسومة داخل ثوب بوشاح صدري، ونحو الرقبة الناضرة التي لا تخفيها «الياقة» المطرزة إخفاء كاملًا.

وكانت حركات المشي ترفع ثوب الفتاة لحظات خاطفة، فتسمح برؤية استدارة ساق مصبوبة صبًّا دقيقًا في جورب من الحرير المطرز بالثقوب فيما فوق الخف. كذلك تعمّد أكثر من مارّ سبقهما كيما يبدي إعجابه، أو لكي يرى وجهها الشاب الذي كانت تتأرجح عليه بعض حلقات شعرها الغامق اللون الذي كان بياضه وحمرته الوردية على درجة قوية، سواء بسبب انعكاسات قماش الأطلس

الوردي الذي صنعت منه بطانة معطفها الأنيق أو بسبب الرغبة وعدم الصبر اللذين كانا يكسوان كل ملامح تلك الإنسانة الجميلة. أما عيناها السوداوان الجميلتان فكان المكر الرقيق يبعث الحياة فيهما. وكانتا مشقوقتين كاللوزة، ورموشهما مقوسة تقويسًا حسنًا، ويعلوهما حاجبان طويلان، وكأنهما كانتا تسبحان في سائل نقي خالص.

وسخت الحياة والشباب فيما منحت هذا الوجه المتمرد، وفيما أفاضت به على نصف الفتاة الأعلى الذي ظل رشيقًا برغم الحزام المعقود تحت صدرها حينذاك.

ألقت الفتاة نظرة محملة بنوع من القلق نحو قصر «التويليري» الذي كان هدف نزهتها الطائشة بلا شك، غير عابئة بكل تحايا الاحترامات التي تعرضت لها. وكانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة. وبرغم أن الوقت كان مبكرًا، كانت بعض السيدات عائدات من القصر، وكن جميعًا في كامل زينتهن، ولم تكف واحدة منهن عن الالتفات نحو الفتاة بوجهها العابس، كأنهن نادمات على الحضور متأخرات، وعلى فوات فرصة الاستمتاع برؤية مشهد محبب. وأفلتت من شفاه أولئك العابرات اللائي خاب ظنهن بعد أن أخذن بجمال الفتاة الجميلة المجهولة بضعة ألفاظ دلت على تبرمهن، فأدت هذه الألفاظ إلى إثارة قلقها بوجه خاص. وراقب الكهل بعين الفضول علامات عدم الصبر والإشفاق التي كانت تتلاعب فوق وجه رفيقته الجذاب، أكثر مما راقبها بعين السخرية. وكان

يلاحظها بكثير من العناية حتى لا يكون حكمه عليها متأثرًا بفكرة أبوية سابقة.

كان ذلك اليوم هو الأحد الثالث عشر في سنة 1813. وبعد يومين من ذلك التاريخ كان «نابليون» في طريقه إلى حملته التي كانت مقدرًا له فيها أن يفقد «بيسيير» و«ديروك» على التوالي، وأن يكسب المعارك التاريخية في «لوتسين» و«باوتسين»، ثم تخونه «النمسا» و«الساكس» و«بافاريا» ويخونه المارشال «برنادوت» وينازع على كسب المعركة المخيفة في «ليبزج». وكان الموكب الرائع الذي سار بناء على أمر الإمبراطور آخر المواكب التي اعتادت أن تثير إعجاب الباريسيين والأجانب مدة طويلة جدًّا.

وأوشك الحرس القديم أن يقوم بتنفيذ أخير للمناورات البارعة التي كانت ذات «ضبط وربط» ونخفخة تبعث على الدهشة أحيانًا بما في ذلك الرجل العملاق الذي كان يستعد حينذاك لمبارزة أوربا بأسرها.

وأدت عاطفة حزينة بجمهور متألق فضولي، إلى الاتجاه نحو حدائق «التويليري». وكان الجميع يبدون وكأنهم يعرفون المستقبل، وكادوا يحسون بأن الخيال يمكنه أكثر من مرة أن يتتبع لوحة ذلك المنظر، عندما كان من واجب تلك الأزمنة البطولية في فرنسا -كما هو الحال الآن- أن تتعهد بالأصباغ البالغة حد الأسطورة تقريبًا.

قالت الفتاة في مداعبة ماكرة وهي تسحب الرجل العجوز: لنسرع أكثر من هذا يا أبي، إنني أسمع دق الطبول.

قال الوالد: إنها الفرق التي تدخل حدائق «التويليري».

أجابت الفتاة بمرارة طفولية بعثت الرجل العجوز على الابتسام: أو التي تتابع في العرض العسكري. إذ يعود الناس كلهم من جديد.

قال الأب وهو يمشي في أثر ابنته المندفعة: لا يبدأ العرض إلا في الساعة الثانية عشرة والنصف.

ولو أنك شهدت الحركة التي كانت تضغط بها على ذراعه اليمني لقلت إنها كانت تستعين به على الركض، وكانت يدها الصغيرة داخل القفاز تدعك منديلًا بفروغ الصبر، وتشبه في ذلك مجذاف قارب يشق الأمواج. وكان العجوز يبتسم بين وقت وآخر، وكانت تعلو وجهه الجامد من وقت إلى آخر أيضًا تعبيرات قلقة تجعله يبدو حزينًا حزنًا عابرًا؛ ذلك لأن حبه هذه المخلوقة الجميلة كان يدفعه إلى الإعجاب بالحاضر بقدر ما كان يدفعه إلى الخوف من المستقبل. وكان يبدو كما لو كان يقول لنفسه: «إنها اليوم سعيدة، فهل تكون كذلك دومًا؟» ذلك أن الشيوخ المسنين يميلون إلى أن يسبغوا أحزانهم على مستقبل الشباب.

وعندما بلغ الأب وابنته الممشى الداخلي تحت أعلى صوان، حيث كانت الراية الثلاثية الألوان ترفرف،

وحيث كان المتنزهون يروحون ويغدون من «التويليري» إلى ميدان قوس نصر «الكاروسيل» نادى الملاحظون بصوت أجش: «لم يعد مسموحًا بالمرور!».

ووقفت الفتاة على أطراف أصابع قدميها، فاستطاعت أن ترى جمعًا من النساء الآخذات بأطراف الزينة، وهن يشغلن جانبي «البوا كي» الرخامية العتيقة التي كان مقدرًا أن يخرج منها الإمبراطور وقالت:

- ها أنت ذا ترى يا أبي أننا خرجنا من البيت متأخرين.

وكشفت تقطيبة وجهها الحزينة عن الأهمية التي علقتها على حضورها إلى هذا العرض.

- على أي حال هيا بنا ننصرف يا «جولي» أنت لا تحبين أن يزاحمك أحد.

- بل فلنبق يا أبي. لعلي أستطيع من هنا أن ألمح الإمبراطور. فلو مات أثناء الحملة لما رأيته على الإطلاق.

وارتعد الأب عند مساعه هذه الأقوال الأنانية، وخنقت العبرات صوت ابنته. ونظر إليها فاعتقد أنه لاحظ تحت أجفانها المسبلة بعض الدموع التي لم تنجم عن الغيظ، ولكن عن أحد هذه الأحزان الأولى التي يسهل على أب عجوز أن يخمن سرها... وفجأة احمر وجه «جولي» وبدر منها هتاف دالّ على التعجب لم يفهم معناه الحراس أو الرجل العجوز. وعندما بدر منها الهتاف كان أحد الضباط يثب من ناحية الفناء نحو السلم، فالتفت بقوة، وتقدم

إلى أن بلغ «بواكي» الحديقة، وتعرف على الفتاة الشابة في لمحة وراء قلانس جنود المقذوفات ذات الزغب. وكسر من أجلها، ومن أجل والدها، التعليمات التي كان هو نفسه قد أعطاها من قبل. ثم جذب نحوه برقة تلك الابنة المبتهجة دون أن يعبأ بهمسات الحشد المتأنق الذي كان مرابطًا تحت «البواكي».

قال الوالد العجوز للضابط بلهجة جادة وساخرة معًا: لم يعد يدهشني غضبها أو استعجالها طالما كنت أنت في الخدمة.

- إذا شئت يا سيدي أن تقف في المكان الأفضل فلا تجعل تسليتنا الكلام. إذ لا يحب الإمبراطور الانتظار، وقد كلفني الماريشال بأن أذهب إليه لإخطاره.

وكان يتكلم وهو يأخذ بذراع «جولي» في نوع من الألفة المعتادة، وسحبها بسرعة نحو قوس نصر «الكاروسيل»، وعندئذ لمحت «جولي» في دهشة حشدًا هائلًا يسرع الخطو في المساحة الضيقة القائمة بين جدران القصر الرمادية والعلامات المترابطة فيما بينها السلاسل التي تحدد معالم المربعات الشاسعة المغطاة بالرمل وسط فناء «التويليري» ووجد الحراس -المتشابكون في صورة جدائل لتحفظ طريق عبور الإمبراطور وأركان حربه- صعوبة كبيرة في الاحتفاظ بمواقعها برغم الجموع المزدحمة المتسرعة التي تطن كخلية النحل.

سألت «جولي» وهي تبتسم: سيكون المشهد رائعًا بالطبع؟

- انتبهي إذن. قال الضابط هذا وهو يمسك «جولي» من وسطها ليرفعها بغير قليل من القوة والسرعة معًا كي يحملها إلى أقرب الأعمدة.

ولو لم يحملها بسرعة خاطفة لكانت قريبته الفضولية قد رضرضها مؤخر الفرس الأبيض المطهم بسرج من القطيفة الخضراء المذهبة الذي كان يقوده من لجامه مملوك «نابليون» تحت «البواكي» تقريبًا، على بعد عشر خطوات خلف كل الخيول التي كانت تنتظر الضباط العظام من رفقاء الإمبراطور.

وجعل الشاب مكان الأب والابنة قرب أول علامة إلى اليمين أمام الحشود، وأوصى بهما بإشارة من رأسه جنديين عجوزين من جنود القذائف جاء مكانهما بينهما.

وعندما عاد الشاب إلى القصر كانت السعادة والفرح قد حلتا في تعبير وجهه محل الوجل المفاجئ، الذي كان تراجع الفرس قد طبعه عليه. كانت «جولي» قد ضغطت على يده خفية وهي تصافحه، سواء لكي تشكره على خدمته الصغيرة التي قدمها لها أم لتقول له: «سوف أراك إذن؟» وحنت رأسها برفق ردًا على تحية الاحترام التي أداها الضابط لها ولوالدها قبل أن يختفي في حركة بارعة. وبقي العجوز في موقف رزين خلف ابنته بقليل محاولًا إظهار أنه قد تعمد ترك الفتاة والفتى معًا. غير أنه راقبها من طرف

خفي، وحاول أن يوحي إليها بأمان كاذب حين بدا في شغل شاغل عنها بتأمل المشهد الرائع المتمثل في قوس نصر «الكاروسيل». وعندما أعادت «جولي» نحو أبيها نظرة التلميذ المتخوّف من معلمه، أجابها العجوز بابتسامة الفرح العطوف؛ غير أن عينه النفاذة تابعت الضابط حتى بلغ «البواكي» دون أن يفوته أي حدث في ذلك المنظر السريع.

قالت «جولي» بصوت منخفض وهي تضغط يد والدها: أي مشهد رائع!

وكان هذا الهتاف الدال على الانفعال قد صدر عن آلاف المشاهدين الذين ظهرت وجوههم جميعًا فاغرة الأفواه من التعجب أمام المرأى الفتان العظيم الذي كان يمثله في تلك اللحظة قوس نصر «الكاروسيل». وكان صف آخر من الزحام المتعجل، مثل الصف الذي كان العجوز وابنته ممسكين به يشغل المكان الضيق المرصوف على طول حاجز قوس نصر «الكاروسيل» في خط مواز للقصر. وأتم ذلك الجمع المزدحم إعداد رسم تلك الحديقة الطويلة التي هيأت شكلها أبنية «التويليري» وذلك الحاجز المقام حديثًا رسمًا قويًا بواسطة الزينة المنوعة التي اتخذتها النساء. وملأت سرايا الحرس القديم التي كانت مستعدة للمرور في العرض تلك الأرض الواسعة، حيث ظهرت قبالة القصر في خطوط زرقاء حاشدة ذات عشرة صفوف طويلة. وخارج هذه الدائرة، وفي فناء «الكاروسيل»

كانت صفوف أخرى متوازية وعديدة من سرايا المشاة والفرسان المستعدة للقيام بالعرض تحت قوس النصر الذي يزين وسط الحاجز، والذي كانت ترى في أعلى قمته في تلك الفترة خيول «فينيسيا» الرائعة. واحتلت فرقة موسيقى السرايا مكانها أسفل أروقة «اللوفر» وكانت متنكرة في صورة فرسان خيالة بولنديين في أثناء الخدمة. وبقي جزء كبير من الحديقة المغطى بالرمال فارغًا كأرض الملاعب المعدة لحركات هذه الفيالق الصامتة، التي كانت مجموعاتها المرتبة في تناسب فني حربي، تعكس أشعة الشمس في لهب مثلث الشكل فوق عشرة آلاف من الحراب. وكان الهواء يحرك ريش القلانس فوق رؤوس الجنود فيدفعها إلى الحركة كالأمواج، على نحو ما تنحني الأشجار في الغابة أمام الرياح العاصفة. وكانت هذه الأسراب العتيقة الخرساء اللامعة، تعرض ألف اختلاف لوني نتيجة للتنوع في الزي وحواشي أكمام الملابس والأسلحة وجدائل الحبال فوق الأكتاف والصدور.

كانت هذه اللوحة الضخمة أشبه ما تكون بصورة حفرية لميدان قتال قبل المعركة بكل توابعه وأحداثه الغريبة وكأنما أحيطت شعريًّا بإطار من الأبنية الفخمة العالية التي كان الجنود والرؤساء يحاكون جمودها حينذاك. فقد كان المشاهد يوازن لا إراديًّا بين هذه الجدران البشرية وتلك الجدران الحجرية. وألقت شمس الربيع ضوءها بسخاء فوق الحوائط البيضاء التي أقيمت في اليوم الأسبق، وفوق

الجدران القديمة العهد، فأنارت -بشكل تام- تلك الوجوه العديدة المسمرة التي كانت تبوح بأخطارها السابقة، وتتوقع في تجهم أخطارًا مستقبلة. وكان مقدمو كل سرية يروحون ويغدون منفردين أمام الجبهات التي أنشأها أولئك الأبطال. واستطاع المتطلعون أن يلمحوا وراء أسلحة هذه المجموعات القديمة المنقوشة بالألوان الفضية الزرقاء والأرجوانية والذهبية الرايات الطويلة الثلاثية الألوان المربوطة في أعلى حراب ستة من الفرسان «البولونيين» الذين لا يكلون، والذين يشبهون الكلاب التي تسوق القطيع على طول الحقل، وهم يجولون بلا توقف بين الفرق والمتطلعين، كي يحولوا دون أن يتخطى هؤلاء المتطلعون المكان الصغير من الأرض المسموح لهم به داخل الحاجز الإمبراطوري. وكانت رؤية هذه المحركات المتكررة في غير تباعد توحي بأننا في قصر «الجميلة بالغابة الراكدة» كما صورته حكاية «بيروه» الخرافية. وأكد نسيم الربيع العابر فوق قلنسوات رجال المدفعية ذات الزغب سكون الجنود، ولكنه كشف ضجيج الزحام الأصم عن صمتهم. وكان يكفي رنين قبعة صينية فقط، أو ضربة خفيفة على صندوق كبير سهوًا، كي يتردّد صداهما في جوانب القصر الإمبراطوري فيما يشبه قصف الرعد البعيد الذي يبشر بالعاصفة. وسطع حماس لا يوصف في انتظار الجموع الغفيرة؛ إذ خرجت فرنسا لتودع «نابليون» عشية حملته التي كانت أخطارها متوقعة لدى أبسط المواطنين. كانت المسألة في هذه المرة مسألة «وجود أو لا وجود» بالنسبة

إلى الإمبراطورية الفرنسية. وكأنما شجعت هذه الفكرة أهل البلد من المدنيين والعسكريين الذين لزموا الصمت، وهم يتزاحمون في الفناء الذي حام فيه نسر «نابليون» وعبقريته.

وكان هؤلاء الجنود أمل فرنسا، وآخر نقاط دمائها، كما كانوا يشغلون جزءًا غير قليل أيضًا من فضول المشاهدين المليء بالقلق في اعتبار الكثيرين. وكان أغلب المعاونين والعسكريين يودع بعضهم بعضًا وداعًا يكاد يكون إلى الأبد. ولكن توجهت القلوب جميعًا، حتى أشدها عداوة للإمبراطور إلى الله، بدعائها الحار من أجل مجد الوطن. بل لقد تخلى الرجال المتعبون من الصراع بين أوربا وفرنسا كلهم عن أحقادهم، عند عبورهم تحت قوس النصر، مدركين أن «نابليون» في يوم الخطر هو فرنسا بأكملها. ودقت ساعة القصر دالة على النصف بعد الثانية عشرة. وفي تلك اللحظة توقف طنين الزحام وصار الصمت عميقًا بحيث كان يمكن سماع كلمات طفل صغير. واستطاع العجوز وابنته، اللذان كانا يعيشان بعيونهما فقط، أن يتبينا صوت المهاميز وقعقعة السيوف التي دوّت تحت دهاليز القصر ذات الرنين.

وظهر فجأة رجل قصير، متوسط السمنة، يلبس زيًا أخضر اللون وسروالًا أبيض، وينتعل أحذية الفرسان، واضعًا فوق رأسه قبعة ذات ثلاثة أبواق ضخمة، تبلغ حجم الرجل نفسه. وكان الشريط العريض الأحمر الخاص بنوط الشرف يتدلى على صدره، كما كان يتدلى إلى جانبه

سيف صغير، وكانت جميع العيون ترى الرجل في وقت واحد من كل جوانب المكان. وفي التو قرعت الطبول في الساحة، وشرعت الفرقتان الموسيقيتان تعزفان صيغة موسيقية تكرر تعبيرها الحربي على كل الآلات ابتداء من أرق زمارة إلى أكبر الطبول. وارتعدت الأرواح أمام هذه الدعوة إلى القتال، كما أدت الأعلام التحية، ودفع الجنود الأسلحة في حركة موحدة ومنظمة أثارت حركة البنادق لدى أصغر الرتب وأكبرها على أرض «الكاروسيل».

وتنقلت صيغ الأوامر من رتبة إلى رتبة على نحو ما تتناقل الأصداء ثم تدافعت صيحات: «عاش الإمبراطور» على لسان الجمهور المتحمس. ثم أصابت الرعدة الجميع، فصاروا يموجون ويتحركون.. وظهر «نابليون» راكبًا الفرس. وكأنما طبعت هذه الحركة الحياة على هذه الجموع الصامتة، وهبت الأدوات الموسيقية الصوت، وبعثت الدفع في النسور والرايات والانفعال في كل الوجوه. وبدت جدران الدهاليز المرتفعة في هذا القصر العتيق كما لو كانت تصرخ هي الأخرى: «عاش الإمبراطور». ولم يكن ذلك كله يشبه شيئًا إنسانيًا، وإنما كان يشبه سحرًا أو طيفًا من القدرة القدسية، أو أكثر من هذا بصورة ذهنية شاردة لهذه المملكة المؤقتة.

ظل الرجل على فرسه محاطًا بكل هذا القدر من الحب والحماس والإخلاص والدعاء، بعد أن قشعت الشمس سحب السماء من أجله، وبقي على بعد ثلاث خطوات إلى

الأمام من الكتيبة الذهبية التي كانت تمشي في أثره، فإلى شماله المشير الأول، وإلى يمينه مشير الخدمات. ووسط كل مظاهر الانفعال التي أثارتها رؤيته لم يبد على ملامح وجهه أي انفعال.

- أوه... يا إلهي... نعم... من «واجرام» وسط النيران، إلى «موسكو» بين الأموات، وهو دائمًا هادئ كالمعمدان.. هو.

كانت تلك إجابة أحد رجال المدفعية على الأسئلة العديدة التي وجهت إليه في أثناء وجوده قريبًا من الفتاة الشابة. وظلت «جولي» مأخوذة مدة معينة بتأمل ذلك الوجه الذي كان هدوؤه ينم عن ثقة كبيرة بقوته. ولمح الإمبراطور الآنسة «دي شاتيو نيست» ومال نحو «ديروك» ليقول له عبارة أضحكت المشير الأول. ثم بدأت المناورات.

ومع أن الشابة كانت قسمت انتباهها حتى ذلك الحين بين وجه «نابليون» الخالي من أي تأثر، وبين صفوف الفرق الزرقاء والخضراء والحمراء، خصصت في تلك اللحظة اهتمامها تقريبًا وسط الحركات السريعة المنتظمة التي قام بها الجنود الأقدمون -بضابط شاب كان يعدو فوق فرسه بين الصفوف المتحركة، ثم يرجع في نشاط لا يكلّ نحو المجموعة التي كان يتلألأ على رأسها فرد بسيط هو «نابليون».

وكان فرس ذلك الضابط فاخرًا أسود اللون، كما كان هو نفسه يتميز وسط هذه الجموع، المزينة بشتى الأوسمة، بهذا الزي الجميل الأزرق السماوي الخاص بضباط ياوران الإمبراطور. ولمعت تلك التطاريز على نحو برّاق في شعاع الشمس، فاستمدت منه عفرة قلنسوته الضيقة العالية وهجًا قويًّا دفع المشاهدين إلى مقارنته بأحد الشهب، وبالروح الخفية الموكلة من قِبَل الإمبراطور بابتعاث وبقيادة مدفعية المشاة، التي كانت أسلحتها المائجة تلقي بالحمم عندما تنفجر وتسكن، وتجول بإشارة من عينيه في موجات كموجات درجات الجحيم، أو تمضي أمامه كالأنصال الطويلة المستقيمة المرتفعة التي يصوّبها المحيط الهائج نحو شواطئه.

وعندما انتهت المناورات ركض الضابط الياور بغاية السرعة، ثم توقف أمام الإمبراطور ينتظر الأوامر. وفي تلك اللحظة كان على بعد عشرين خطوة من «جولي» وجهًا لوجه، أمام المجموعة الإمبراطورية، مشابهًا في ذلك الموقف موقف «جيرار» أمام الجنرال «راب» في لوحة معركة «أوستر ليتز». وعندئذ أتيحت الفرصة للفتاة الشابة كي تملى بإعجاب حبيبها في أوج جلاله العسكري.

لقد كان المقدم «فيكتور ديجليمون» في حوالي الثلاثين من عمره، فارع الطول، ممشوق القوام، حسن التكوين؛ ولم تكن مقاييس بدنه المتوافقة تتبين أكثر مما كانت تتبين عندما يستخدم قوته في التحكم في فرسه الذي بدا ظهره الأنيق اللين كما لو كان قد انثنى تحته. وكان وجهه حازمًا

أسمر اللون، ذا جاذبية غامضة يسبغها التساوق الكامل في الملامح عادة على وجوه الشباب، كما كانت جبهته عريضة مرتفعة، وارتسمت عيناه الحادتان المظللتان بحواجب كثيفة، والمحفوفتان برموش طويلة كأنهما إهليلجان أبيضان بين خطين أسودين، وكان أنفه ذا استدارة رقيقة كمنقار النسر، وكانت أرجوانية شفتيه قوية بتأثير تعرجات الشارب الأسود التي كانت مفروضة فرضًا، وكان خداه العريضان بلونهما الظاهر يمثلان درجات من السمرة والصفرة تنمّ عن صرامة غير عادية، وعلا وجهه دافع الشجاعة بحيث صار يمثل النموذج الذي يبحث عنه الفنان في أيامنا هذه لكي يجد فيه نمط أبطال فرنسا في عهدها الإمبراطوري أما فرسه فكان مبللًا بالعرق، وكان رأسه دائم الحركة تعبيرًا عن تعجله البالغ، كما كانت قدماه الأماميتان متباعدتين ثابتتين على خط واحد، فلا تتقدم إحداهما على الأخرى. وكان الفرس يهز خصلات ذيله الكثيف الطويلة، وكشف استسلامه في صورة محسوسة عما كان سيده يكنّه للإمبراطور.

رأت «جولي» حبيبها مشغولًا بالاستئثار بنظرات «نابليون» فأحست بلحظة من لحظات الغيرة عندما قدرت أنه لم يلحظها بعد. وفجأة نطق الإمبراطور بكلمة، فإذا «فيكتور» يضغط ضلوع فرسه ويسرع في العدو. غير أن ظل الأنصاب الجانبية الساقط على الرمل أفزع الفرس، فجعله ينفر ويتراجع، ثم يعتدل، وتم ذلك كله فجأة بحيث

بدا الفارس، في خطر؛ وبدرت صرخة من فم «جولي» وامتقع لونها، ونظر إليها الكل في استغراب، ولكنها لم تعد ترى أحدًا، وبقيت عيناها معلقتين بهذا الفرس الوثّاب الذي عمد الضابط إلى عقابه وهو يقوم بالعدو، لإملاء أوامر «نابليون». وتملكت كل هذه اللوحات المذهلة «جولي» تملكًا كاملًا حتى إنها تشبثت دون وعي منها بذراع أبيها الذي كشفت له عن أفكارها بغير قصد منها بواسطة ضغط أصابعها القوي إلى حد ما. وعندما أوشك فيكتور أن ينقلب من فوق الحصان التصقت بأبيها في عنف أشد، كما لو كانت هي نفسها تخشى السقوط.

وتأمل العجوز وجه ابنته المتهلل بقلق مظلم متألم، بل تسربت إلى كل تجعيداته المقطبة مشاعر شفقة وغيرة وأسف. ولكن بمجرد انتهاء بريق عيني «جولي» غير المألوف، وصيحتها التي صدرت عنها، وحركة أصابعها المصحوبة بالتشنج من الإفصاح عن حبها الخفي، أحس بلا شك بإيحاءات حزينة عن المستقبل ظهرت دلائلها على تعبير وجهه المنكوب.

في تلك اللحظة عينها بدت روح «جولي» كأنها قد انتقلت إلى روح الضابط نفسه، فسببت فكرة أشد قسوة من تلك التي أفزعت العجوز من قبل في انقباض ملامح وجهه المتألم عندما لمح «ديجليمون» يتبادل نظرة تفاهم مع «جولي» التي بللت عينيها الدموع، وأصيب لونها بحيوية خارقة عندما عبر أمامهما. وفجأة صحب ابنته إلى حدائق

«التويليري».

قالت: «لا.. لا يا أبي... لا يزال في ساحة «الكاروسيل» من السرايا ما يقوم بالمناورات».

- لا يا ابنتي... كل الفرق تشترك في العرض.

- أعتقد أنك مخطئ يا أبي؛ إذ لا بد أن يكون السيد «ديجليمون» قد أمرها بالتقدم.

- ولكنني أشعر بوعكة يا بنتي، ولا أحب البقاء.

ولم يكن يصعب على «جولي» أن تصدق أباها عندما ألقت نظراتها على وجهه الذي زودته المخاوف الأبوية بطابع الرجل الخائر المنهوك.

سألته بغير مبالاة كما لو كانت مشغولة: «هل تتعذب كثيرًا؟».

- أليس كل يوم من أيام حياتي يوم نعمة بالنسبة إلي أو يوم هبة؟

- لسوف تزيد من حزني إذا تكلمت عن موتك. لقد كنت شديدة المرح. هل لك في أن تطرد أفكارك السوداء الخبيثة؟

صاح الأب وهو يتنهد: آه!.. يا لك من طفلة مدللة! إن القلوب الطيبة تكون مؤكدة القسوة في بعض الأحيان. فإذا خصصناك بحياتنا، وإذا لم نفكر إلا فيك، وأعددنا لك رفاهيتك، وضحّينا بأذواقنا من أجل أوهامك، ومن أجل

تقديرك وإعطائك دمنا... أفليس لذلك كله معنى إذَنْ؟ وا أسفاه! لا شك أنك تتقبلين ذلك كله بلا أدنى مبالاة. وكان ينبغي أن تكون لنا قدرات الآلهة، كي نحصل منك على ابتساماتك، وعلى حبك المعبر عن الازدراء. ثم في النهاية يأتي آخر.. عاشق.. زوج يسحر قلوبنا.

نظرت «جولي» إلى والدها مندهشة، وهو يخط ببطء، ويلقي إليها بنظراته القاتمة، فعاد يقول:

- إنك تخفين علينا ولعلك تخفين أيضًا على نفسك.

- ماذا تقول يا أبي؟

- أعتقد أنك تخفين عني أسرارًا يا «جولي». إنك تحبين..

وقال العجوز مرة أخرى عندما لاحظ أن ابنته قد احمر وجهها: آه.. لقد كنت أتعشم أن تظلي مخلصة لأبيك العجوز حتى وفاته. كنت آمل الاحتفاظ بك قريبة مني، وسعيدة متألقة، فأعجب بك كما كنت منذ قليل. ولما كنت أجهل مصيرك فقد حسبت أن سيكون لك مستقبل هادئ. غير أنه من المستحيل الآن أن أحتفظ بأمل في سعادة حياتك، لأنك تحبين المقدم أكثر مما تحبين من هو (قريبك). لا أشك في ذلك.

صاحت الفتاة في تعبير قوي ينم عن الاستغراب: «ولماذا يكون حبه محرمًا علي؟»».

أجاب الأب متنهدًا: آه... يا «جولي» لن تستطيع أن تفهمي ما أعنيه.

قالت مفصحة عن حركة عصيان: قل إذن..

- اسمعي إذن يا بنتي جيدًا. تقوم الفتيات بإبداع صور باهرة نبيلة، ونماذج مثالية، وباختلاق أفكار وهمية عن الرجال، وعن العواطف، وعن العالم، ثم يقمن في براءة برد الكمالات التي حلمن بها إلى طبيعة ما من الطبائع ثم يشرعن بعد ذلك في الاطمئنان إليها. وهن يحببن في الرجل الذي يخترنه ذلك المخلوق الخيالي. ولكن في النهاية عندما لا يكون ثمة وقت للخلاص من المصيبة، ومن المظهر الخداع الذي أضفوا عليه الحسن، يستحيل معبودهم الأول في النهاية إلى هيكل عظمى كريه. «جولي» إنني أفضل أن أراك تحبين رجلًا عجوزًا على أن أراك تعشقين المقدم.. آه.. لو أنك استطعت أن تضعي نفسك بعد عشر سنوات من الآن في الحياة لكنت عادلة بالنسبة إلى تجربتي. إنني أعرف «فيكتور» وأعرف أن بشاشته خالية من الروح... إنها بشاشة الثكنات. وهو فضلًا عن ذلك خال من أي موهبة، ومن أي ميل إلى الإنفاق. إنه واحد من أولئك الرجال الذين خلقهم الله ليأكلوا ويهضموا أربع وجبات في النهار. ثم ليناموا أو يحتفوا بأول قادمة، ويحاربوا. إنه لا يفهم الحياة. وهو ذو قلب طيب، وقد يقتاده قلبه إلى إعطاء أحد البائسين أو أحد رفاقه محفظة نقوده، ولكنه غافل ولم يوهب رقة القلب التي تجعلنا أحيانًا عبيدًا لسعادة

امرأة. ثم إنه جاهل أناني... هناك كثير من الصفات السلبية.

- وبرغم ذلك، يا أبي، لا بد أن يكون له من الروح والوسائل ما دفعه ليكون مقدمًا. قال الأب في نوع من الحماسة: يا عزيزتي، إن «فيكتور» سيظل مقدمًا أبد الحياة. إنني لم أر بعد الشخص الذي يليق بك في عيني. ثم توقف لحظة وتأمل ابنته. وأضاف: ولكنك لا تزالين أصغر، وأضعف، وأرق، من أن تحملي أشجان الزواج ومتاعبه، يا صغيرتي «جوليا» المسكينة. ثم إن «ديجليمون» قد دلله والده كما دللت أمك ودللتك؛ فكيف نتعشم أن ينشأ تفاهم بينكما بإرادات مختلفة مطبوعة بطابع التحكم، بحيث لا يمكن التوفيق بينها. ولا بد أن تكوني أحد اثنين: ضحية أو طاغية، وكلا البديلين يجلبان مبلغًا متعادلًا من الشقاء في حياة المرأة، غير أنك رقيقة ومتواضعة، وستنثنين قبله وعندك لطف عاطفي لن يعرف قدره.. وعندئذ.

قال هذه العبارة بصوت مضطرب، ثم لم يكملها، إذ خنقته العبرات. ثم عاد يقول بعد صمت وجيز: سوف يجرح «فيكتور» صفات البراءة التي تميز بها روحك الشابة. فأنا أعرف الرجال العسكريين يا صغيرتي «جولي» وعشت في الجيوش. ومن النادر أن ينتصر قلب هؤلاء الناس على العادات الناجمة عن الشقاء الذي يعيشون فيه، أو عن مصادمات حياتهم المغامرة.

- أجابت «جولي» في نغمة وسط بين الجد والمزاح: «إنك

تريد يا أبي -إذن- أن تقلب عواطفي، وأنا تدفعني إلى الزواج من أجلك أنت لا من أجلي أنا».

صاح الأب في نوع من الاندهاش: أدفعك إلى الزواج من أجلي... من أجلي أنا يا بنيتي.. أنا.. الذي لن تسمعي صوتي قريبًا بهذه النغمة الودية من التأنيب! لقد لاحظت أن الأبناء يعزون دائمًا تضحيات الوالدين نحوهم إلى عاطفة شخصية. تزوجي «فيكتور» يا صغيرتي «جولي» وسوف ترثين يومًا بمرارة لعدم صلاحيته وفساده، وأنانيته، وفظاعته، وبلاهته في الحب. وآلاف الكروب الأخرى. التي ستنزل بك منه. فاذكري إذن أن صوت الوحي الذي نطق به أبوك -تحت هذه الأشجار- قد دوى عبثًا في أذنيك.

وسكت العجوز، وفاجأ ابنته بنظرته، وهي تهزّ رأسها في عصيان. ثم قام كل منهما ببضع خطوات نحو الحاجز، حيث كانت عربتهما واقفة. وفي أثناء هذا المشي الصامت فحصت الفتاة خفية وجه أبيها، وتنقلت درجة درجة بين أجزاء سحنته المقطبة؛ إذ ترك فيها الألم العميق المحفور على جبهته المائلة نحو الأرض انطباعًا شديدًا، وقالت بصوت رفيع مضطرب: أعدك يا أبي.. ألا أتكلم إليك عن «فيكتور» ما لم تكن قد عدلت عن سوابق ظنك عنه.

ونظر العجوز إلى ابنته في استغراب، وانحدرت على طول خديه المجعدين دمعتان كانتا تدوران في عينيه، ولم يستطع أن يقبّل «جولي» على مشهد من الناس الذين كانوا محيطين

بهما، واكتفى بأن ضغط على يدها في رقة. وعندما صعد إلى العربة كانت جميع أفكار الأسى التي تجمعت فوق جبهته قد اختفت تمامًا، وأقلقه وضع ابنته الحزين عندئذ أقل مما أقلقه المرح الذي بدر سره من «جولي» أثناء العرض.

* * *

في الأيام الأولى من شهر مارس سنة 1814، أي بعد أقل من سنة بقليل من يوم ذلك العرض الإمبراطوري، كانت مركبة بأربعة دواليب تشق طريقها من «أمبواز» إلى «تور» وكانت المركبة تجري بغاية السرعة، وهي تغادر أشجار الجوز الضخمة الشبيهة بالقبة الخضراء، والتي يختفي تحتها مركز «لافريليير» حتى جاءت اللحظة التي وصلت فيها إلى جسر مبني فوق نهر «الشير» من ناحية مصبه في نهر «اللوار»، فتوقفت فجأة، وإذا أحد محاور العجلات ينكسر على إثر الحركة التي لم يكن تفاديها ممكنًا، عندما تلقى سائق المركبة الشاب أمر سيده بذلك، والتي حاول أن يفرضها بدوره على أربعة خيول من أشد خيول المرابط قوة.

وهيأت الصدفة للشخصين اللذين في داخل المركبة الوقت الضروري -عند يقظتهما- لتأمل موقع من أجمل المواقع التي يمكن أن تمثلها شواطئ نهر «اللوار» الخلابة. فإلى اليمين كان يمكن أن يجمع المسافر في نظره كل انحناءات نهر «الشير» الذي يزحف مثل ثعبان فضي وسط أعشاب المزارع التي أسبغت عليها أولى دفعات الربيع

ألوان الزمرد، وإلى اليسار كان يبدو نهر «اللوار» في كل روعته؛ وكانت لفحة هواء الصباح الباردة قليلًا تخلق صفحات عديدة من بعض لطماتها المتواترة، فتعكس ذبذبات الشمس فوق مسطحات الماء الساكن الشاسعة التي يظهرها ذلك النهر المهيب. وكانت الجزر المخضرة هنا وهناك تتوالى في مساحة المياه كما تتوالى فصوص العقد. وفي الناحية الأخرى من النهر كانت أجمل أرياف مقاطعة «التورين» تبسط كنوزها إلى آخر امتداد البصر. وفي أقصى المشهد لا تقع العين على أي تخوم سوى تلال نهر «الشير» التي كانت قممها ترسم في تلك اللحظة خطوطًا مضيئة فوق زرقة السماء الصافية. وكانت مدينة «تور» تبدو خلال أوراق الشجر الرقيقة في الجزر الظاهرة في أقصى المشهد أشبه ما تكون بمدينة البندقية من حيث بروزها وسط المياه، وكانت أبراج أجراس «كاتدرائيتها» العتيقة تعلو في الجو حتى صارت أشبه بالسحب البيضاء حين تتحول إلى اختلافات وهمية.

وكان المسافر يلمح وراء الجسر الذي وقفت المركبة فوقه، وفي الواجهة مباشرة نهر «اللوار» على طول حوضه حتى مدينة «تور» وسلسلة من الصخور التي شكلتها الطبيعة حتى بدت كأنها قد وضعت لتصد أمواج النهر التي تنهش الحجر في دأب، وهو مشهد يذهل المسافر دائمًا وتبدو قرية «فوفريه» كأنها قد عششت في مضايق تلال تلك الصخور التي بدأت ترسم زاوية أمام جسر نهر «الشير» ومن

«فوفوريه» حتى مدينة «تور». ويسكن المنعطفات المخيفة في ذلك التل قوم من زراع الكروم. وفي أكثر من موضع توجد ثلاث طبقات من المنازل المحفورة في الصخر، تجمعها سلالم خطرة منحوتة في الحجر.

وفي أعلى سقف أحد البيوت كانت فتاة ذات «جونلة» حمراء تجري نحو حديقتها، وقد تصاعد دخان إحدى المداخن بين فروع الكروم وبين أغصانه المورقة، وكان بعض المزارعين يحرثون حقولًا متعامدة وامرأة عجوز تدير دولاب مغزلها تحت زهور شجرة اللوز، وتتأمل عبور المسافرين من تحتها ضاحكة من فزعهم، وهي جالسة في هدوء فوق صخرة هوت من الجبل، ولم تكن تقلقها شقوق الأرض ولا احتمال انهيار حائط قديم لم تعد تسنده سوى جذور متشابكة لنبات اللبلاب الذي يغطيه، وكانت أوباء الكهوف المفتوحة تردد صدى ضربات مطارق صانعي الدنان؛ والأرض بعد هذا كله مزروعة في كل مكان؛ وخصبة في كل مكان، حيثما رفضت الطبيعة أن تتخلى عن الأرض للصناعة الإنسانية. ولا شيء يوازن في حوض نهر «اللوار» بالمنظر العام الغني الذي تمثله مقاطعة (التورين) في عيون المسافر.

واللوحة الثلاثية -لهذا المنظر- ذات الأوجه المبينة على وجه التقريب تزود الروح بأحد هذه المشاهد التي تنقشها بالذاكرة إلى الأبد. وعندما يستمتع شاعر بهذا المنظر تأتي أحلامه غالبًا لتبني فوقه أسطوريًّا آثاره الرومانتيكية.

وفي اللحظة التي وصلت فيها المركبة فوق جسر نهر «الشير» كانت أشرعة بيضاء عددية تسد ما بين جزر نهر «اللوار» وتضفي انسجامًا جديدًا على هذا الموقع المنسجم، وأزجى أريج الصفصاف المتدلي الأغصان على حافتي النهر عطورًا نفاذة إلى مذاق النسمة الرطبة، وكانت العصافير تملأ الأسماع بمعزوفاتها المستفيضة وقد أضاف إليها غناء راعي الماعز الرتيب لونًا من الشجن، في حين كانت صيحات الملاحين تبشر بهرج ومرج عن بعد وكانت الأبخرة الكسول تتوقف من تلقاء نفسها حول الأشجار المتناثرة في هذا المنظر الشاسع مضفية على تلك اللوحة آخر لمسة من اللطف. وتلك هي مقاطعة «التورين» في أوج مجدها، وذاك هو الربيع في غاية بهائه، وذلك الجزء من فرنسا هو الوحيد الذي لم تستطع الجيوش الأجنبية أن تزعجه، وكان أيضًا في ذاك الوقت الجزء الوحيد الهادئ كأنه يتحدى الغزو.

وما إن توقفت المركبة حتى أطل منها رأس مغطى بقبعة رجل البوليس وسرعان ما فتح رجل من الجيش بابها، وقفز إلى الطريق متعجلًا كأنه في طريقه إلى المشاجرة مع سائق المركبة. غير أن الذكاء الذي عالج به ذلك السائق من أبناء «التورين» مجر العجلة المكسور طمأن المقدم الكونت «ديجليمون» الذي عاد إلى الباب مادًا ذراعيه كأنه يمط عضلاته الخامدة، وتثاءب، ثم نظر إلى المنظر، ووضع يده على ذراع امرأة شابة لفّت نفسها بعناية برداء

مبطن بالفرو وقال لها في صوت مبحوح: هيا يا «جولي» استيقظي إذن كي نتأمل الإقليم. إنه رائع.

ودفعت «جولي» رأسها خارج المركبة، وكانت تغطي رأسها بقبعة من جلد السمور، كما كانت ثنيات المعطف الكثيف الذي تغطت به يخفي تمامًا أجزاءها بحيث لم يعد يرى إلا وجهها.

ولم تعد «جولي ديجليمون» تشبه في شيء الفتاة التي كانت تعدو قبيل ذلك في فرح وسعادة في أثناء العرض بحدائق «التويليري». وفقد وجهها الرقيق دائمًا ألوانه الوردية التي كانت تهبه فيما سبق رونقًا غنيًا ظاهرًا، وأبرزت الخصلات السوداء لبعض شعرها الذي جعدته الرطوبة بياض جبهتها الأصم، وقد خمدت حيويتها. وبرغم ذلك كانت عيناها تلمعان بوقدة غير عادية، وإن ارتسمت تحت جفونها صبغات بنفسجية فوق خديها المنهوكين. ونظرت بعين غير مبالية على أرياف نهر «الشير» و«اللوار» وجزائرهما، وعلى مدينة «تور» وعلى هضاب «فوفريه» الطويلة، ثم لم تعبأ بأن ترى وادي نهر «الشير» الخلاب وألقت بنفسها بسرعة في أقصى المركبة، وقالت بصوت بدا غاية في الضعف في الهواء الطلق:

- نعم.. هذا رائع.

فقد انتصرت على أبيها كما هو واضح من أجل تعاستها.

- ألا تحبين أن تعيشي هنا يا «جولي»؟

قالت بلا أدنى اكتراث: أوه! هنا أو في أي مكان.

فسألها المقدم (ديجليمون): هل تتألمين؟

أجابت المرأة الشابة بشيء من الحيوية المؤقتة: ألبتة. وتأملت زوجها مبتسمة ثم أضافت: لي رغبة في أن أنام.

وفجأة دوى صوت عدو حصان، فترك المقدم «ديجليمون» يد زوجته، وأدار رأسه نحو منعطف الطريق في ذلك المكان. وبمجرد غياب نظر المقدم عن «جولي» اختفى تعبير البشاشة الذي طبعته طبعًا على وجهها الباهت اللون، كأن الوهج قد كف عن إضاءته. وبقيت في ركن المركبة دون أي رغبة في رؤية المنظر مرة أخرى، ودون أي فضول لمعرفة من هو الفارس الذي كان حصانه يعدو على ذلك النحو الغاضب. وثبتت نظرها على شعر أرداف الخيول الأمامية دون أن تنم عن أي عاطفة، وكانت تبدو في غباء فلاح «بريتوني» (من مقاطعة بريتاني الفرنسية) في أثناء سماعه قداس يوم الأحد من راعي الكنيسة. وخرج فجأة شاب فوق فرس ثمين من غابة صغيرة من أشجار الحور والزعارير المزهرة.

قال العقيد: إنه إنجليزي.

أجاب السائق: أوه! يا إلهي! نعم يا سيدي إنه من نوع الشباب الذي يريد التهام فرنسا على حد قولهم.

وكان المجهول أحد المسافرين الذين وجدوا أنفسهم على القارة الأوروبية، عندما قبض «نابليون» على كل

البريطانيين اقتصاصًا منهم لاعتداء حكومة «سان جيمس»(1) على القانون الدولي عند نقض معاهدة «إميان». وبعد أن استسلم هؤلاء السجناء لهوى القوة الإمبراطورية لم يبقوا جميعًا في الأماكن التي قبض عليهم فيها، أو في الأماكن التي أطلق لهم أول الأمر حرية اختيارها. وأغلب الذين سكنوا في تلك الفترة مقاطعة «التورين» كانوا قد نقلوا إليها من مختلف أنحاء الإمبراطورية، حيث بدت إقامتهم ضارة بمصالح نابليون في القارة الأوربية. وكان الأسير الشاب الذي خرج يروح عن نفسه ملل الصباح، واحدًا من ضحايا السلطة البيروقراطية؛ فمنذ عامين صدر أمر من وزارة العلاقات الخارجية أدى إلى انتزاعه انتزاعًا من جو «مونبلييه»، حيث فاجأه من قبل تصدع السلام وهو في غمرة من حرصه على الشفاء من علة بالصدر. وعندما تبين هذا الشاب عسكرية شخص الكونت «ديجليمون» بادر بتحاشي نظراته بأن أدار رأسه نحو حقول نهر «الشير».

(1) أي حكومة بريطانيا.

قال المقدم وهو يتمتم: كل هؤلاء الإنجليز وقحون كأن الأرض ملك لهم. من حسن الحظ أن الماريشال «سولت» سيلحق بهم الإهانات.

وعندما عبر السجين أمام المركبة نظر نحوها. وبرغم نظرته العجلى أمكنه عندئذ أن يعجب بتعبير الشجن الذي

أعطى وجه الكونتيسة المفكر جاذبية غير محددة. وهناك رجال كثيرون ينفعل قلبهم بشدة لمجرد مرأى العذاب عند المرأة، فعندهم يكاد الألم يكون وعدًا بالثبات والحب. وكانت «جولي» مأخوذة تمامًا بتأمل مخدة في المركبة فلم تعر الفرس أو الفارس التفاتًا. وأعيد تركيب «المجر» بمتانة ورشاقة، وصعد الكونت إلى المركبة. وجاهد السائق من أجل توفير الوقت الضائع، واقتاد المسافرين بسرعة نحو الجزء الصاعد على حافة الصخور المعلقة التي تنضج في وسطها أعناب «فوفويه» وحيث تقوم منازل جميلة كثيرة، وتظهر عن بعد الأطلال الخاصة بدير «المارموتييه» حيث كان اعتزال القديس «مارتان».

- ماذا يبغي منا إذن ذلك اللورد الذي لا يكاد يحجب ما وراءه؟

بهذا صاح المقدم وهو يدور برأسه ليتأكد من أن الفارس الذي كان يتبع مركبتهم منذ نهر «الشير» هو نفس الشاب الإنجليزي.

ولما كان الإنجليزي لم يخدش أي لياقة من لياقات الأدب وهو يتنزه في الطريق بين الجبل والنهر الخاص بالسد، فقد عاد المقدم إلى ركن المركبة بعد أن ألقى نظرة تهديد نحوه. ولكن المقدم لم يستطع رغم كراهيته غير الإرادية أن يمنع نفسه من أن يلاحظ جمال الفرس وأريحية الفارس، فقد كان لذلك الشاب وجه إنجليزي ذو لون دقيق، وبشرة ناعمة بيضاء إلى حد يكاد يدعو

الناظر أحيانًا إلى افتراض انتمائها إلى جسم رقيق لفتاة شابة! وكان أشقر اللون رفيعًا طويلًا. أما زيه فكان ذا طابع أنيق نظيف، تتميز به أزياء إنجلترا الحريصة على عدم خدش الفضيلة. وبدا كأنه يحمر نجلًا عن حياء، أكثر مما كان يحمر نجلًا عن استمتاع بمظهر الكونتيسة.

رفعت «جولي» نظرها مرة واحدة نحو الغريب، وكانت قد اضطرت إلى ذلك بشكل من الأشكال عندما أراد زوجها أن يدفعها إلى الإعجاب بسيقان الفرس الذي كان من جنس أصيل. وعندئذ فقط التقت عينا «جولي» بعيني الإنجليزي الخجول. ومنذ تلك اللحظة عمد إلى متابعة المركبة على بعد خطوات بدلًا من أن يسير بفرسه بالقرب منها. ونظرت الكونتيسة إلى الرجل المجهول، ولم تر فيه أي مزايا إنسانية أو فروسية مما كان يوصف به، وألقت بنفسها إلى أقصى المركبة بعد أن أفلتت منها حركة خفيفة بحواجبها تصديقًا لرأي زوجها. وعاد المقدم إلى النوم، وبلغ الزوجان مدينة «تور» دون أن يقول أحدهما للآخر أي كلمة، ودون أن تجذب المناظر الساحرة في المشهد المتغير الذي جاسا خلاله في أثناء الرحلة انتباه «جولي» ولو مرة واحدة. إذ لم يكد زوجها يغطّ في النوم حتى شرعت السيدة «ديجليمون» تتأمله حينًا بعد حين على مدد متفاوتة. وفي أثناء آخر نظرة تلقيها عليه أدّت إحدى رجات المركبة إلى سقوط نوط كبير بيضيّ معلق في رقبتها بسلسلة حداد المأتم فوق ركبتي السيدة الشابة،

وظهرت أمامها فجأة صورة والدها، وترقرقت عيناها أمام هذا المشهد، وتدحرج دمعها بعد أن كان حبيسًا. ومن المحتمل أن يكون الإنجليزي قد رأى آثار الرطوبة والبريق التي خلفتها الدموع لحظة فوق خدود الكونتيسة الباهتة اللون، ولكن سرعان ما جففها الهواء. وكان المقدم «ديجليمون» مكلفًا من قِبَل الإمبراطور بحمل بعض الأوامر إلى الماريشال «سولت» الذي كان عليه أن يدافع عن فرنسا إزاء غزو الإنجليز إقليم «البيارن» فانتهز المقدم «ديجليمون» فرصة هذه المهمة كي ينتشل زوجته من الأخطار التي كانت تهدد «باريس» آنذاك، ويوصلها إلى مدينة «تور» لدى قريبة عجوز من أقربائه. وسرعان ما عبرت المركبة ملاط شوارع «تور»، وسارت فوق الجسر إلى الشارع الكبير، وتوقفت أمام قصر عتيق كانت تعيش فيه الكونتيسة «دي ليستومير لاندون» سابقًا.

وكانت الكونتيسة «دي ليستومير لاندون» سيدة من تلك السيدات المسنّات الجميلات ذوات اللون المصفر، والشعر الأبيض، والابتسامة الرقيقة، وكأنما على رؤوسهن سلال، إذ تخفي شعورهن قبعات مجهولة الزي. وكانت صورهن السبعينية ذات طابع قرن لويس الخامس عشر، ولكنهن من السيدات المحببات دائمًا كما لو كن لا يزلن في دور العشق، وهن تقيّات أقل مما هن ورعات، وأقل ورعًا مما يبدو عليهن الورع. وهن يظهرن المساحيق دائمًا على طريقة سيدات «الماريشالات» ويجدن الرواية،

ويتحدثن بطلاقة، ويضحكن من إحدى الذكريات أكثر مما تضحكهن المداعبة، ولا تروقهن أخبار الأحداث.

ولما وصلت الخادمة لإبلاغ الكونتيسة -إذ كان عليها أن تسترد لقبها عاجلًا- بزيارة أحد أبناء الأخوات الذي لم تره منذ بدء حرب إسبانيا، نزعت نظارتها بنشاط، وأقفلت صفحات كتابها المفضل «دهليز البلاط القديم»، واستعادت رشاقتها الخاصة في بلوغ المصطبة في اللحظة نفسها التي كان الزوج والزوجة يصعدان فيها السلم.

وتبادلت الخالة والقريبة تراشق النظرات في سرعة:

وصاح المقدم وهو يمسك بالسيدة العجوز ويقبلها متعجلًا: صباح الخير يا خالتي العزيزة. لقد جئتك بامرأة شابة لرعايتها. بل جئت أعهد إليك بكنزي. وليست «جولي» مدللة أو غيورًا. إنها ذات رقة ملائكية، ولعلها لا تفسد هنا.. أتعشم ذلك. هكذا قال وهو يقاطع نفسه.

أجابت الكونتيسة وهي تزجي إليه نظرة ساخرة: إنسان خليع! وسبقت الكونتيسة «جولي» إلى التقدم نحوها في لطف محبب خاص، وقبلتها، حتى بقيت «جولي» شاردة الفكر، وبدت مرتبكة أكثر مما بدا عليها الاستغراب.

قالت الكونتيسة مرة أخرى: سوف يتعرف أحدنا على الآخر إذن يا قلبي العزيز.. لا تخشيني كثيرًا، فإنني أتعمد ألا أبدو كهلة على الإطلاق أمام الشباب.

وقبل بلوغ غرفة الاستقبال كانت الكونتيسة قد طلبت

الطعام لضيفيها حسب العادة في الأقاليم، غير أن الكونت قاطع فصاحة خالته ليقول لها بلهجة قاطعة إنه لن يستطيع أن يعطي من وقته أكثر مما يسمح له وقت الخدمة بالتناوب. وعندئذ عجّل الأقارب الثلاثة بالدخول إلى غرفة الاستقبال دون أن يجد المقدم الوقت الكافي ليروي لخالته الكبيرة كل أحداث السياسة، وأحداث الحرب التي اضطرته إلى اللجوء إليها طالبًا إيواء امرأته الشابة. وتأملت الخالة بالتبادل في أثناء هذه الحكاية ابن الأخت الذي كان يتحدث دون مقاطعة، وابنة الأخت التي كان اصفرارها وبؤسها يبدوان ناتجين عن هذا الانفصال الذي لا مندوحة عنه وكان حال أمرها يقول: هيه.. هيه! هذان الشابان يحب كل منهما الآخر.

في تلك اللحظة دوت قرقعات كرباج في الفناء القديم الهادئ الذي كانت ملاطاته مرسومة بحزم من العشب. فقبّل «فيكتور» الكونتيسة مرة ثانية، واندفع خارج البيت.

وقال وهو يقبل زوجته التي تبعته حتى باب المركبة: وداعًا يا عزيزتي...

فقالت هي بصوت محبب: أوه يا «فيكتور» دعني أصحبك إلى أبعد من هذا.. ما كنت أود أن أبتعد عنك...

- هل تعتقدين ذلك؟

أجابت «جولي»: وداعًا إذن الآن ما دامت هذه

رغبتك.

واختفت المركبة.

سألت الكونتيسة ابنة الأخت، وهي تستفسر منها بإحدى تلك النظرات الفاحصة التي تلقيها السيدات المسنات نحو الشباب: أنت إذن تحبين ابن أختي المسكين «فيكتور» حبًا كبيرًا؟

أجابت «جولي»: وأسفاه! يا سيدتي أليس من الضروري أن نحب الرجل تمامًا لكي نتزوجه؟

وكانت هذه العبارة الأخيرة ذات نبرة دالة على لهجة السذاجة التي كشفت دفعة واحدة كل القلب البرئ والأسرار العميقة.

غير أنه كان من العسير على سيدة كانت صديقة «ديكلوه» والماريشال «ريشيليو» ألا تسعى للتخمين بشأن سر هذا الزواج الحديث العهد. وكانت الخالة وابنة الأخت كلتاهما في تلك اللحظة على عتبة الباب الخاص بالعربات، مشغولتين بالنظر إلى المركبة المختفية. ولم تكن عينا الكونتيسة تعبران عن الحب على النحو الذي اعتادت الماركيزة أن تفهمه، فقد كانت السيدة الكريمة من إقليم «البروفانس» كما كانت عواطفها حية.

سألت قريبتها: لقد تركت نفسك إذن ليستحوذ عليك ابن أختي الخليع؟

فارتعدت الكونتيسة دون إرادة منها، لأن نبرة الكلام، ونظرة تلك العجوز المدللة، ظهرت كأنها تنذر بمعرفة طباع «فيكتور» معرفة تكاد تكون أكثر عمقًا من معرفتها هي نفسها. وحاولت السيدة «ديجليمون» إذ أحست بالقلق أن تختفي في نوع من المداراة الخرقاء التي تمثل أقرب ملاذ تلجأ إليه القلوب الساذجة المتألمة. وتقبلت السيدة «دي ليستومير» إجابات «جولي» ولكنها اعتقدت في غير قليل من الابتهاج أن عزلتها سوف تحتشد ببعض أسرار الحب، لما بدا على قريبتها من أنها تحتفظ بعقدة روائية تسلي من يتابعها.

وعندما وجدت السيدة «ديجليمون» نفسها في غرفة الاستقبال الكبيرة ذات السجاجيد المحففة بقضبان لينة مذهبة، وجلست أمام النار المشتعلة محتمية من رياح الشبابيك وراء «بارافان» صيني، لم تستطع تعاستها أن تنقشع. وكان من الصعب أن تبرز الفرحة تحت أغطية الحوائط القديمة إلى ذلك الحد بين الأثاثات العريقة. وبرغم ذلك وجدت الباريسية الشابة نوعًا من المتعة في النفاذ إلى هذه العزلة العميقة، وإلى ذلك الصمت الحقيقي الخاص بمناطق الأقاليم.

وبعد أن تبادلت بضع كلمات مع الخالة التي كانت قد بعثت إليها منذ بعض الوقت خطابًا في مستهل أيام عرسها، بقيت صامتة وكأنها قد استمعت إلى موسيقى الأوبرا. وبعد ساعتين من الهدوء اللائق بهذا المكان الشبيه

بالدير، وجدت أن هذا ليس من الأدب في شيء نحو الخالة، وتذكرت أنها لم تجبها إلا بإجابات باردة. وكانت السيدة العجوز قد احترمت عناد قريبتها بتلك الغريزة المليئة بالعطف الذي امتاز به الناس في العصر السالف، وظلت الأرملة تعمل في «التريكو» أو الزرد في تلك اللحظة. وكانت في الحقيقة قد تغيبت مرات عديدة كي تعد الغرفة الخضراء التي وضع فيها أهل البيت الحقائب، والتي كان مقدرًا للكونتيسة أن تنام فيها. ولكنها عادت فاحتلت مكانها في مقعد ضخم، وظلت تنظر خلسة إلى السيدة الشابة. وأحست «جولي» بالخجل، لأنها سرحت مع تأملاتها التي لا تقاوم، فحاولت أن تعتذر عن ذلك ساخرة من موقفها.

فقالت الخالة: يا عزيزتي الصغيرة... نحن نعرف ألم الأرامل.

وكان لا بد أن يكون المرء في سن الأربعين كي يفطن إلى السخرية التي عبرت عنها شفتا السيدة العجوز.

وفي اليوم التالي كانت الكونتيسة في حالة أفضل، إذ أقبلت على الكلام، ولم تعد السيدة «دي ليستومير» تيأس من أن تستأنس بهذه الزوجة الشابة التي حكمت عليها أول الأمر بالنفور والغباء، وحدثتها عن مصادر المتعة في الإقليم، وعن الحفلات والبيوت والأماكن التي تستطيع التردد عليها. وكانت جميع أسئلة الماركيزة في أثناء ذلك اليوم أشبه ما تكون بالمصايد التي لم تستطع -وفقًا لعادة

قديمة من عادات البلاط- أن تمنع نفسها من أن تضعها في طريق قريبتها، حتى تستخلص طباعها. وقاومت «جولي» كل إلحاح عليها في أثناء بعض الأيام، بالخروج بحثًا عن اللهو. وبرغم رغبة السيدة العجوز في أن تخرج للنزهة مع قريبتها الجميلة زهوًا بها اضطرت في النهاية إلى التخلي عن أملها في اقتيادها إلى بعض الأوساط. ووجدت الكونتيسة مسوغًا لعزلتها وتعاستها في حزنها على أبيها الذي لا تزال تلبس الحداد عليه.

وبعد ثمانية أيام أعجبت الأرملة بالرقة الملائكية، واللطف المتواضع، والروح المتسامحة التي تمتعت بها «جولي» واهتمت منذ ذلك الحين اهتمامًا بالغًا بالاكتئاب الغريب الذي ظل يقرض أطراف ذلك القلب الشاب. لقد كانت الكونتيسة من النساء المخلوقات ليكنّ محبوبات، واللائي يأتين بالخير. وصار معشرها الحلو محببًا ثمينًا لدى السيدة «دي ليستومير» حتى بدأت تهيم بها، ولا ترغب إطلاقًا في مفارقتها. وكان الشهر الواحد كافيًا لإنشاء صداقة أبدية بينهما.

ولاحظت السيدة العجوز بتعجب تلك التغيرات التي طرأت على محيا السيدة «ديجليمون» فقد انطفأت الألوان الحية التي كانت تضرم بشرتها إلى حد غير معقول، وأخذ الوجه ألوانًا صمّاء باهتة. وعندما فقدت «جولي» تألقها البدائي صارت أقل تعاسة. وكانت الأرملة أحيانًا توقظ لدى قريبتها الشابة دفعات من المرح، أو من الضحك

المتفكه فلا يلبث أن يذوي مع فكرة مزعجة طارئة. وخمّنت أنه ليس ذكرى أبيها ولا غياب «فيكتور» سبب هذا الاكتئاب العميق الذي ألقى حجابًا على حياة القريبة. ومرت بها وساوس سيئة عديدة حتى لم تستطع أن تقف على السبب الحقيقي للداء، لأننا قد لا نلتقي بالسبب الحقيقي إلا بالمصادفة.

وأخيرًا، وفي ذات يوم صارت «جولي» تمثل في نظر الخالة المندهشة النسيان الكامل للزواج، وجنون الفتاة الشابة الحمقاء، ورعونة الفكر، كالطفولة الجديرة بالسنين الأولى، بل كل تلك الروح الرقيقة التي تبلغ أحيانًا عمقًا كبيرًا، ويتميز بها الشبان في فرنسا. فعزمت السيدة «دي ليستومير» عندئذ على أن تسبر غور الأسرار الخاصة بهذه الروح التي كان وضعها الطبيعي البالغ معادلًا للتصنع والمداراة بحيث لا يمكن النفاذ منها إلى ما وراءها. واقترب الليل عندما كانت السيدتان جالستين أمام نافذة مطلة على الشارع، وعاودت «جولي» حالة التفكير عندما مر رجل على فرس.

قالت السيدة العجوز: ها هو ذا أحد ضحاياك!

فنظرت السيدة «ديجليمون» إلى الخالة مبدية دهشتها الممزوجة بالقلق، فقالت الكونتيسة:

- إنه شاب إنجليزي... وهو شريف من الشرفاء.. صاحب الرفعة «آرثر أورمون»، الابن الكبر للورد

«جرينفيل» وقصته جديرة بالاهتمام، إذ جاء بناء على نصيحة من أطبائه إلى مدينة «مونبلييه» سنة 1802 على أمل شفائه -تحت تأثير جو الإقليم- من مرض صدري نزل به، فوقع في الأسر مع بقية أبناء وطنه جميعًا، بناء على أمر «بونابرت» عندما وقعت الحرب، إذ لم يكن هذا الوحش قادرًا على الاستغناء عن القتال. ومن باب اللهو عكف هذا الإنجليزي الشاب على دراسة مرضه الذي كان في ذلك الوقت من الأمراض المميتة، ورويدًا رويدًا بدأ يهوى التشريح ثم الطب، بل أخذ يشغف بهذه الأنواع من الفنون شغفًا كبيرًا، وهو أمر شديد الشذوذ بالنسبة إلى الرجال المرموقين؛ ولكن الوصي على العرش كان من المعنيين بالكيمياء! وباختصار تقدم السيد «آرثر» تقدمًا مذهلًا حتى لدى أساتذة «مونبلييه» فكانت الدراسة عزاءه في الأسر واستطاع أن يشفي نهائيًا في الوقت نفسه. ويقال إنه ظل سنتين دون أن ينبس ببنت شفة، فيتنفس قليلًا وهو مستلق في إحدى الحظائر يشرب ألبان البقر القادم من «سويسرا» ويتغذى بالجرجير. ومنذ وصل إلى مدينة «تور» لم ير أحدًا، وبدا مزهوًا كالطاووس؛ ولكنك غزوت قلبه بالتأكيد، لأنه ليس محتملًا أن يكون مروره تحت نافذتنا مرتين كل يوم منذ -وصلت أنت إلى هنا- من أجلي أنا ومن المؤكد أنه يحبك.

أيقظت هذه الألفاظ الأخيرة الكونتيسة وكأنها كانت سحرًا، وأبدت حركة وابتسامة أدهشتا الماركيزة. وظلت

نظرة «جولي» أسيانة باردة دون أن يبدر منها ذلك الرضا الغريزي الذي تستشعره أشد النساء صرامة، عندما تعلم مدى تأثيرها على شقاء إنسان. وعبر وجهها عن شعور بالنفور أشبه ما يكون بالاشمئزاز. ولم يكن هذا العزل الكامل الذي تضرب به امرأة عاشقة الدنيا كلها عرض الحائط من أجل مخلوق واحد. إنها تعرف بلا شك الضحك والمرح.. لا.. لقد كانت «جولي» حينذاك كشخص تدفعه ذكرى خطر شديد حاضر إلى استشعار الألم. وكانت الخالة مقتنعة تمامًا بأن قريبتها ليست عاشقة لزوجها ابن الأخت، وذهلت لذلك تمامًا حين اكتشفت أنها لا تحب أحدًا، وارتعدت حين وجدت في «جولي» شخصًا غير سعيد، أو امرأة شابة كفتها تجربة يوم أو تجربة ليلة لتقدير عدم أهلية «فيكتور».

وقدرت الماركيزة في بالها. إذ كانت تعرفه فهذا هو كل السر.. سوف يعاني ابن أختي قريبًا من أضرار الزواج.

وعندئذ اقترحت فيما بينها وبين نفسها أن تحوِّل «جولي» إلى عقائد المذاهب الملوكية في قرن «لويس» الخامس عشر. ولكنها بعد ذلك بساعات عرفت، أو لعلها خمنت، الموقف الشائع إلى حد ما في العالم المحيط بالكونتيسة، والذي يرجع إليه اكتئابها. وعندما صارت «جولي» متفكرة فجأة انسحبت إلى غرفتها أكثر تبكيرًا مما اعتادت. وبعد أن تولت خادمتها خلع ملابسها، وفارقتها لتستعد للنوم، جلست أمام المدفأة غاطسة في أريكة وثيرة ذات

مسند من القطيفة الصفراء، وهي قطعة من الأثاث العتيق الذي يرغب فيه المكروبون والسعداء على السواء، وبكت وتنهدت وعملت فكرها، ثم أخذت منضدة صغيرة وبحثت عن الورق، وشرعت تكتب. ومرت الساعات سريعة، وبدت المناجاة المكشوفة التي وضعتها «جولي» في هذه الرسالة كأنها قد كلفتها غاليًا، بحيث ساقتها كل عبارة إلى تخيلات طويلة وفجأة فاضت بالسيدة الشابة الدموع وتوقفت.

وفي تلك اللحظة دقت الساعة الثانية صباحًا، ومال رأسها الذي كان في ثقل رأس امرأة بسبيل الموت فوق صدرها. وعندما أعادت رفعه رأت «جولي» خالتها وقد بزغت فجأة كشخص انفصل عن السجادة المعلقة فوق الحائط.

قالت لها خالتها: ماذا بك إذن يا صغيرتي لماذا السهر إلى هذا الوقت المتأخر؟ ولماذا البكاء بخاصة على انفراد في مثل سنك؟

وجلست بغير تكلف بالقرب من قريبتها؟ والتهمت عيونها الرسالة التي كانت قد بدأتها.

كنت تكتبين إلى زوجك!

- فأجابت الكونتيسة: وهل أعرف أين هو؟

وتناولت الخالة الرسالة وقرأتها. وكانت قد أحضرت معها نظارتها، كأنما توقعت سلفًا ما حدث. وتركتها المخلوقة البريئة تتناول الرسالة دون أن تبدي أقل ملاحظة؛ ولم

ينتزع منها كل طاقتها أي عيب من عيوب الكرامة، ولا أي شعور بالخطيئة الخفية.. لا.. إذ التقت الحالة هنالك بالخير كما التقت بالشر، والتقت بالصمت كما التقت بالمناجاة وبموضع السر في إحدى لحظات الأزمة عندما تكون الروح بغير ذريعة ويكون الكل سواء. وكانت «جولي» أشبه ما تكون بالفتاة الشابة العفيفة التي تضني محبًّا من جراء الاستخفاف به، ولكنها في الليل تجد نفسها تعيسة مهجورة إلى حد أن ترغب فيه، وتبحث عن قلب تأوى إليه بمتاعبها. فتركت الرسالة واستسلمت، وقد أخذ يتلاشى ما يدفعها من الرقة المفروضة على خطاب مفتوح دون أن تنبس ببنت شفة، وبقيت متفكرة أثناء قراءة الماركيزة الرسالة.

عزيزتي لويز

فيم يفيد التماس تحقيق الوعد الغاشم الذي تعاهدت عليه شابتان جاهلتان مرات عديدة؟ لقد كتبت إلي تقولين إنك غالبًا ما تساءلت: لماذا لم أجب عن استفساراتك منذ ستة أشهر؟ فإذا لم تكوني قد فهمت صمتي فلعلك اليوم تخمنين سبب ذلك، عندما تعلمين الأسرار التي سوف أفشيها. لقد كنت عولت على أن أدفنها إلى الأبد في قرار قلبي ما لم تخطريني بزواجك القريب. سوف تتزوجين «يا لويزا» وهذه الفكرة وحدها تجعلني أرتعد. يا صغيرتي المسكينة تزوجي، ثم بعد أشهر قليلة سينزل بك ندم حاد من جراء ذكرى ما كنا عليه قبل وقت مضى، عندما وصلنا كلتانا إلى

مدينة «أكو وان» في أعلى سلاسل الجبل، وجعلنا نتأمل الوادي الجميل الذي كان تحت أقدامنا، وأعجبنا فيه بأشعة الشمس الغاربة التي كان بريقها يغمرنا، وجلسنا فوق قطعة من الحجر، واستغرقنا في انبهار تلاه أرق الاكتئاب.

وكنت الأولى حين شعرت بأن هذه الشمس البعيدة تحدثنا عن المستقبل؛ وكنا غريبتين مخبولتين في ذلك الحين. هل تذكرين كل هذياننا! وكنا نتبادل القبلات كعاشقين على حد تعبيرنا آنذاك. وأقسمنا بأن التي تتزوج قبل الأخرى تروي لها بإخلاص تلك الأسرار الخاصة بزفاف البكارة، وكل المتع التي نفحتها أرواحنا الطفولية في شكل لذيذ. ستكون تلك الليلة سببًا في يأسك يا «لويزا».

في ذلك الوقت كنت شابة جميلة، غير مكترثة بل سعيدة. وسيحوِّلك الزوج في أيام قليلة إلى ما أنا عليه الآن: قبيحة متألمة، عجوز. سيكون من الجنون أن أقول لك إلى أي حد كنت مزهوة ومغرورة وسعيدة بزواجي من المقدم «فيكتور ديجليمون» بل كيف أقول لك ذلك؟ إنني لم أعد أذكر أنا نفسي شيئًا. في ثوان قليلة صارت طفولتي كحلم، ولم تكن قدرتي أثناء النهار الشرعي الذي اختص بالرباط الذي كنت أجهل آماده خالية من المؤاخذات. فقد حاول أبي أكثر من مرة أن يهبط من فرحي، لأنني كنت أبدي من المباهج ما كان يعدّ غير لائق، وأوحت أقوالي بالدهاء لسبب بسيط هو أنها كانت خالية من الدهاء، وقمت بآلاف الأعمال الصبيانية بخمار

الزفاف وبالرداء والزهور. وفي المساء -عندما صرت على انفراد في الغرفة التي قادوني إليها في غاية الأبهة- خطرت لي بعض الشيطنة كي أدفع «فيكتور» إلى الحيرة. وفي انتظار مجيئه أحسست بدقات قلبي مثلما أحسست بها حينما تملكتني قديمًا في الأيام الخاصة باحتفالات الأعياد في 31 ديسمبر، عندما نفذت -دون أن يراني أحد- إلى غرفة الاستقبال حيث تكرمت هدايا رأس السنة.

وعندما دخل زوجي بحث عني، وإذا ضحكتي المكبوتة التي انطلقت من فمي تحت أغطية الشاش الموصلي الناعم التي أحاطت بي، كانت آخر صيحة لتلك الفرحة الرقيقة التي بعثت الحياة في ألعاب طفولتنا...»».

عندما انتهت الأرملة من قراءة هذه الرسالة التي بدأت على هذا النحو وكان ضروريًّا أن يحتوي على ملاحظات تعيسة حقًّا، وضعت نظارتها ببطء فوق المنضدة، ووضعت فوقها الرسالة في الحال، وركزت على قريبتها عينيها الخضراوين اللتين لم تكن وقدتهما المضيئة قد ضعفت بعد بتأثير السن، وقالت: يا صغيرتي.. لا تستطيع سيدة متزوجة أن تكتب على هذا النحو إلى فتاة شابة دون أن تقصر في شئون اللياقات..

أجابت «جولي» وهي تقاطع الخالة: وهذا هو ما اعتقدته وقد شعرت بالخجل من نفسي عندما كنت تقرئينه...

عادت العجوز تقول ببساطة مفرطة: لا ينبغي -إذا لم

يرقنا صنف من أصناف الأكل على المائدة أن نبعث غيرنا على القرف منه يا طفلتي.. ولا سيما أن الزواج قد بدا شيئًا ممتازًا من أيام حواء إلى اليوم... ألم تعد لك أم؟

فارتعشت الكونتيسة، ثم رفعت رأسها برقة، وقالت: منذ عام وأنا لا أكف سلفًا عن الندم بشأن أمي. ولكنني أخطأت في أني لم أصغ للكراهية التي أبداها أبي وهو يرفض أن يصبح «فيكتور» صهرًا له.

ونظرت إلى الخالة، فجففت دموعها ارتعادة ابتهاج، حينما لمحت معالم الطيبة التي بعثت الحياة في ذلك الوجه المسن. ومدت يدها الشابة إلى الماركيزة التي بدت عيناها مغريتين. وعندما تضاغطت أصابع كل منهما كانت المرأتان قد بلغتا غاية التفاهم.

أضافت الماركيزة: أيتها اليتيمة المسكينة.

وكان ذلك بصيصًا أخيرًا من النور بالنسبة إلى «جولي» إذا اعتقدت أنها لا تزال تسمع صوت النبوءة على لسان أبيها.

سألت المرأة العجوز: إن يديك مشتعلتان من السخونة! أهما كذلك دائمًا؟

وأجابت «جولي»: لم تفارقني الحرارة المرتفعة منذ سبعة أيام أو ثمانية.

- «كانت حرارتك مرتفعة وأخفيت ذاك عني!»،

قالت «جولي» بنوع من القلق الخجول: إنها عندي من سنة.

- على ذلك لم يكن الزواج حتى اليوم بالنسبة إليك يا ملاكي الصغير إلا ألمًا طويلًا؟

لم تجرؤ المرأة الشابة على الإجابة، ولكنها أتت بحركة إيجاب فضحت كل معاناتها.

- أنت إذن تعيسة؟

- أوه لا يا خالتي «فيكتور» يحبني حب العبادة، وأنا أعبده... فهو طيب جدًّا.

- نعم أنت تحبينه، ولكنك تهربين منه. أليس كذلك؟

- نعم.. بعض الأحيان.. إنه يبحث عني غالبًا.

- ألست غالبًا مضطربة في العزلة خوفًا من مفاجآت لك؟

- وا أسفاه! فعلًا يا خالتي. ولكني أؤكد لك أني أحبه كثيرًا.

- ألم تكوني تتهمين نفسك سرًّا بأنك أنت نفسك لا تعرفين أو لا تملكين القدرة على أن تشاركيه متعته؟ ألم تكوني تعتقدين أحيانًا أن الحب المشروع أشد قسوة في عبئه من أي عاطفة إجرامية؟

قالت «جولي» وهي تبكي: أوه! هو كذلك. أنت تخمنين

كل شيء إذن حيثما كان كان شيء لغزًا بالنسبة إليّ. لقد فترت حواسي وصرت بغير أفكار، وهأنذا أكابد العيش. لقد كبت روحي خوف مبهم يثلج عواطفي ويقيني في فتور مستمر، ولقد أصبحت فاقدة النطق لكي أشكو لنفسي وبغير أقوال تعبر عن ألمي، إنني أتعذب وأنجل من عذابي عند رؤيتي «فيكتور» سعيدًا بما من شأنه أن يودي بي.

صاحت الخالة التي حيي وجهها الجاف فجأة بابتسامة مرحة عكستها مباهج شبابها: هذه صبيانيات. هذه كلها حماقات!

قالت المرأة الشابة في يأس: وأنت أيضًا تضحكين!

أجابت الماركيزة بسرعة: لقد كنت أنا كذلك. أما وقد تركك «فيكتور» الآن وحيدة، ألم تعودي فتاة شابة هادئة بلا متع ولكن بدون آلام.

فتحت «جولي» عينيها الواسعتين ببلاهة، واستطردت الماركيزة:

- على أي حال يا ملاكي أنت تعبدين «فيكتور».. أليس كذلك؟ ولكنك كنت تفضلين أن تكوني أخته لا زوجته حيث إن الزواج لا يصلح لكما.

- آه.. فعلًا يا خالتي. ولكن لماذا تبتسمين؟

- أوه! معك حق يا طفلتي المسكينة، إذ ليس في هذا

كله مدعاة للسرور. وسيكون مستقبلك مليئًا بأكثر من شقاء ما لم أحدب عليك، وما لم تفطن تجربة عمري الطويل إلى سبب أحزانك الساذج. إن ابن أختي لم يكن يستحق حظه السعيد.. ذاك الأبله!! في عهد محبوبنا لويس الخامس عشر إذا وجدت امرأة شابة في مثل موقفك، كان ينبغي في الحال أن يعاقب زوجها على سلوكه كجندي مرتزق، ذاك الأناني! أما العسكريون في عصر هذا الطاغية الإمبراطوري فكلهم جهلة أشرار، ويأخذون القسوة بديلًا عن الشهامة، ولا يعرفون النساء أكثر مما لم يعرفوا كيف يحبون، ويعتقدون أن الذهاب إلى الموت في الغداة يخليهم في العشية من أي اعتبارات أو اهتمامات مبذولة حيالنا. لقد كانوا قديمًا يعرفون كيف يحبّون بنفس البراعة في معرفة كيف يموتون في الوقت المناسب. يا ابنة الأخت، سوف أقوم بتأديبه من أجلك، وسأضع حدًّا لهذا التصدع التعيس، الطبيعي إلى حد ما، الذي كان سيقودكما إلى كراهية أحدكما الآخر وإلى تمني الطلاق إذا لم تكوني قد بلغت الموت قبل بلوغك اليأس.

أصغت «جولي» إلى خالتها باستغراب واندهاش متعادلين عند سماعها هذه الأقوال التي استطاعت أن تستشعر حكمتها أكثر من أن تفهمها. وأحست بالذعر عند سماع الحكم الذي أصدره أبوها بشأن «فيكتور» على فم «قريبة» ذات تجربة ولكن بتعبير أرق.

وأصابها حدس عارم بمستقبلها، فأحست بلا شك بثقل

شقائها الذي كان يجثم فوق صدرها بالضرورة، لأنها لم تلبث أن ذرفت الدموع، وألقت بنفسها بين ذراعي السيدة العجوز وهي تقول لها: «كوني أمي؟» أما الخالة فلم تبك، لأن الثورة أبقت لنساء الملكية القديمة دموعًا قليلة في العيون؛ فقديمًا الحب، ثم الرعب مؤخرًا جعلاهن يألفن الحوادث المؤثرة الحادة بحيث صرن يحتفظن وسط أخطار الحياة بالكرامة الباردة وبالمودة الصادقة بغير مظاهر. وهذا من شأنه أن يسمح لهن بأن يكن دائمًا مخلصات لأصول اللياقة، ويوفر لهن نبل الهيئة الذي صارت الأخلاق الجديدة ترفضه عن خطأ.

أخذت الأرملة المرأة الشابة بين ذراعيها وقبلت جبهتها برقة ولطف معهودين غالبًا في أساليب وعادات مثله هاتيك النساء أكثر مما في قلوبهن ولاطفت قريبتها بأقوال رقيقة، ووعدتها بمستقبل سعيد، وهدهدتها بوعود غرامية لكي تعينها على النوم كما لو كانت ابنتها هي.. ابنتها الحبيبة التي تحول آلامها وآمالها إلى آلامها وآمالها الخاصة بها هي. وكانت ترى نفسها أمام شبابها، فتخيلت نفسها جميلة وبلا تجربة كقريبتها، وصارت الكونتيسة تغط في النوم سعيدة بلقاء صديقة وأم تستطيع أن تروي لها كل شيء برغم ذلك.

وغداة ذلك اليوم صباحًا في اللحظة التي كانت إحداهما تقبّل الأخرى في محبة قلبية عميقة، وفي جو من التفاهم الذي يبرهن على تقدم عاطفي وعلى توافق أكثر اكتمالًا

بين روحيهما، سمعتا خطوات فرس فأدارتا رأسيهما في وقت واحد، ولمحتا الشاب الإنجليزي الذي كان يمر متباطئًا كعادته. وكان واضحًا أنه قام بدراسة معينة للحياة التي اعتادتها السيدتان الوحيدتان، وأنه لم يكن يتخلف قط عن المرور وقت غدائهما أو عشائهما.

وكان فرسه يتباطأ في خطوته بلا حاجة إلى إشارة. ثم يلقي «آرثر» بنظرة مكتئبة خلال الوقت الذي يقضيه في عبور المكان فيما بين شباكي غرفة الطعام، فيشعر بالإهانة أغلب الوقت من الكونتيسة التي لا تبذل نحوه أدنى انتباه. غير أن الماركيزة -وقد اعتادت هذه الغرابات الركيكة المتعلقة بصغائر الأشياء مما يبتعث الحياة عادة في الأقاليم، ولا يكاد يحمي نفسه منها أكبر العقول إلا بصعوبة- صارت تجد تسلية في هذا الحب الخجول الجاد الذي كان الإنجليزي يعبر عنه بطريقة مضمرة. وصارت نظراته الدورية شبه عادة بالنسبة إليها، وعمدت إلى الإعلان عن عبور «آرثر» في كل يوم بمداعبات جديدة. وعندما كانت السيدتان تجلسان إلى المائدة كانتا تنظران في آن معًا إلى رجل الجزيرة «البريطاني» والتقت عينا «جولي» و«آرثر» أو «أرتير» في تلك المرة في شيء من الإيضاح العاطفي، بحيث احمر وجه السيدة الشابة. وفي الحال همز الإنجليزي حصانه ورحل به عدوًا.

قالت جولي للخالة: ولكن يا سيدتي ما العمل؟ لا بد أنه من الثابت لدى الناس الذين يرون هذا الإنجليزي عابرًا من

هنا أنني...

أجابت الخالة مقاطعة كلامها: نعم!

- هيه! طيب، ألا يمكن أن نطلب منه عدم التنزه على هذا النحو؟

- أليس في هذا إخطار بأنه ذو خطورة ما؟ وفضلًا عن هذا هل في إمكانك أن تمنعي رجلًا من الذهاب والمجيء حيثما حلا له ذلك؟ منذ الغد لن نتناول طعامنا في هذه الغرفة. وعندما لا يرانا ذلك الشاب الوجيه بعد اليوم سيكف عن حبه لك عن طريق النافذة. هكذا يا طفلتي العزيزة تتصرف المرأة ذات الخبرة بالحياة.

غير أن شقاء «جولي» كان يجب أن يكون كاملًا. إذ لم تكد السيدتان تنهضان من المائدة حتى وصل فجأة خادم «فيكتور» لقد جاء من مدينة «بورج» متجشمًا السفر حقيقة خلال الطرق الملتوية كي يحمل إلى الكونتيسة رسالة من زوجها. فقد هجر «فيكتور» الإمبراطور وأعلن إلى زوجته سقوط الحكم الإمبراطوري والاستيلاء على «باريس» والحماس الذي انفجر تأييدًا لأسرة «البوربون» في كل المواقع الفرنسية، ولما كان لا يستطيع الوصول إلى مدينة «تور» فإنه يرجوها المجيء في سرعة كبيرة إلى مدينة «أورليان» التي يأمل أن يكون موجودًا فيها حاملًا جواز السفر لها. وكان على هذا الخادم، وهو جندي سابق أن يرافق «جولي» من «تور» إلى «أورليان» حيث لا يزال

الطريق بينهما حرًّا في اعتقاد «فيكتور».

قال الخادم: ليس أمامك يا سيدتي أي وقت.. فالنمساويون والبروسيون والإنجليز سوف يلتقون في نقطة تقاطع عند مدينة «بلوا» أو عند «أورليان».

واستعدت المرأة الشابة في بضع ساعات، ورحلت في عربة سفر قديمة أعارتها لها الخالة، وقالت وهي تقبلها: لماذا لا تجيئين معنا إلى باريس؟ الآن وقد استعاد البوربون أنفسهم سوف تجدين هنالك..

- لو لم تكن الرحلة غير مضمونة النجاح لحضرت معكما يا صغيرتي المسكينة، لأن نصائحي ضرورية جدًّا لك و«لفيكتور» وسوف أعد كل ما يلزم كي ألحق بكما.

ورحلت «جولي» في رفقة خادمتها والجندي السابق الذي كان يعدو بحصانه قرب المقعد ساهرًا على سلامة سيدته. وعند الليل كانت «جولي» قد وصلت إلى إحدى المحطات فيما قبل «بلوا» وشعرت بالخوف لسماعها صوت عربة تمضي خلف عربتها ولا تفارقها منذ «أمبواز» فعمدت إلى الكوة الصغيرة لتتحقق من شخصية رفقائها في السفر. وساعدها ضوء القمر على رؤية آثر أو أرتير واقفًا على بعد ثلاث خطوات منها، وعيناه تحملقان نحو مقعدها. والتقت نظراتهما. فألقت الكونتيسة بنفسها بشدة إلى ركن عربتها، ولكن بشعور الخوف الذي جعل قلبها يخفق. وكانت تعتقد في خطيئة الحب الموحى به بغير إرادة

إلى أحد الرجال، شأنها شأن غالبية السيدات الشابات الساذجات حقيقة وقليلات التجارب.. فقد استشعرت فزعًا غريزيًّا قد يكون مصدر الشعور بضعفها أمام اقتحام جريء من هذا الطراز.

ومن أسلحة الرجل القوية جدًّا قدرته المخيفة على أن يشغل بال امرأة ذات خيال راكد تفزعه أو تسوؤه المتابعة. وتذكرت الكونتيسة نصيحة الخالة، وقررت أن تبقى في نهاية مقعدها بالعربة في أثناء الرحلة دون أن تخرج منها. ولكنها كانت تسمع الإنجليزي وهو يخطو حول العربتين عند كل محطة. وفوق ذلك كانت ضوضاء مركبته المزعجة تدوي على الطريق بلا توقف في أذني «جولي». وقدرت المرأة الشابة أنها سرعان ما سوف تجتمع بزوجها وأن «فيكتور» سيكون المدافع عنها ضد ذلك التعذيب الفريد.

- ولكن ماذا لو كان ذلك الشاب لا يحبني برغم هذا؟

هكذا وصلت في نهاية تفكيرها إلى هذه العبارة. وعندما وصلت إلى «أورليان» كان «البروسيون» قد استولوا عليها بكرسي عربتها، وقادوها في حراسة الجنود إلى فناء الفندق. ولم تكن المقاومة ممكنة. وشرح الأجانب للمسافرين الثلاثة بالإشارات الآمرة أنهم قد تلقوا الأمر بعدم خروج أي شخص من عربته. فبقيت الكونتيسة تبكي مدة ساعتين تقريبًا وهي سجينة وسط الجنود الذين كانوا يدخنون ويضحكون وينظرون إليها أحيانًا نظرة متطلعة وقحة.

ولكن في النهاية رأتهم يتباعدون عن العربة بنوع من التوقير عند سماعهم ضوضاء خيول كثيرة. وسرعان ما أحاطت بمقعد العربة فرقة من الضباط الأجانب من ذوي الرتب الكبيرة التي كان على رأسها ضابط نمساوي.

قال لها اللواء: يا سيدتي تفضلي بقبول اعتذاراتنا. فقد حدث خطأ ويمكنك مواصلة رحلتك بلا خوف، وهاك جواز سفر يقيك برغم ذلك كل ألوان الإذلال.

وتناولت الكونتيسة الأوراق وهي ترتجف، وتمتمت بأقوال غامضة، وشاهدت بالقرب من اللواء «آرثر» في بدلة ضابط بريطاني. وهو الذي كان له الفضل بلا شك في إنقاذها بسرعة. وأدار الشاب البريطاني رأسه في فرح واكتئاب معًا ولم يجرؤ على النظر إلى «جولي» إلا خلسة.

ووصلت السيدة «ديجليمون» إلى باريس بفضل جواز السفر دون أي حادثة مكدرة. وهناك التقت بزوجها الذي أفلت من يمين الولاء للإمبراطور، فكوفئ بحفاوة بالغة من قبل الكونت «دارتوا» الذي عينه أخوه «لويس» الثامن عشر عميدًا للمملكة. وحصل «فيكتور» في الحرس الخاص على درجة بارزة جعلته في رتبة لواء.

وبرغم ذلك، وسط كل هذه الاحتفالات التي أبرزت عودة «البوربون» كان شر عميق مؤثر على حياته قد هجم على «جولي» المسكينة، إذ فقدت الكونتيسة «دي ليستومير لاندون». فقد ماتت السيدة العجوز من

الفرح، وحدثت لها جلطة في القلب عندما شهدت دوق «دانجوليم» في «تور» من جديد. وهكذا ماتت تلك التي كانت سنها تخول لها الحق في نصيحة «فيكتور» والوحيدة التي كان يمكنها بإرشادات ماهرة أن تجعل الوئام أكثر وفاقًا فيما بين الزوجة والزوج. وأحست «جولي» بمدى فداحة هذه الخسارة. ولم يعد بينها وبين زوجها سواها نفسها. غير أنها شابة نجلة، وكانت لا شك تفضل أولًا العناء على الشكوى. وكان كمال طبعها نفسه متعارضًا مع ما جرؤت أن تطرحه من واجباتها أو من نزوعها نحو البحث عن سبب آلامها لأن وقف هذه الآلام كان شيئًا دقيقًا، فقد خشيت «جولي» أن تخدش حياءها كفتاة شابة.

كلمة فيما يتعلق بمصير السيد ديجليمون في عهد رجوع الملكية:

ألا يلتقي رجال كثيرون فيما بينهم وتظل تفاهتهم العميقة سرًا بالنسبة إلى غالبية الناس الذين يعرفونهم؟ فكل من الرتبة الكبيرة، والأسرة ذات المكانة الملحوظة والوظائف الهامة، وبعض المداهنة في المعاملة الحميدة، والتحفظ الشديد في السلوك أو امتيازات الثروة... كل هذه شأنها بالنسبة إليهم شأن الحراس الذي يحولون دون نفاذ أي انتقادات إلى وجودهم الخاص بهم. وهؤلاء الناس يشبهون الملوك الذين يستحيل تقدير قامتهم وطباعهم وأخلاقهم الحقيقية تقديرًا عادلًا، أو معرفتها معرفة سليمة،

لأن رؤيتهم تتم إما عن بعد شديد أو عن قرب شديد. وتقوم هذه الشخصيات ذات الفضل المصطنع بتوجيه الأسئلة بدلًا من أن تقوم بالكلام وتملك فن إبراز الآخرين في المشهد كي تتحاشى اتخاذ وضع أمامهم. ثم يجذبون ببراعة موفقة كلا من خيط عواطفه أو خيط مصالحه، ويتلاعبون على هذا النحو بالرجال الذين يتميزون عليهم فعلًا، ويجعلون منهم صورًا خشبية متحركة، ويعتقدون بالتالي في صغرهم ما داموا قد نزلوا بهم إلى مستواهم. وعندئذ يحصلون على الانتصار الطبيعي للفكر الدنيء المتثبت فوق طيش الأفكار الكبيرة. ومن أجل الحكم على هذه الرءوس الفارغة وتقدير قيمهم السالبة يجب على المراقب أن يملك فكرًا دقيقًا قبل أن يكون عاليًا وأن يملك صبرًا أكثر مما يملك طاقة في البصر، وأن تتوافر النعومة والملمس الرقيق أكثر مما تتوافر له الرفعة والعظمة في الأفكار. وبرغم ذلك -مهما بذل هؤلاء المغتصبون من مقدرة على الدفاع عن نواحي ضعفهم- من الصعب عليهم تمامًا أن يخدعوا نساءهم وأمهاتهم وأولادهم أو أصدقاء البيت. غير أن هؤلاء يحفظون لهم دائمًا سرهم فيما يمس الشرف المشترك على نحو ما. بل غالبًا ما يساعدونهم على أن يفرضوا ذلك السر على المجتمع. وإذا كان تآمر أهل البيت يعين كثيرين من هؤلاء التوافه على أن يصبحوا في عداد الرجال الممتازين فهم بهذا يعوضون عدد الرجال الممتازين الذين يعدون من التوافه، بحيث يتوافر للهيئة الاجتماعية دائمًا نفس القدر من الكفايات الظاهرة.

ولنفكر الآن في الدور الذي لا بد أن تلعبه امرأة ذات مستوى فكري وعاطفي حيال زوج من هذا الصنف... ألا نلحظ وجود حيوات مثقلة بالآلام والتضحية التي لا يعدلها أي جزاء على الأرض بالنسبة إلى قلوب معينة مليئة بالحب والرقة؟

ولو كان قد التقى بامرأة قوية في هذا الموقف المريع لخرجت منه بجريمة، على نحو ما فعلت «كاترين» الثانية التي أطلق عليها لذلك السبب اسم «العظيمة».

ولكن لما لم تكن كل النساء جالسات على عروش فإنهن ينقطعن معظمهن لألوان من الشقاء البيتية التي لا ينقصها الهول برغم كونها مبهمة. وهن عندما يبحثن عن عزاء دنيوي مباشر عن الشرور يقمن غالبًا بتغيير الآلام فقط إذا شئن البقاء مخلصات نحو واجباتهن أو يؤدين أخطاء إذا أطحن بالقوانين في سبيل لذائذهن.

وكل هذه الأفكار تقبل التطبيق على التاريخ السري الخاص «بجولي». ففي كل المرحلة التي ظل «نابليون» واقفًا فيها على رجليه بقي الكونت «ديجليمون» مقدمًا مثل كثيرين غيره، ضابطًا جيدًا من ضباط الياوران، وممتازًا في أداء المهمات الخطرة، ولكنه ظل بغير أي قدرة قيادية ذات أهمية فلم يثر أي حسد، وأصبح معدودًا كواحد من الشجعان الذين كان يؤثرهم الإمبراطور، وكواحد ممن يطلق عليهم العسكريون عادة اسم «الطفل الطيب» أما

الملكية العائدة التي أعطته لقب الماركيز فلم تجد فيه شخصًا عاقًّا، إذ أنه تبع أسرة «البوربون» حتى مدينة «جان» ببلجيكا. وأدت هذه الفعلة المنطقية الأمينة إلى تكذيب الطالع عندما قدر صهره فيما سلف أن زوج ابنته لن يتقدم على رتبة مقدم.

وعند العودة الثانية رقي عميدًا وصار ماركيزًا فطمع السيد «ديجليمون» في أن يصل إلى الضيعة، حيث يتبنى حكمة المحافظين وسياستهم، فيحيط نفسه بالرياء الذي لا يخفي خلفه شيئًا، ويصير رجلًا خطيرًا قليل الكلام مستفسرًا، وينظر إليه كرجل عميق. فإذا حصن نفسه بلا توقف بأشكال التعامل المزودة بالصيغ وحفظ ترديد العبارات الجاهزة التي تصكّ بانتظام في «باريس» كي يعطي الأغبياء الفكة الصغيرة منها كمعنى من معاني الأفكار الكبيرة أو الوقائع، اشتهر لدى أهل المجتمع بأنه رجل ذوق ومعرفة. وبمجرد عناده في آرائه الأرستقراطية يوضع في قائمة أصحاب الطباع الحسنة. وإذا صار بالمصادفة غير عابئ أو مرح، كما كان في الأيام السالفة، أن تكون سخافته وتفاهته في الأقوال بالنسبة إلى الآخرين مصدر إيحاءات ضمنية دبلوماسية: «أوه! يا له من رجل لا يقول إلا ما يرمي إليه..» هكذا كان يعتقد فيه قوم من الفضلاء. وكانت تخدمه فضائله وعيوبه على السواء، وكلفته بسالته شهرة عسكرية عالية لا تنكر، لأنه لم يتول قيادة رئيسية قط. وعبر وجهه الحازم النبيل عن أفكار عريضة، ولم تكن هيئته

خادعة إلا في نظر زوجته. وانتهى الماركيز عند سماعه الناس جميعًا يقرون بمواهبه المصطنعة إلى أن اقتنع هو نفسه بأنه كان واحدًا من الرجال المرموقين في البلاط حين عرف بفضل مظاهره كيف يحوز الرضا حتى صارت قيمه المختلفة مقبولة بدون معارضة.

ومهما يكن من أمر، فقد كان السيد «ديجليمون» متواضعًا في بيته، وأحس فيه بغريزته بعلو شأن زوجته عليه بحكم شبابها. ومن هذه الناحية غير المقصودة تولّدت قوى مستورة وجدت الماركيزة نفسها مرغمة على قبولها برغم كل جهودها التي بذلتها كي تدفع عن نفسها حملها. ولما كانت سديدة النصح لزوجها فقد أدارت كل دعاواه وكل ثرواته، وكان نفوذها ذاك ضد الطبيعة، كما كان بالنسبة إليها نوعًا من التحقير ومصدر كثير من الآلام التي دفنتها في قلبها.

فأولًا وقبل كل شيء كانت غريزتها الأنثوية الرقيقة تخبرها أنه من الأجمل أن تطيع هي رجلًا موهوبًا بدلًا من أن تقتاد غبيًّا، وأن الزوجة الشابة التي تضطر إلى التفكير والعمل على نحو ما يفعل الرجل لا تكون رجلًا أو امرأة، وتتخلى عن كل لطفها الجنسي حين تفقد شروره، ولا تستحوذ على أي امتيازات مما أودعته القوانين في أيدي الأقوى. لقد كان وجودها يخفي هزءًا مريرًا مؤكدًا. ألم تكن مضطرة إلى احترام معبود أجوف وأن تقوم هي بحماية حاميها ذلك الكائن الشقي الذي قابل

إخلاصها وتفانيها المستمر له بأن ألقى إليها بحب أناني كحب الأزواج، وبأن رأى فيها امرأة وحسب، فلم يتنازل، أو لم يكن يعرف -وهي إهانة أكثر عمقًا- الاهتمام بلذائذها أو السؤال عن مصدر شقائها وذوائها.

وقد أنقذ الماركيز حبه لذاته مثل أغلب الأزواج الذين يحسون بإذلال الروح العالية بأن قاس الضعف الجسمي بضعف «جولي» المعنوي الذي كان يستحسن الشكوى منه وهو يطالب بحساب المصير الذي منحه فتاة شابة مريضة كزوجة. على أي حال كان يجعل من نفسه الضحية وهو الجلاد.

وكان على الماركيزة أن تظل تبتسم وهي محملة بكل شقاء ذلك الوجود التعيس أمام مولاها الغبي، وأن تزين بالزهور بيتًا في حداد وأن تلصق السعادة إعلانًا على وجه مصفر من جراء أسرار التعذيب. وقد أضفت هذه المهمة الفخرية أو هذا الإنكار الذاتي الرائع على الماركيزة الشابة شيئًا فشيئًا وقار المرأة وشعور الفضيلة اللذين كانا الوقاية من أخطار الدنيا بالنسبة إليها. ونسبر غور هذا القلب تمامًا فنجده إما أن يكون الشقاء العاطفي المكنون الذي توج حبها الأول الساذج كفتاة دفعها إلى أن تنظر إلى العشق نظرة فزع، وإما أنها لم تكن قد أدركت الافتتان أو المتع المحظورة بل المتع الجنونية التي تنسى بعض النساء قوانين الحكمة ومبادئ الفضيلة التي يرتكز عليها المجتمع. أما وقد تخلت عن الملاطفات الحلوة والانسجام الحنون الذي وعدتها بها

التجربة المحنكة الخاصة بالسيدة «دي ليسترمير لاندون» فلم يبق لها إلا أن تنتظر في استسلام نهاية آلامها على أمل أن تموت شابة.

ومنذ عودتها من «التورين» أخذت صحتها في التدهور يومًا بعد يوم، وصارت الحياة تقاس في نظرها بالعناء، وهو عناء ظريف علاوة على ذلك، فالمرض يكاد يكون شهوانيًّا في مظهره، بل يمكن أن يعد في نظر الناس السطحيين مجرد وهم شابة مفرطة اللباقة معجبة بذاتها. وقد حكم الأطباء على الماركيزة بأن تظل راقدة فوق أريكة حيث أخذت تخف وتهزل وسط الزهور التي أحاطت بها، وهي تذبل مثلها. وامتنعت لضعفها عن النزهة والخروج في الهواء الطلق، ولم تكن تخرج إلا في عربة مقفلة. ولم تكن - وقد أحاطت نفسها دائمًا بكل روائع الترف والصناعات الحديثة- أشبه بمريضة بل بملكة متكاسلة. وكان يحضر إليها بعض الأصدقاء ممن قد يعشقون شقاءها وضعفها متأكدين من وجودها دائمًا بالبيت، ومتفكرين بلا شك أيضًا في صحتها الجيدة المستقبلة ليحملوا إليها الأخبار وليحيطوها بآلاف الأحداث الصغيرة التي تجعل الحياة في «باريس» كاملة التنويع. وكان اكتئابها إذن برغم خطورته وعمقه اكتئاب الرفاهية؛ إذ كانت الماركيزة «ديجليمون» شبيهة بزهرة رائعة الحسن نخرت جذورها حشرة سوداء. وترددت أحيانًا على بعض الأوساط لا عن رغبة ولكن بدافع الاستجابة لدواعي الوضع الذي كان يطمح إليه

زوجها. واستطاعت بحكم صوتها وبراعتها في أداء الأغاني أن تتلقى من التصفيق ما يتملق دائمًا في الغالب امرأة شابة ولكن فيم يفيدها هذا النجاح الذي لم يكن يعزيها عن مشاعرها أو آمالها؟

أما زوجها فلم يكن يحب الموسيقى، ولذلك كانت تشعر دائمًا بالحرج في الصالونات، حيث كان جمالها يجذب إليها مظاهر مجاملات مغرضة. وأثار وضعها هنالك رأفة قاسية وفضولًا بائسًا. وأصابها التهاب مميت في العادة مما يبقيه النساء سرًّا ولن تستطع علوم الاشتقاق اللغوي الحديثة أن تعثر له بعد على اسم. وعلى الرغم من الصمت الذي جعلت الحياة تتصل في إطاره فإن سبب معاناتها لم يكن سرًّا بالنسبة إلى أحد. ولما كانت قد ظلت آنسة برغم زواجها فإن أقل النظرات إليها كانت تثير فيها الحياء. وكذلك كانت تتعمد لكي تتفادى الاحمرار خجلًا ألا تظهر إلا ضاحكة مرحبة، كما كانت تتكلف ضربًا من الابتهاج المزيف، وتقول عن نفسها دائمًا إنها في صحة جيدة، أو تستدرك الأسئلة عن صحتها مقدمًا ببعض الأكاذيب المحتشمة.

وبرغم ذلك شاركت حادثة في سنة 1817 مشاركة كبيرة في تعديل الحالة المحزنة التي كانت «جولي» قد تردت فيها آنذاك؛ ذلك أنها رزقت بابنة وعمدت إلى إرضاعها، وهذه المشغوليات الشديدة، والملاهي المليئة بالقلق التي تنشأ عن رعايات الأمومة، جعلت حياتها أقل

تعاسة مدة سنتين. وتنبأ لها الأطباء بتحسن صحتها، ولكن الماركيزة لم تعتقد إطلاقًا في تفاؤلاتهم الافتراضية، وربما كانت ترى في الموت خاتمة سعيدة شأن كل الأشخاص الذين تصبح حياتهم خالية من أي حلاوة.

وفي أوائل سنة 1819 كانت الحياة في ذروة قسوتها بالنسبة إليها، ففي الوقت الذي هنأت نفسها فيه بعض الهناء السلبي الذي استطاعت أن تكسبه، استشفت هوات مفزعة، إذ كان زوجها قد أقلع عنها رويدًا رويدًا، وكان هذا البرود العاطفي الذي كان من قبل فاترًا وأنانيًا أنانية تامة قادرًا على أن يؤدي إلى أكثر من كارثة مما كانت بصيرتها الحساسة وحكمتها تنبئانها به. وبرغم تأكدها من احتفاظها بسلطانها على «فيكتور» ومن أنها استحوذت على تقديره إلى الأبد، أشفقت من تأثير الأهواء على مثل هذا الرجل التافه الأهوج المغرور، وكثيرًا ما كان أصدقاء «جولي» يفاجئونها مستسلمة لتأملات طويلة، فكان قليلو الذكاء منهم يستفسرون عن السر وهم يتضاحكون، كأن المرأة الشابة لم تكن قادرة على أن تفكر إلا في النزق واللهو، وكأنه لم يكن دائمًا لأفكار ربة الأسرة أي معنى عميق. وعلاوة على هذا فالشقاء مثله مثل السعادة الحقيقية في أن كلا منهما يؤدي إلى الأحلام.

وفي إحدى المرات كانت «جولي» تلعب مع ابنتها «هيلين» فنظرت إليها نظرة مبهمة، وكفت عن الإجابة عن أسئلتها الطفولية التي تسبب للأمهات سرورًا كبيرًا،

لتعود بذهنها وتحاسب مصيرها في الحاضر والمستقبل. وبللت عينها الدموع حين استعادت فجأة ذكرى مشهد العرض في حدائق «التويليري». إذ دوت في أذنها مرة ثانية نبوءات أبيها، وأنبها ضميرها على أنها لم تقدر حكمته قدرها. فكل هذه المصائب قد نشأت عن عصيان أحمق، وغالبًا ما كانت تجهل أي هذه المصائب كلها كان أثقلها حملًا. فلم يكن حسبها أن كنوزها الحلوة في روحها ظلت مجهولة، وإنما لم يمكنها قط أن تجعل نفسها مفهومة لدى زوجها حتى في أبسط حوائج العيش، وحينما نمت ملكتها في الحب لديها، وصارت أكثر قوة وأكثر حيوية اختفى الحب المباح أو الحب الزوجي وسط ألوان خطيرة من المعاناة الجسدية والمعنوية. ثم إنها كانت تشعر نحو زوجها بالرأفة الملاصقة للاحتقار الذي يذبل مع الزمن كل عاطفة.

على أي حال إذا لم تكن محادثاتها مع بعض الأصدقاء أو بعض مغامرات الأوساط الكبيرة قد علمتها أن الحب يجلب سعادة هائلة فإن الجروح قد جعلتها تخمن المتع العميقة البريئة التي توحد بين الأرواح المتآخية. وارتسم وجه «آرثر» أو «أرتير» أبيض القلب في لوحة في ذاكرتها التي اختطت الماضي كل يوم بشكل أكثر نقاء وأكثر جمالًا، ولكن في لمح البصر، لأنها لم تكن تجرؤ على التوقف عند تلك الذكرى. وكان حب الشاب الإنجليزي الصامت الخجلان هو الواقعة الوحيدة التي تركت بعض

الأثر اللطيف منذ زواجها في هذا القلب المظلم الوحيد. وكل الآمال التي خابت وكل الرغبات التي لم تحقق مما كان بالتدريج يزيد من تعاسة فكر «جولي» كان يذكر بلعبة طبيعية من لعب الخيال بذلك الرجل الذي كانت طرائقه وعواطفه وطباعه تبدو ذات تعاطف كبير مع طرائقها وعواطفها وطباعها. غير أن هذه الفكرة كان لها دائمًا مظهر النزوة أو الحلم. وبعد هذا الحلم المستحيل الذي ينتهي دائمًا بالتنهدات كانت «جولي» تستيقظ وهي أشد تعاسة وتشعر بآلامها الكامنة على نحو أفضل إذا أخذت تميها تحت أجنحة سعادة وهمية.

وفي إحدى المرات أخذ أنينها طابع الجنون والوقاحة، فأرادت تحقيق متعها بأي ثمن، ولكنها بقيت برغم ذلك فريسة لا أدري لأي خمود أبله، تصغي بلا فهم أو تدرك الأفكار غامضة بلا تحدد، بحيث لم تجد أي ألفاظ تستجيب بها لهذا كله. واضطرت أمام التنغيص الذي شعرت به في إرادتها الحنون، وفي عادات سلوكها التي كانت تحلم بها في الزمن السالف وهي لا تزال فتاة شابة -اضطرت إزاء ذلك كله أن تبتلع دموعها. لمن تشكو؟ ومن ذا يسمع شكواها؟ ثم إنها كانت تتصف بهذه الرقة الأنثوية الكبيرة وبهذا الحياء العاطفي الساحر الذي يتمثل في إسكات الشكوى التي لا تجدي وفي عدم انتهاز الفرص عندما يكون الانتصار مذلًا لكل من الهازم والمهزوم على السواء.

لقد حاولت «جولي» أن تسخر قدرتها وفضائلها الشخصية للسيد «ديجليمون» وتفاخرت بطعوم السعادة التي لم تذقها. واستخدمت كل نعومتها كامرأة في العبث المحض بتدبيرات غير معلومة لديه حتى إن بقي مستمرًا في طغيانه. وأحيانًا كان يسكرها الشقاء، فتصبح بغير فكر أو ضابط. ولكنها لحسن الحظ كانت ترتد دائمًا إلى أمل علوي بدافع من شفقة حقيقية. فكانت تحتمي بحياة لمستقبل وباعتقاد زاهر يدفعها من جديد إلى قبول مهمتها المؤلمة. وكان صراعها مفزعًا كما كانت تمزقاتها الداخلية بلا أي مفخرة، أو اكتئاباتها الطويلة مجهولة. إذ لم يكن ثمة إنسان واحد يتلقى نظراتها الحزينة ودموعها المرة الجارية في وحدتها بلا تبصر ولا قصد.

وتكشفت أمام الماركيزة أخطار الموقف الحرج الذي كانت قد بلغته شيئًا فشيئًا تحت تأثير الظروف بكل أثقالها في أثناء سهرة في شهر يناير سنة 1820. وعندما يتعارف الزوجان تمامًا ويعتاد كل منهما الآخر اعتيادًا طويلًا، بحيث تستطيع المرأة أن تفسر أبسط حركات الرجل، وأن تنفذ إلى المشاعر أو إلى الأشياء التي يخفيها عنها، تلمع غالبًا بعض الأنوار المفاجئة، وتلي أفكارًا وملاحظات سابقة، ويكون مردها إلى الصدفة أو تصدر بطريقة بدائية بغير مبالاة، إذ تستيقظ المرأة غالبًا فجأة على حافة أو في قاع هوة. وهكذا استنتجت الماركيزة -وهي سعيدة لوجودها بمفردها منذ بضعة أيام- سر وحدتها. فإن زوجها لعدم

ثباته أو لتعبه ولكرمه أو لامتلائه بالشفقة نحوها لم يعد ينتمي إليها.

وفي تلك اللحظة لم تعد تفكر في نفسها أو في آلامها أو في تضحياتها. لم تعد سوى أم تعيش حظ ابنتها ومستقبلها وسعادتها. فابنتها هي الكائن الوحيد الذي يهبها بعض الحبور.. ابنتها «هيلين» هي وحدها التي قيدتها بالحياة. الآن تريد «جولي» أن تعيش كي تقى ابنتها الهوان المخيف الذي تستطيع امرأة الأب أن تخنق حياة هذه المخلوقة العزيزة في ظله.

وأمام هذا التقدير الجديد لمستقبل مشئوم ابتلعتها تأملات متأججة من شأنها أن تلتهم سنوات برمتها. فعلى الرغم من كل شيء لا بد أن بينها وبين زوجها عالمًا من الأفكار تقع أحماله عليها بمفردها. وحتى ذلك الحين كانت واثقة من حب «فيكتور» لها بقدر ما كان في مقدوره أن يحب، فأخلصت لسعادة لم تكن تشارك فيها. أما اليوم فلم يعد أمامها -وقد فقدت الرضا، لعلمها بأن دموعها كانت مصدر فرح لزوجها- إلا أن تختار الأحزان. ووسط فتور الشجاعة التي أرخت كل قواها في سكون الليل وصمته.. في اللحظة التي هجرت فيها أريكتها وقد خبت نارها.. اتجهت على ضوء مصباح نحو ابنتها تتأملها بعين خالية من الدموع.. ودخل السيد «ديجليمون» مليئًا بالمرح، فدعته «جولي» لتأمل ابنته وهي نائمة، غير أنه قابل تهلل زوجته بعبارة مبتذلة: في هذا السن كل الأطفال ظرفاء.

قال هذا ثم أرخى ستائر مهد ابنته بعد أن قبلها بغير مبالاة فوق جبهتها. ونظر إلى «جولي» وتناول يدها وأجلسها بالقرب منه فوق الأريكة حيث بزغ منذ قليل عدد كبير من الأفكار المشئومة، وصاح بقوله في مرح ثقيل اعتادت الماركيزة أن تعرف مقدار خوائه: أنت جميلة هذه الليلة يا سيدة «ديجليمون».

سألته الماركيزة مع تظاهرها بعدم المبالاة العميقة: أين قضيت السهرة؟

- عند السيدة «ديسيريزي».

وأمسك بحاجب نار المدفأة الشفاف يتفحصه باهتمام دون أن يلحظ أثر الدموع التي ذرفتها زوجته. وارتجفت «جولي». وما كانت اللغة لتكفي للتعبير عن دُفّاع الأفكار الذي أفلت من قلبها ولزمها أن تحوشه فيه.

- سوف تقيم السيدة «ديسيريزي» حفل عزف موسيقي يوم الإثنين القادم، وتحترق شوقًا لكي تكوني بين مدعويها، ويكفي أنك لم تظهري في المجتمعات منذ وقت طويل حتى ترغب في رؤيتك لديها. إنها سيدة طيبة وتحبك كثيرًا، وسأكون مسرورًا بأن تحضري وكدت أكون قد أعطيت ردًا نيابة عنك...

أجابت «جولي»: سوف أذهب.

وكان في رنة صوت الماركيزة ولهجتها ونظراتها شيء نفّاذ خاص بحيث التفت «فيكتور» إلى زوجته مستغربًا برغم

عدم اهتمامه. هذا هو كل ما حدث. واستنتجت «جولي» أن السيدة «ديسير يزي» هي المرأة التي انتزعت قلب زوجها منها. واسترخت في حلم يائس، وبدت مشغولة جدًّا بتأمل النار. وأدار «فيكتور» المحجن بين أصابعه باديًا عليه قلق الرجل الذي يحمل إلى بيته تعب السعادة بعد أن كان سعيدًا خارجه. وعندما هاجمه التثاؤب عدة مرات أمسك بالمصباح في إحدى يديه وبحث باليد الأخرى بفتور عن عنق زوجته وأراد تقبيلها، ولكن «جولي» هبطت مقدمة إليه جبهتها وتلقت عليها قبلة المساء.. تلك القبلة الآلية الخالية من الحب كنوع من الإرغام الذي بدا لها بغيضًا. وعندما أغلق «فيكتور» الباب انكفأت الماركيزة فوق مقعد وترنح ساقاها وسالت دموعها.

ولا بد من المرور بالعذاب في موقف مماثل لكي يفهم المرء كل ما يخفيه ذلك الموقف من آلام، ويستنتج المآسي المرعبة الطويلة التي يؤدي إليها. هذه الأقوال البسيطة الحمقاء، وهذا الصمت بين الزوجين، والحركات والنظرات، وطريقة جلوس الماركيز أمام المدفأة، والوضع الذي اتخذه وهو يسعى لتقبيل عنق زوجته، كل هذا قد أدى إلى تحويل تلك اللحظة إلى خاتمة مفجعة للحياة المؤلمة الموحشة التي تعيشها «جولي». وركعت فوق ركبتها أمام أريكتها في حالتها الجنونية، ودست وجهها في الأريكة حتى لا ترى أي شيء وتوجهت بالصلاة إلى الله معطية أقوال أدعيتها العادية لهجة عاطفية حنونًا، ودلالة جديدة

لو سمعها زوجها لفطرت قلبه.

وبقيت ثمانية أيام مشغولة بمستقبلها الذي كانت تدرسه، وهي فريسة شقائها، بحثًا عن الوسائل التي تجعلها لا تخدع نفسها، وتسترد سلطانها على الماركيز، وتعيش مدة طويلة تسمح لها بالسهر على سعادة ابنتها. فصممت بالتالي على أن تنازل منافستها وعلى أن تعود إلى الظهور في المجتمعات، وأن تتألق فيها. كذلك صممت على أن تظهر كمن تحب زوجها ذلك الحب الذي لم تعد قادرة على أن تحققه له وعلى أن تأسره. ثم تتدلل عليه بعد أن تخضعه لنفوذها بهذه الطرق المصطنعة على نحو ما تفعل العشيقات من صاحبات الأهواء والنزوات حين يتلذذن بتعذيب محبيهن. وكانت هذه الحيلة الشنيعة هي الدواء الوحيد الممكن لشروره. فعلى ذلك النحو ستصبح متحكمة في آلامها وتوجهها وفقًا لرغباتها حتى تقضي عليها مع استمرارها في تدويخ زوجها وفي إخضاعه لاستبداد مخيف. وما كانت لتشعر بأي تأنيب ضمير لو فرضت عليه حياة المشقة والعذاب.

وطفرة واحدة اندفعت في ترتيبات باردة بغير اهتمام أو مبالاة. ولكي تنقذ ابنتها خمنت لجأة كل ضروب المكر والكذب لدى المخلوقات التي لا تحب خداع الدلال الأنثوي وحيله الفظيعة مما يدفع بالرجال إلى كراهية المرأة كراهية عميقة، لافتراضهم أن فسادها أصيل، وأنها مفطورة عليه. والواقع أن زهو «جولي» الأنثوي ومصلحتها

ورغبتها المبهمة في الثأر لنفسها كانت كلها بغير علم منها ملائمة لحبها الأمومي كما تنفذ منه إلى طريق تنتظرها فيه آلام جديدة، غير أن روحها كانت عذبة وكان فكرها شديد الرقة، وكانت على الخصوص صريحة صراحة ضخمة تحول بينها وبين التوافق طويلًا على هذا الغش. ولما كانت قد اعتادت أن تراجع نفسها عند أول خطوة من خطوات الرذيلة، إذ كان هذا كله رذيلة، فقد هبت صيحة ضميرها كي تخنق أنفاس الشهوات والأنانية. ولا شك أن المرأة الشابة التي يبقى قلبها نقيًّا ويظل حبها عذريًّا تخضع عاطفة الأمومة نفسها لديها لصوت الحياء. أليس الحياء هو المرأة بأكملها؟ غير أن «جولي» لم تشأ أن تلمح أي خطر أو أي خطأ في هذه الحياة الجديدة، وذهبت إلى الاستقبال الذي أعدته السيدة «ديسير يزي» وحسبت منافستها حساب أنها سوف تلقي امرأة باهتة سقيمة، فوضعت الماركيزة المساحيق الحمراء، وظهرت في تألق حليها الذي أعطاها جمالًا فوق جمال.

وكانت السيدة «ديسير يزي» واحدة من تلك النساء اللائي يزعمن لأنفسهن في «باريس» إمبراطورية الأزياء والمجتمع. كانت تصدر المراسيم التي كان يخيل إليها أنها يُعمل بها عالميًّا ويؤخذ بها لمجرد قبولها في الدائرة الخاضعة لنفوذها. وكانت تدعي التأليف، فكانت بمثابة الحكم الأعلى؛ فالأدب والسياسة والرجال والنساء... الجميع خضعوا لرقابتها، وبدت السيدة «ديسير يزي» كأنها تتحدى

الرقابات الأخرى. وكان بيتها نموذجًا للذوق الحسن في كل شيء.

وانتصرت «جولي» على الكونتيسة وسط هذه الصالونات المليئة بالنساء الأنيقات الجميلات؛ فقد كانت «جولي» ذات روح وحياة ونشاط دفع النخبة الممتازة من رجال السهرة إلى الالتفاف حولها. وكانت زينتها غير منتقدة مما دفع الحاضرات إلى اليأس، وجعلهن جميعًا يحسدنها لتفصيلة ثوبها وشكل الصدر الذي أُرجع تأثيره عامة إلى نبوغ معين لدى خياطة مجهولة. إذ تميل النساء إلى الاعتقاد في علوم النسج أكثر مما يملن إلى الاعتقاد في ملامحه وكمال اللائي يفقنهن في الملامح والخلقة.

وعندما وقفت «جولي» لتتجه نحو البيانو كي تغني أغنية (ديزدامونة) (2) المؤثرة هرع الرجال من كل الصالونات ليصغوا إلى ذلك الصوت المشهور الذي ظل صامتًا أمدًا طويلًا، وساد بينهم صمت عميق. وأحست الماركيزة بانفعالات شديدة عندما رأت الوجوه المسرعة نحو الأبواب وكل النظرات المتعلقة بها. وبحثت عن زوجها وصوّبت نحوه نظرة مليئة بالدلال، وتبيّن لها في تلك اللحظة ببالغ السرور أن رضاها عن نفسها وحبها لذاتها كان بشكل غير عادي. وسحرت المجتمعين في أدائها للجزء الأول الخاص بالمدخل. ولم تكن أشهر المطربات قادرات على تشنيف الآذان بالأداء الغنائي قط على هذا النحو المتكامل من الإحساس والاستهلال النغمي (3) ولكنها عند عودتها

الثانية إلى الغناء نظرت إلى المجموعات فلمحت «أرتير» الذي لم تكن نظراته الثابتة تفارقها، فارتعدت بشدة وتبدل صوتها، فاندفعت السيدة «ديسير يزي» من مكانها نحو الماركيزة: «ماذا بك يا عزيزتي؟ أوه! يا للصغيرة المسكينة! إنها مريضة. لقد ارتعدت لرؤيتها تؤدي شيئًا أكبر من قدراتها...».

(2) ضرب بلزاك هنا مثلًا بكل من ماليبران وباستا، وهما من أشطر المطربات.

(3) من تأليف روسيني (1868 -1792).

وتوقفت الأغنية، ولم تجد «جولي» -مضطرة- الشجاعة للاستمرار ورضخت لرحمة منافستها الغادرة، وتهامست النساء جميعًا. وبكثرة التداول حول هذا الحادث استنتجت الحاضرات أن الصراع قد بدأ بين الماركيزة وبين السيدة «ديسير يزي» فلم يقتصدن في الاغتياب. لقد تحققت فجأة كل المشاعر المسبقة الغريبة التي طالما أقلقت «جولي» فعندما شغلها «أرتير» ارتضت أن تعتقد أن رجلًا بمثل هذا المظهر الحلو الرقيق لا بد أن يظل مخلصًا لحبه الأول. وأحيانًا كان يرضي غرورها أن تكون موضوع هذه العاطفة الجميلة.. هذه العاطفة النقية الصادقة التي تصدر عن شاب تنتمي كل أفكاره إلى حبيبة قلبه، وتتوقف كل دقائق حياته عليها. وهو فوق ذلك لا يهدف إلى مجرد التحايل ويحمر وجهه خجلًا مما تحمر له خجلًا وجنتا امرأة بل يفكر كما تفكر المرأة نفسها، فلا يضع أمامها أي

منافسة لها، ويهب نفسه لها دون أن يحلم بأي طموح أو مجد أو ثروة.

كانت قد قدرت كل هذا عن «أرتير» في جنون وشرود فكر، ثم فجأة اعتقدت أنها شهدت تحقيق هذا التقدير أو هذا الحلم. فقد قرأت على وجه الشاب الإنجليزي المائل إلى الأنوثة تقريبًا كل الأفكار العميقة وكل الاكتئابات الرقيقة والاستسلامات المؤلمة التي كانت هي نفسها ضحية لها. لقد عرفت نفسها فيه. فالشقاء والاكتئاب هما أبلغ مفسرين للحب، ويتناظران بين كائنين متألمين في سرعة لا تصدق. والنظرة الحنون وتلاقح الأشياء أو الأفكار عندهما تام وصحيح. بل إن عنف الصدمة التي تلقتها الماركيزة قد كشف لها عن كل أخطار المستقبل. فإن سعادتها الكبيرة بالعثور على مسوغ لاضطرابها وانتقالها من حالتها المعتادة إلى الألم قد جعلتها تستسلم عن طيب خاطر لثقل رأفة السيدة «ديسير يزي» الحاذقة. وكان توقف الأغاني حدثًا تحادث بشأنه أشخاص كثيرون على أنحاء مختلفة. فقد كان البعض يأسف لمصير «جولي» ويشتكي من فقدان المجتمع لامرأة على هذا القدر من الامتياز. وكان الآخرون يريدون معرفة سبب هذه الآلام وسبب العزلة التي صارت تعيش فيها.

وقال الماركيز لشقيق السيدة «ديسير يزي»: هيه، والآن يا عزيزي «رونكير ول» لقد كنت تحسد سعادتي عند رؤيتك للسيدة «ديجليمون» وكنت تؤاخذني على عدم

وفائي لها؟ هاك إذن، وسوف تجد مصيري شيئًا لا أغبط عليه لو بقيت مثلي إلى جوار زوجة جميلة مدة سنة أو سنتين بغير أن تجرؤ على تقبيل يدها خشية خدشها وتكسيرها. فلا تتحير أبدًا أمام هذه الحلي الرقيقة التي لا تصلح إلا من وراء لوح زجاج والتي تفرض علينا هشاشتها ونفاستها معًا احترامها دومًا. هل تطلق أنت فرسك الجميل الذي تخشى عليه -كما قيل لي- تحت المطر المنهمر والثلج؟ تلك قصتي. من المحقق أنني واثق من فضيلة زوجتي، ولكن زواجي نوع من الترف، ومن الخطأ أن تحسبني متزوجًا. وهكذا تكون خياناتي مشروعة بشكل من الأشكال. ولكم وددت أن أعرف كيف كنتم تتصرفون في مكاني أيها السادة الضاحكون؟ وما كان الكثيرون من الرجال ليبلغوا درجة التحفظ والتحرر التي بلغتها فيما يتعلق بزوجتي.

وأضاف الماركيز بصوت منخفض: بل إنني متأكد أن السيدة «ديجليمون» ليس لديها أدنى شك. ومن المؤكد أيضًا أنني مخطئ جدًّا في شكواي، وأنني غاية في السعادة... غير أنه لا شيء يضايق الإنسان الحساس أكثر من أن يرى مخلوقًا مسكينًا تعلّق به يتعذب...»».

أجاب السيد دي رونكير ول: «فأنت إذن ذو حساسية كبيرة لأنك قليلًا ما توجد في بيتك»».

فأثارت هذه العبارة اللاذعة غير العدائية كل المستمعين. غير أن «أرتير» بقي جامدًا ثابت الجنان كرجل مهذب اتخذ

الجدية أساسًا لطبعه. ولقد أدت أقوال الزوج الغريبة بلا شك إلى التماس بعض الآمال لدى الشباب الإنجليزي الذي انتظر صابرًا لحظة انفراده وحده بالسيد «ديجليمون» حتى واتته المناسبة بعد قليل، فقال له: سيدي إنني أتألم ألمًا بالغًا لمرأى حالة السيدة الماركيزة، وأعتقد أنك ما كنت لتمزح فيما يتعلق بآلامها لو كنت تعلم أنها قد تموت موتًا تعيسًا لخطأ في نظامها الخاص. وإذا كنت أتكلم معك على هذا النحو فعلى أساس أن ثقتي من قدرتي على إنقاذ السيدة «ديجليمون» وعلى ردها إلى الحياة وإلى السعادة تبيح لي ذلك. ومن غير الطبيعي أن يصبح رجل في مثل رتبتي طبيبًا... وعلى الرغم من ذلك شاءت الصدفة أن أقوم بدراسة الطب. والواقع أنني غير مرتاح (قال هذا وهو يتكلف نوعًا من الأنانية الباردة التي تخدم أغراضه) لأن أرى نفسي غير مهتم ببذل وقتي ورحلاتي في سبيل مريض يتألم بدلًا من إرضاء بعض نزواتي الخيالية البلهاء. والشفاء من هذه الأنواع من المرض نادر لأنه يستلزم كثيرًا جدًا من العناية والوقت والصبر. ومن الضروري خصوصًا توافر المال والرحلات ومتابعة التعليمات التي تتغير من يوم إلى آخر والتي لا تتسم بالإكراه بدقة متناهية. ونحن الاثنان رجلان من علية القوم (قال ذلك وهو يضغط على هذه الكلمات بمعنى الجنتلمانية الإنجليزية) ونستطيع التفاهم. وأخطرك بأنك إذا قبلت هذا العرض فستكون في كل لحظة صاحب الحكم على سلوكي. ولن أشرع في شيء دون استشارتك وبغير ملاحظتك. وأؤكد

لك النجاح إذا وافقت على أن تطيعني. نعم.. أي إذا شئت أن تكف أثناء مدة طويلة عن أن تكون زوج السيدة «ديجليمون» (هكذا قال له في أذنه).

قال الماركيز ضاحكًا: «من المؤكد يا سيدي اللورد أن إنجليزيًّا هو الذي يستطيع أن يعرض عليَّ مثل هذا الاقتراح الغريب. واسمح لي بألا أرفضه وبألا أؤيده. سأفكر في الأمر. ثم إنه لا بد أن يعرض قبل كل شيء على زوجتي».

وفي تلك اللحظة ظهرت «جولي» مرة أخرى على البيانو. وغنت لحن «سميراميس» ومملكتها وحروبها(4). وكان التصفيق الإجماعي، أو التصفيق الأصم إن صح هذا التعبير، والهتافات المهذبة الخاصة بحي (سان جيرمان) دليلًا على الحماس الذي استثارته.

(4) من تأليف روسيني أيضًا، الذي اشتهر بالأوبرا ابتداء من سنة 1810.

وبمجرد عودة «ديجليمون» في صحبة زوجته إلى قصرهما استطاعت «جولي» أن تلحظ بشيء من السرور المتخوف سرعة نجاح محاولاتها. فكأنما استيقظ زوجها من سباته تحت تأثير الدور الذي لعبته منذ قليل، وأراد تبجيلها بإحدى النزوات، فتناولها بشغف ورغبة كما لو كان مع إحدى الممثلات. ولم تستنكر «جولي» معاملتها على ذلك النحو برغم كونها زوجة فاضلة. وبادرت إلى التلاعب

بكل قواها، وفي أول النزال دفعتها طيبتها إلى أن تخسر مرة أخرى غير أن تلك المرة كانت أشد الدروس التي تلقتها هولًا من بين كل ما امتلأ به مصيرها.

ففي الساعة الثانية أو الثالثة صباحًا كانت «جولي» في جلستها قائمة حالمة في سرير الزوجية، وقد أضاء الغرفة إضاءة خفيفة مصباح ذو وهج ضعيف، وساد صمت عميق، وأخذت الماركيزة منذ حوالي الساعة -وقد استسلمت لوخزات تبكيت الضمير- تذرف دموعًا لا تعرف مرارتها سوى النساء اللائي عشن في مثل موقفها. وكان ينبغي أن يكون للمرء روح كروح «جولي» كي يشعر مثلها بالاشمئزاز من التقارب والتلامس المحسوب بقدر، ولكي تجد نفسها مغمومة من جراء قبلة فاترة، فذاك جمود في القلب زادت وطأته بفعل غباء مؤلم. وشعرت بوضاعة نفسها، ولعنت الزواج، وودت لو أنها ماتت، ولولا صيحة بكاء طفلتها. حينذاك لكانت قد عجلت بإلقاء نفسها من الشباك إلى أرض الطريق. وكان السيد «ديجليمون» نائمًا بجوارها في هدوء دون أن توقظه الدموع الدافئة التي تركتها زوجته تتساقط عليه.

وظهرت «جولي» في اليوم التالي مبتهجة، وأعانتها قواها على أن تبدو سعيدة، وعلى أن تخفي، لا اكتئابها وحسب، بل إهانة واشمئزازًا لا يقاومان. فمنذ ذلك اليوم صارت تنظر إلى نفسها كامرأة لا لوم عليها ولا تثريب. ألم تكذب على نفسها؟ فكانت منذ ذلك الوقت قادرة على الرياء؟

وعلى أن تمعن فيما بعد إمعانًا مذهلًا في الذنوب الزوجية؟

لقد كان زواجها سبب هذه الدعارة «القَبْلية» أي «الفطرية» التي لم تلق ما تباشر نفسها فيه أو ما تحقق في أدائه وبرغم ذلك تساءلت سلفًا عن سبب مقاومتها لعاشق تحبه، حين كانت تهب نفسها لزوج بغيض، معارضة بذلك قلبها ودعاء الطبيعة. ولعل كل الأخطاء والجرائم إنما تقوم على مبدأ من الاستدلال السيئ أو من بعض مبالغات الأنانية. ولا تستطيع المجتمعات أن تقوم إلا على التضحيات الفردية التي تفرضها القوانين. ألا يعني قبول فوائدها الالتزام بالمحافظة على شروطها التي تدفع إلى دوامها؟

والواقع أن الأشقياء الذين لا يجدون الخبز والذين يضطرون إلى احترام الملكيات لا يستحقون الرثاء والعطف أكثر من النساء المجروحات في رغباتهن وميولهن وفي رهافة طبيعتهن.

وبعد ذلك المشهد بأيام.. ذلك المشهد الذي دفنت أسراره في سرير الزوجية.. قدم السيد «ديجليمون» لورد «جرينفيل» إلى زوجته، واستقبلت «جولي» «أرتير» في أدب خال من الحرارة بحيث أرضت رياءها، وفرضت الصمت على قلبها اكتفاء بعينيها، وجعلت صوتها ثابتًا، واستطاعت بذلك أن تظل سيدة مستقبلها. ثم بعد أن تعرفت السيدة «ديجليمون» بوسائلها الفطرية التي تتميز بها النساء عادة، إن صح هذا التعبير على مدى الحب الذي

أوحته، ابتسمت للأمل في شفاء سريع، ولم تعارض لمقاومة إرادة زوجها الذي اعتسف من أجل قبولها أن تصبح في رعاية الطبيب الشاب. وعلى الرغم من ذلك لم تشأ أن تطمئن إلى اللورد «جرنيفيل» إلا بعد أن درست أقواله وطرائقه كي تتأكد من أنه سيكون من الأريحية بحيث يعاني في صمت. وكان لها عليه أكبر سيطرة وبدأت سلفًا تستفيد من ذلك. أليست امرأة؟

و«مونكونتو» اسم قصر إقطاعي قديم قائم على إحدى الصخور الذهبية اللون التي يمر تحتها نهر «اللوار» على بعد قليل من الموقع الذي توقفت فيه «جولي» سنة 1814. إنه واحد من تلك القصور الصغيرة في مقاطعة «التورين» البيضاء الجميلة ذات الأبراج المليئة بالتماثيل والمطرزة كنسيج «الدنتيلا» من صنع «مالين» أو أحد هذه القصور اللطيفة الأنيقة التي اتخذت مكانها في مياه النهر بجملة غاباتها الصغيرة من شجر التوت ومن الكروم وطرقها المحفورة ودرابزيناتها الطويلة البارزة وكهوفها الصخرية وأغطيتها من اللبلاب ومنحدراتها الوعرة. وكانت أسقف سطوح قصر «مونكونتو» تتلألأ تحت أشعة الشمس كما كان كل شيء هنالك مضطرمًا. ويثير ملامح الشاعرية في تلك المزرعة الساحرة ما يقرب من ألف أثر من آثار إسبانيا وبقاياها: أشجار «الوزال» الذهبية والزهور «ذات الجريس» التي تملأ برائحتها النسيم، والهواء رقيق الملامسة، كما أن الأرض تبتسم في كل مكان، وتحيط بالروح في كل مكان

أيضًا رقًى سحرية حلوة، فتجعلها كسولًا عاشقة وترخيها وتهدهدها. ومن طبيعة هذا الإقليم الجميل الحلو أن ينيم الأوجاع ويوقظ الشهوات، فلا يبقى أحد باردًا تحت هذه السماء النقية وأمام هذه المياه البراقة. وهنالك يختنق كل طموح، ويرقد المرء وسط سعادة هادئة تمامًا، كما تغرب الشمس كل مساء في أقمطة ولفائف أرجوانية وزرقاء.

في ليلة رقيقة من ليالي شهر أغسطس سنة 1821 كان شخصان يتسلقان الطرق المملوءة بالأحجار التي تمرق في الصخور المقام فوقها القصر. وكان الشخصان يتجهان نحو المرتفعات كي يتأملا بإعجاب بلا شك مناحي النظر العديدة التي يمكن اكتشافها هنالك. وكان هذان الشخصان هما «جولي» ولورد «جرينفيل» ولكن «جولي» هذه قد صارت تبدو كما لو كانت امرأة جديدة، وكانت الماركيزة تتمتع بألوان الصحة الزاهية، وكانت عيناها اللتان أحيتهما قوة خصبة تلمعان خلال ضباب رطب أشبه بالسائل الذي يعطي عيون الأطفال مفاتن لا تقاوم؛ وكانت تبتسم بملء شفتيها، وبدت سعيدة بالحياة، وقد أدركت كنهها وكان من السهل أن يرى المرء من طريقتها في رفع قدميها الظريفين أنه لا يثقل حركاتها البسيطة، ولا يضني نظراتها أو أقوالها أو إشاراتها أي ألم على نحو ما كان في الماضي. بل كانت «جولي» هذه تشبه تحت مظلتها الحريرية البيضاء التي حمتها من أشعة الشمس الحامية عروسًا في غلالتها أو عذراء مستعدة إلى الاستسلام

لنشوات الحب.

واستطاع «أرتير» أن يقودها بعناية العاشق، وأن يرشدها كما نرشد الطفل، فيوجهها نحو أفضل الطرق، ويساعدها على تفادي الأحجار، ثم يريها منظرًا بين تلال، أو يصحبها أمام زهرة. وهو إذ يفعل ذلك، يحركه دائمًا شعور مستمر بالطيبة، وقصد رقيق، ومعرفة حنون بعيش تلك المرأة الرغيد، كأنها مشاعر فطرية عنده تناسب، وقد تزيد قليلًا، على حركة وجوده الخاص الضروري. ومضت المريضة وطبيبها متعادلى الخطوات، دون أن يستغربا توافقًا بدا كما لو كان قد وجد منذ أول يوم صارا يمشيان فيه جنبًا إلى جنب. فهما يطيعان نفس الإرادة، ويتوقفان بانطباعات عين الإحساسات، وتجاوبت نظراتهما وأقوالهما مع أفكارهما المتبادلة.

وعندما بلغا كلاهما أعلى الكرمة أرادا أن يستريحا على أحد هذه الأحجار الطويلة البيضاء التي تبرز باستمرار من كهوف مفتوحة في الصخر، غير أن «جولي» نظرت إلى الموقع تتأمله قبل أن تجلس هنالك.

قالت «جولي»: هذا الإقليم رائع فلننصب خيمة ولنقم ها هنا. يا «فيكتور» هلم إذن. هلم إذن!

وأجاب السيد «ديجليمون» من المنخفض بصيحة رجال الصيد دون أن يسرع الخطو، ولكنه اكتفى بالنظر نحو زوجته من وقت لآخر كلما سمحت له بذلك انعطافات

الطريق الضيق. واستنشقت «جولي» الهواء بلذة في أثناء رفع رأسها، وهي تلقي إلى «أرتير» بإحدى نظراتها الدقيقة التي تقول بها النساء الذكيات كل أفكارهن.

عادت «جولي» تتكلم: أوه! كم أود أن أبقى هنا دائمًا. هل يمكن أن يتعب المرء من تأمل هذا الوادي الجميل؟ هل تعرف اسم هذاا لنهر الجميل يا سيدي اللورد؟

- هذا نهر «الشير».

- نهر «الشير» وهنالك أمامنا... ما ذاك.

- تلك تلال نهر «الشير».

- وإلى اليمين؟ آه! هذه مدينة «تور». ما أروع ذلك الأثر الذي تحدثه عن بعد أبراج أجراس الكاتدرائيات.

ثم صمتت وتركت يدها التي كانت قد مدتها نحو المدينة تهبط فوق يد «أرتير» وتأمل كلاهما بإعجاب صامت ذلك المنظر وتلك الطبيعة ذات الروائع المنسجمة. وتم التوافق بين همس المياه ونقاوة الهواء وصفاء السماء، وبين الأفكار التي خطرت مزدحمة في قلبيهما العاشقين الشابين.

- أوه! يا إلهي. كم ذا أحب هذه الإقليم.

قالت «جولي» بعد برهة صمت، وفي حماس ساذج متزايد «هل عشت فيه طويلًا؟».

ارتعد لورد «جرينفيل» عند سماع هذه الكلمات وأجاب باكتئاب وهو يشير إلى حزمة من أشجار الجوز، على حافة

الطريق: «هنالك كنت أسيرًا ورأيتك لأول مرة...».

- نعم، ولكنني كنت حزينة جدًّا وبدت لي هذه الطبيعة وحشية، أما الآن...

وسكتت فلم يجرؤ لورد «جرينفيل» على أن ينظر إليها.

قالت «جولي» في النهاية بعد صمت طويل: «يرجع إليك الفضل في هذا الاستمتاع. أليس من الضروري أن يكون المرء حيًّا كي يجد كل هذه المتع في الحياة، أو لم أكن سوى ميتة بالنسبة إلى كل شيء حتى الآن؟ لقد وهبتني أكثر من الصحة إذ علمتني كيف أشعر بقيمتها...

وللنساء مواهب لا مثيل لها في تعبيرهن عن مشاعرهن دون استخدام أقوال كثيرة عالية الرنين، فبلاغتهن تسري في اللهجة خصوصًا وفي الحركة والوضع والنظرات، وأخفى اللورد «جرينفيل» رأسه بين يديه لأن الدموع تدحرجت في عينيه. وكان هذا الشكر أول شكر تؤديه «جولي» له منذ ارتحالها عن « باريس» وقد عالج الماركيزة منذ سنة كاملة بإخلاص وتفان كاملين، أيده «ديجليمون» فصحبها إلى مياه «إكس» ثم إلى شواطئ البحر من ناحية «الروشيل» وظل يترقب في كل لحظة التغيرات التي أحدثتها أوامره الحصيفة البسيطة في بناء «جولي» البدني المتهدم، كما ظل يتعهدها كما يتعهد البستاني المشغوف زهرة نادرة. وعمدت الماركيزة. إلى تلقي عناية «أرتير» الواعية بكل أنانية المرأة الباريسية التي اعتادت التكريم والاحترام.. أو تلقتها بلا

مبالاة مثل لا مبالاة سيدة البلاط التي لا تعرف قدر الأشياء أو قيم الرجال، وتأخذهم وفقًا لدرجة الفائدة العائدة عليها منهم. ومن الأشياء الجديرة بالملاحظة التأثير الذي تحدثه الأماكن في الروح. وإذا كان الاكتئاب يتملكنا دون أن يخطئ الهدف عندما نكون على شواطئ البحار، فإن قانونًا آخر من قوانين طبيعتنا الانطباعية يؤدي إلى تنقية عواطفنا فوق الجبال. ذلك أن الشهوة تستولي هنالك استيلاء عميقًا على ما تبدو كأنما تفقده من حيث النشاط.

وأشاع مشهد حوض «اللوار» الفسيح وارتفاع التل البديع الذي كان العاشقان يجلسان فوقه في نفسيهما هدوءًا لذيذًا ذاقا خلاله أول الأمر تلك السعادة التي يحسها العشاق في تخمين أبعاد العواطف القوية التي تختفي وراء أقوال ليس في مظهرها دلالة خاصة.

وما إن ختمت «جولي» عبارتها التي حركت انفعالات لورد «جرينفيل» تحريكًا قويًا حتى هزت نسمة محلقة قمة الأشجار، وأشاعت نضارة المياه في الهواء، وحجبت بعض السحب الشمس، وأتاحت بعض الظلال اللينة رؤية كل روائع تلك الطبيعة البديعة. وأدارت «جولي» رأسها كي تخفي عن اللورد الشاب منظر الدموع التي نجحت في حبسها وتجفيفها، لأن حنوّ «أرتير» تملكها بسرعة خاطفة، ولم تجرؤ على أن ترفع عينيها نحوه خوفًا من أن يقرأ فرحة كبيرة في نظرتها. وأشعرتها غريزتها كامرأة بأنه

من الضروري في تلك اللحظة الخطرة أن تدفن حبها في قاع قلبها. وبرغم ذلك يستطيع الصمت أيضًا أن يكون رهيبًا.

وعندما تنبهت «جولي» إلى أن اللورد «جرينفيل» كان في حالة لا تسمح له بنطق قول واحد عاودت كلامها بصوت عذب قائلة:

«لقد تأثرتَ بما قلته لك يا سيدي اللورد. ولعل إظهار أسرار القلب فيما يشبه الصياح هو الطريقة التي تتخذها روح لطيفة وطيبة مثل روحك عندما تتراجع عن حكم خاطئ. لقد اعتقدت أنني جاحدة للجميل عندما رأيتني باردة متحفظة أو ساخرة وفاترة الحس في أثناء هذه الرحلة التي سرعان ما سوف تنتهي لحسن الحظ. وما كنت جديرة بتقبل عنايتك لو لم أكن قادرة على تقديرها. إنني لم أنس شيئًا يا سيدي اللورد. وا أسفاه! ولن أنسى شيئًا...لا الاهتمام الذي بذلته في السهر علي كاهتمام أم رءوم بابنها، ولا الثقة النبيلة على الخصوص في محادثاتنا الأخوية ورقة إجراءاتك. وكلها إغراءات نجد أنفسنا جميعًا أمامها بلا أسلحة. يا سيدي اللورد إنه أكبر من طاقتي أن أكافئك...»».

وعند قولها ذاك ابتعدت «جولي» بقوة، ولم يقم لورد «جرينفيل» بأي حركة لوقفها. واتجهت الماركيزة نحو صخرة على بعد بسيط، وبقيت هنالك ساكنة. وكانت انفعالاتهما سرًا بينهما، ولا شك أنهما كانا يبكيان صامتين. ولعل زقزقة العصافير المرحة المتزايدة المعبرة تعبيرًا رقيقًا

عن غروب الشمس كانت سبباً في زيادة تأثرهما الشديد العنيف الذي أرغمهما على التباعد. وأخذت الطبيعة على عاتقها أن تعبر لهما عن الحب الذي لم يجرؤا على الكلام عنه.

قالت «جولي» مرة أخرى وهي تقف أمامه في وضع مليء بالاحترام سمح لها بأن تمسك يد «أرتير»: هيه، حسن يا سيدي اللورد.. سوف أطلب منك أن تجعل الحياة التي أعدتها إليّ نقية طاهرة. وهنا سوف نفترق. أنا أعرف...

ثم قالت وهي ترى وجه لورد «جرينفيل» يصفرّ: إنه مكافأة لك على تضحيتك سأفرض عليك أيضًا تضحية أكبر من تلك التي كان عليّ أن أعترف بها أكثر من سواها... ولكن يجب... لن تبقى في فرنسا. أليس في طلب هذا منك إعطاؤك من الحقوق ما سوف يصبح مقدسًا؟ ثم وضعت يد الرجل الشاب فوق قلبها السريع الضربات.

قال «أرتير» وهو ينهض من مكانه: «فعلًا».

وأشار في تلك اللحظة إلى «ديجليمون» الذي كان يمسك بابنته بين ذراعيه، وقد ظهر من الناحية الأخرى من الطريق المحفور المجاور لدرابزين القصر، وكان قد تسلقه خصيصًا ليجعل ابنته الصغيرة «هيلين» تقفز من فوقه.

- «جولي» لن أحدثك عن حبي، فروحانا تفهم إحداهما الأخرى أكثر مما يلزم. وأيًا تكن أعماق أو أسرار لذائذ

قلبي ومتعه فقد شاركني فيها جميعًا. إنني أحس هذا الحب وأعرفه وأراه. والآن أتسلم الدليل الجميل المذاق على تعاطف قلبينا تعاطفًا دائمًا، ولكنني أولي الأدبار.. لقد حسبت عدة مرات ببراعة وسائل قتل ذلك الرجل كيما أستطيع أن أقاوم قتله دائمًا إذا بقيت إلى جوارك.

- لقد خطرت في ذهني عين الفكرة. قالت ذلك وعلى وجهها المضطرب تبدو علامات الدهشة الأليمة.

ولكنها كانت ذات فضيلة جمة، ويقين شديد بنفسها، وانتصارات عديدة أحرزتها على الحب سرًّا في اللهجة والحركة اللتين بدرتا منها، حتى ظل لورد «جرينفيل» مأخوذًا بالإعجاب، فقد كان ظل الجريمة نفسه قد تلاشى في ذلك الضمير الساذج، وسيطرت عاطفة دينية على ذلك الجبين الرائع الحسن، فاستطاعت أن تطرد منها دائمًا الأفكار الخبيثة غير الإرادية التي تولّدها عادة طبيعتنا القاصرة، وتدل برغم ذلك على عظمة مصيرنا وأخطاره.

- وعندئذ كنت سأتعرض لاحتقارك، ولكنه صار منقذي.

وعاد يقول وهو يخفض عينيه: «أليس فقدان تقديرك هو الموت بعينه؟».

وظل هذان العاشقان البطوليان صامتين بعض الوقت أيضًا وبقيا مشغولين بالتهام أوجاعهما الحسنة والسيئة على السواء، وكانت أفكارهما بإخلاص عين الأفكار عند كل

منهما، ولعلهما كانا يتفاهمان في متعهما الذاتية تمامًا على نحو ما يتفاهمان في أكثر آلامهما خفاء.

قالت وهي ترفع عينيها المليئتين بالدموع نحو السماء: «لا ينبغي أن أهمس. وشقائي في حياتي هو بعض ما يخصني».

صاح اللواء من مكانه وهو يقوم ببعض الحركات: يا سيدي اللورد؛ لقد التقينا في هذا المكان نفسه لأول مرة، وقد لا تذكر أنت ذلك. هناك في المنحدر بالقرب من أشجار الجوز «تلك».

وأجاب الإنجليزي بإمالة مفاجئة من رأسه.

وقالت «جولي» لقد كان ينبغي لي أن أموت شابة شقية. نعم؛ إذ يجب ألا تعتقد أنني أعيش، وسوف يكون الحزن مميتاً بنفس درجة المرض اللعين الذي شفيتني منه. ولا أرى نفسي مذنبة. لا.. فالعواطف التي حملتها لك لا تقاوم ولا تفنى، ولكنها غير إرادية بالمرة، وأود البقاء عفيفة. وبرغم ذلك سأظل مخلصة لضميري كزوجة، ولواجباتي كأم، وكذلك لأمنيات قلبي. أصغ إليّ.

وقالت «جولي» ذلك له بصوت مضطرب: «لن أعود أنتمي إلى ذلك الرجل بحال» وأشارت إلى زوجها في حركة مخيفة من الفزع الممزوج بالصدق، واستمرت تقول:

- تفرض علي قوانين المجتمع أن أجعل وجوده سعيدًا وسوف أطيع ذلك. سأكون خادمته، وستكون تضحيتي من أجله غير محدودة بحدود. غير أني سأكون أرملة منذ

اليوم. ولا أريد أن أكون عاهرة في نظر نفسي أو في نظر المجتمع. وإذا لم أعد أنتمي إلى السيد «ديجليمون» فلن أنتمي أبدًا إلى سواه. ولن تحظى أنت بأكثر مما انتزعته مني. وهذا قرار اتخذته على نفسي. قالت ذلك وهي تنظر إلى «أرتير» في خيلاء، واستطردت: وهو قرار لا رجعة فيه يا سيدي اللورد. والآن أعلم أنك إذا استسلمت لفكرة إجرامية فسوف تدخل أرملة السيد «ديجليمون» الدير في إيطاليا أو في إسبانيا. لقد شاء سوء الحظ أن نتحدث عن غرامنا. ولعل هذه الاعتراضات كانت في حكم المقدور. ولما كان ذلك لآخر مرة فقد اهتزت قلوبنا اهتزازًا شديدًا. لسوف نتظاهر غدًا بتلقي رسالة تستدعيك إلى إنجلترا وسنفترق على ألا نلتقي.

وبرغم ذلك فقد أحست «جولي» -بعد أن أرهقها المجهود- بركبتيها تنثنيان.. وتملكها برد قاتل وجلست بدافع من فكرة نسائية بحتة كيما تتفادى الارتماء في أحضان «أرتير».

صاح لورد «جرينفيل»: «جولي».

ودوّت هذه الصيحة النافذة كانفجار الرعد. وباحت تلك الصرخة الممزقة بكل ما لم يقله العاشق الذي ظل صامتًا حتى آنئذٍ.

سأل اللواء: «هيه.. إذن... ماذا بها؟».

وعند سماع هذه الصرخة أسرع الماركيز الخطو، ووجد

نفسه فجأة أمام العاشقين.

قالت «جولي»: وهي محتفظة بالدم البارد على نحو رائع مما تسمح نعومة النساء الطبيعية لهن به في أغلب أوقات الأزمات العصيبة في الحياة: «لا شيء في الأمر.. لقد كادت نضارة شجرة الجوز هذه تفقدني الوعي مما أرعب طبيبي المعالج خوفًا. ألست بالنسبة إليه مثل العمل الفني الذي لم يكتمل بعد؟ لقد ارتعد أمام رؤيته يتهدم..».

واستندت في جرأة إلى ذراع لورد «جرينفيل» وابتسمت إلى زوجها ونظرت إلى المنظر قبل أن تغادر قمة الصخور وجذبت رفيق رحلتها وهي تأخذ بيده.

قالت «جولي»: هاك بالتأكيد أجمل موقع رأيناه. ولن أنساه إطلاقًا. انظر إذن يا «فيكتور» أي أبعاد مترامية، وأي مساحات شاسعة، وأي تنوع واختلاف. هذا الإقليم يجعلني أفهم الحب.

وصدرت منها ضحكة تكاد تكون مختلجة، ولكنها استوفت أداءها حتى تخدع زوجها، وقفزت تعدو بمرح في الطرق المحفورة واختفت.

قالت وقد ابتعدت عن السيد «ديجليمون»: «هيه.. ماذا؟.. الآن؟ هيه.. ماذا يا صديقي؟ بعد لحظة لا نكون نحن أنفسنا ولن نصبح أنفسنا إطلاقًا. أي أننا لن نعيش بعد اليوم..».

أجاب لورد «جرينفيل»: «هيا ببطء فالعربات لا تزال

على مبعدة من هنا. سوف نمشي معًا. وإذا كان مباحًا لنا أن نبث نظراتنا بعض أقوالنا فسوف تحيا قلوبنا لحظة أطول...».

وذهبا يتنزهان فوق السد على حافة الماء في آخر النهار صامتين تقريبًا لا ينطقان إلا بعبارات مبهمة حلوة كهمس مياه نهر «اللوار» ولكنها تحرك النفوس. وعندما غابت الشمس لفتها جميعًا في انعكاساتها الحمراء قبل أن تزول كصورة أسيانة لحبهما المقدور.

وتخوف اللواء من عدم العثور على العربة في المكان الذي كانت واقفة فيه، فتبع العاشقين أو سبقهما دون أن يتدخل في محادثتهما. وقد حطم سلوك اللورد «جرينفيل» النبيل الرقيق الذي احتفظ به خلال الرحلة كل وساوس الماركيز وشكوكه فترك زوجته حرة منذ بعض الوقت واثقًا من حسن النية لدى الطبيب اللورد. ومضت «جولي» و«أرتير» وجعلا يمشيان في ظل الاتفاق الحزين المؤلم بين قلبيهما الذابلين. ومنذ هنيهة حين كانا يصعدان خلال المنحدر الوعر لقصر «مونكونتور» كان لديهما أمل غامض مبهم وسعادة مشفقة ولم يكونا يجرؤان على الاستفسار عن مؤداها. أما وقد عادا يهبطان على طول السد فقد قلبا البناء الواهي الذي شيده خيالهما، ولم يعودا يجرؤان على إظهاره مثل الأطفال الذين يتوقعون سلفًا سقوط القصور التي يقيمونها من الورق المقوى. كانا بغير أمل. وفي نفس الليلة رحل لورد «جرينفيل». وأثبتت آخر نظرة ألقى بها نحو

«جولي» لسوء الحظ أنه كان على حق في التحرر من نفسه منذ اللحظة التي بدأ التعاطف يكشف لهما مدى العشق الجارف الذي كان يكمن في قلبيهما.

وحينما جلس السيد «ديجليمون» وزوجته في اليوم التالي في داخل العربة بغير رفيق رحلتهما، وأخذا يشقان الطريق في سرعة، تذكرت «جولي» الرحلة التي قطعتها مع الماركيز سنة 1814، عندما كانت لا تزال تجهل الحب، وكادت تلعن استمراره حينذاك في فؤادها ثم تدافعت آلاف الانطباعات المنسية. فالقلب له ذاكرته الخاصة به. ومثل تلك المرأة التي لا تقوى على تذكر الأحداث الجسام سوف تتذكر طول حياتها أشياء تهم عواطفها. كذلك كانت «جولي» تتذكر التفصيلات التافهة تذكرًا كاملًا، وتعرفت بسعادة على أبسط الأحداث التي اعترضت رحلتها الأولى إلى حد تذكرها بعض الأفكار التي خطرت على بالها عند مواقع معينة في الطريق.

ولما كان «فيكتور» قد عاد يعشق زوجته بشغف منذ استردت نضارة شبابها وكل جمالها، فقد جاء يدنو منها على طريقة المحبين. وبمجرد سعيه لأخذها بين ذراعيه انسحبت برقة وتعللت بأي عذر لكي تتحاشى تلك الملامسة البريئة. ثم سرعان ما اشمأزت من الاحتكاك به برغم أنها كانت تحس بحرارته وتشارك فيها بحكم الطريقة التي جلسا بها. وأرادت أن تجلس بمفردها في مقدم العربة فأبدى زوجها كرمًا وتركها وحدها في أقصى العربة، وشكرته لهذا

الالتفات في تنهد لم يرعه انتباهًا. وفي آخر النهار اضطرها «فاتن» الحرس العسكري ذاك إلى أن تتحدث معه بثبات أرهبه بعد أن كان قد راح يفسر اكتئابها في مصلحته.

وقالت له: «يا صديقي، لقد كدت أن تقتلني سلفًا، وأنت تعرف ذلك. وإذا كنت الآن فتاة شابة بلا تجربة ففي استطاعتي أن أبدأ من جديد التضحية بحياتي. ولكنني أم الآن، ولدي ابنة يجب أن أربيها وأدين لها بقدر ما أدين لك. فلنخضع لسوء حظ أصابنا معًا بالتساوي. وأنت صاحب النصيب الأقل من الرثاء لك. ألم تعرف كيف تجد عزاءك وتسليتك، في حين أن واجبي، وشرفنا المشترك، والطبيعة فوق ذلك كله تحرّمه عليّ». ثم أضافت: «وعلى فكرة لقد نسيت بطيش منك ثلاث رسائل من السيدة «ديسير يزي» في الدرج. ها هي ذى. وإذا كان صمتي يثبت لك شيئًا فهو دليل على أن لك في شخصي زوجة مليئة بالتسامح ولا تفرض عليك التضحيات التي يفرضها القانون عليها. غير أنني فكرت بما فيه الكفاية حتى تحققت من أن دورينا مختلفان، وأن المرأة وحدها مقسوم عليها بالشقاء. وتقوم عفتي على مبادئ محددة وثابتة. وسأعرف كيف أعيش بغير انتقاد، فلا أقل من أن تدعني أعيش».

حار الماركيز من المنطق الذي تعرف النساء دراسته فيما يتعلق بوضوح الحب وقد قمعته تلك الكرامة التي تبدو طبيعية لديهن في مثل هذه الأنواع من الأزمات.

ومن أجمل الأشياء عند النساء ذلك النفور الغريزي الذي أظهرته «جولي» نحو كل ما أساء إلى حبها أو إلى أمنيات قلبها والذي قد ينشأ عادة من فضيلة طبيعية لم تسكتها القوانين أو المدنية.

ولكن من ذا يجرؤ على تأنيب النساء؟ ألسن يشبهن القساوسة بغير عقيدة حين يفرضن الصمت على العاطفة الهائلة التي لا تسمح لهن بالانتماء إلى رجلين؟ إذ كانت بعض النفوس القاسية تعاتب ذلك النوع من «الاتفاق» أو العهد الذي أخذته «جولي» على نفسها بين واجباتها وحبها فقد ترى فيه الأرواح العاطفية الولهى جريمة. إذ أن الإنكار العام يتهم الشقاء الذي ينتظر عدم الطاعة للقوانين، كما يتهم العيوب المؤسفة في الأنظمة التي تقوم عليها المجتمعات الأوربية.

ومضى عامان عاش فيها السيد والسيدة «ديجليمون» حياة أهل المجتمع فيخرج كل منهما منفردًا ويلتقيان في الصالونات أغلب ما يلتقيان لا في البيت. وذلك هو نوع الطلاق الرشيق الذي ينتهي إليه الكثير من زيجات المجتمع العالي. وفي إحدى السهرات التقى الزوج وزوجته في صالون بيتهما على غير العادة. إذ كانت السيدة «ديجليمون» قد دعت إحدى صديقاتها إلى العشاء. وبقي اللواء في بيته في تلك الليلة برغم عشائه الدائم في الخارج.

- سيدتي الماركيزة سوف تكونين سعيدة.

قال السيد «ديجليمون» ذلك وهو يضع فنجان القهوة الذي شربه قبل قليل فوق المائدة. ونظر الماركيز إلى السيدة «ديويمفين» معبرًا عن الخبث والحزن بقدر متساوٍ ثم أضاف:

- «سوف أرحل في رحلة صيد طويلة في صحبة قائد الصيد بالكلاب. وستعيشين أرملة تمامًا على الأقل أثناء ثمانية أيام، وهذا هو ما تمنينه فيما أعتقد...»».

ثم قال للخادم الذي جاء يحمل الفناجين: «يا جييوم»، هيا علّق الحيوانات بالعربات.

أما السيدة «ديويمفين» فهي «لويزا» التي أرادت السيدة «ديجليمون» قديمًا أن تنصحها بالعزوبة. وتبادلت المرأتان نظرة واعية أثبتت أن «جولي» قد وجدت في صديقتها الشخص الذي تثق به وتسر إليه بكل أدوائها. وهي موضع ثقة ثمين عطوف، لأن السيدة «ديويمفين» كانت سعيدة جدًّا في زواجها. ولعل حظ إحداهما السعيد في مثل هذا الموقف المتعارض الذي كانتا فيه، صار مصدر ضمان لتضحيتها بالنسبة إلى تعاسة الأخرى. ففي مثل هذه الحالة يكون عدم التشابه في المصاير في الغالب رابطة قوية من روابط الصداقة.

قالت «جولي» وهي تلقي نظرة غيرة عابثة إلى زوجها: «وهل هذا هو فصل الصيد؟»».

كان ذلك في أواخر شهر مارس...

- سيدتي إن قائد الصيد بالكلاب يصطاد في أي زمان وأي مكان يريد. ولسوف نذهب إلى الغابة الملكية نصيد الخنازير الوحشية.

- احتط لنفسك حتى لا يصيبك شيء ما..

قال وهو يبتسم: إن سوء الطالع غير متوقع دائمًا.

قال «جييوم»: «عربة السيد جاهزة».

فنهض اللواء، وقبل يد السيدة «ديويمفين» ثم استدار نحو «جولي» وقال في حالة استعطاف:

- سيدتي إذا ضعت ضحية خنزير وحشي!

سألت السيدة «ديويمفين»: ماذا يعني ذلك؟.

قالت السيدة «ديجليمون» «لفيكتور»: هيا تعال. ثم ابتسمت كما لو كانت تقول «لويزا» سوف ترين.

ومدت «جولي» رقبتها نحو زوجها الذي تقدم لتقبيلها. ولكن لم تلبث أن تحركت فانزلقت القبلة الزوجية فوق شريط زينة الحرملة.

قال الماركيز وهو يوجه كلامه إلى السيدة «ديويمفين»: سوف تشهدين على ذلك أمام الله إذ يلزمني فرمان من أجل الحصول على هذا الإنعام الطفيف. وهذا هو مما تعنيه زوجتي بالحب. لقد ساقتني إلى ذاك بحيلة لا أدريها. تمنياتي السعيدة.

وخرج.

صاحت «لويزا» عندما صارت المرأتان على انفراد: «ولكن زوجك المسكين طيب حقيقة.. إنه يحبك».

- أوه. لا تضيفي إلى كلمة الحب من الأوصاف ما يحيله إلى معنى آخر. فأسمى ما يشعر به يدفعني إلى الاشمئزاز.

قالت «لويزا»: نعم ولكن «فيكتور» يطيعك طاعة عمياء.

قالت «جولي»: مرجع طاعته في الغالب إلى الإعزاز الكبير الذي أوحيت به إليه. ذلك أني امرأة فاضلة جدًّا حسب القوانين، وأجعل بيته محببًا، وأغمض عيني عن دسائسه، ولا أنقص شيئًا من ثروته، فهو يستطيع أن يبعثر دخوله كما يشاء، وأنا أعنى فقط بالمحافظة على رأس المال. وهذا هو ثمن الهدوء وراحة البال. وهو لا يشرح لنفسه أو لا يريد أن يشرح لنفسه وجودي. ولكنني إذا كنت أمضي مع زوجي على هذا النحو فلا يخلو ذلك من آثار تهيج طباعه. فأنا أشبه مروّض الدب الذي يرتعد من أن تحطم الكمامة يومًا من الأيام. وإذا كان «فيكتور» يعتقد أن له الحق في ألا يشعر بالإعزاز نحوي فلا أكاد أجرؤ على التنبؤ بما يمكن أن يحدث. إذ أنه عنيف مليء بحب الذات وبالغرور على الأخص، ولو لم يكن ذا فكر دقيق بما فيه الكفاية، كي يقف موقفًا حكيمًا في ظروف حرجة، عندما تتعرض رغباته السيئة للعبث، لعمد إلى قتلي مؤقتًا، لأنه ضعيف الطباع، ولو مات هو نفسه حزنًا في اليوم

التالي. ولكن هذا الحظ المقدور لا خوف منه.

وسادت لحظة صمت انتقل فيها فكر الصديقتين إلى السبب المجهول لهذا الموقف. ثم استطردت «جولي» وهي تلقي نظرة حزم نحو «لويزا» «لقد أطعت في قسوة. ولكنني برغم ذلك لم أمنعه «هو» من أن يراسلني. آه! لقد نسيني «هو» وله في ذلك حق. لقد كان مصيره سيتحطم بأشأم الأحداث! أليس يكفي ما حدث بمصيري؟ هل تصدقين يا عزيزتي أنني أطالع الصحف الإنجليزية يوميًّا على أمل وحيد هو أن أقع على اسمه مطبوعًا. هيه! أليس غريبًا ألا يكون اسمه قد ظهر بعد في مجلس اللوردات.

- أنت تعرفين الإنجليزية إذن؟

- لم أكن قد بحث لك بذلك! لقد تعلمتها.

صاحت «لويزا» وهي تمسك بيد «جولي»: مسكينتي الصغيرة.. ولكن كيف تستطعين أن تظلي على قيد الحياة؟.

أجابت الماركيزة وقد أفلتت منها حركة ساذجة تكاد تبلغ حد الطفولة: هذا سر فأصغ إلي. إنني أتناول الأفيون. قصة حياة الدوقة «دي..» في لندن أعطتني الفكرة. وأنت تعرفين أن «ماتيران» قد ألف عنها رواية طويلة. ولكن قطرات «لودانوم» أي «صبغة الأفيون» ضعيفة جدًّا، إذ أنني أنام وحسب، ولا أظل مستيقظة سوى سبع ساعات أهبها كلها لابنتي..».

وتأملت «لويزا» نار المدفأة دون أن تجرؤ على أن تنظر إلى صديقتها التي كان شقاؤها يتزايد في عينيها لأول مرة.

وقالت «جولي» عقب لحظة صامتة: «لويزا» احفظي لي سري.

وفجأة أحضر خادم خطابًا إلى الماركيزة.

صاحت «جولي» مصفرة الوجه: «آه»!

قالت السيدة «ديويمفين»: لن أستفسر عن المرسل. وراحت الماركيزة تقرأ ولم تعد تسمع شيئًا. وشهدت صاحبتها أشد المشاعر حيوية وأكثر التبجيل خطرًا، وهي ترتسم صاحبتها أشد المشاعر حيوية وأكثر التبجيل خطرًا، وهي ترتسم كلها على وجه السيدة «ديجليمون» التي كانت تحمر وتصفر دورًا بعد دور. وأخيرًا ألقت «جولي» بالورق إلى النار».

- هذا الخطاب مثير. أوه؟ قلبي يخنقني.

ونهضت وأخذت تمشي وعيناها تومضان.

صاحت «جولي»: إنه لم يغادر باريس.

وكان حديثها مرتجًا بلا نسق بحيث لم تجرؤ السيدة «ديويمفين» على أن تقاطعها، بل مكث حديثها متقطعًا تتخلله فترات صمت مخيفة. وكانت العبارات تصدر خلال كل توقف عن فمها بلهجة أكثر فأكثر عمقًا. كما أن الألفاظ الأخيرة كانت تتسم بطابع مفزع.

- إنه لم يكف عن رؤيتي دون علمي. نظرة من نظراتي الحائرة كل يوم تعينه على الحياة. أنت لا تعرفين يا «لويزا» إنه يموت ويطلب أن يودعني، ويعرف أن زوجي قد تغيب عن البيت هذه الليلة لعدة أيام، وسيأتي بعد لحظة. أوه! لسوف أضيع بسبب ذلك لقد ضعت أبقي معي. أمام امرأتين لم يجرؤ! أوه! امكثي فأنا أخشى نفسي.

أجابت السيدة «ديويمفين»: «ولكن زوجي يعلم أنني تناولت العشاء في بيتك، ولا بد أن يحضر ليصحبني».

- إذن سأكون قد صرفته قبل رحيلك؟ سوف أكون الجلاد بالنسبة إلينا نحن الاثنين، وا أسفاه سوف يعتقد أنني لم أعد أحبه. هذه الرسالة! عزيزتي.. لقد احتوت تلك الرسالة على عبارات أراها الآن مكتوبة في خطوط من نار.

وخطرت عربة أمام الباب.

صاحت الماركيزة في نوع من البهجة: آه! لقد جاء علنًا وبغير خفاء.

- صاح الخادم: لورد «جرينفيل».

بقيت الماركيزة واقفة ساكنة. وبمجرد رؤيتها «أرتير» أصفر اللون نحيفًا شاحبًا لم تعد القسوة ممكنة حياله. وبرغم أن لورد «جرينفيل» قد أحس باستياء عنيف لرؤية «جولي» في غير انفراد ظهر هادئًا باردًا. أما بالنسبة إلى هاتين المرأتين الملمتين بأسرار حبه فقد كانت

هيئته ورنة صوته وتعبير نظراته في مثل القوة التي تُعزى إلى آلات الانفجار الحربي. وبقيت الماركيزة والسيدة «ديوبمفين» كمخبولتين تحت تأثير الشعور المتبادل الصارخ بالألم المروع. وكانت رنة صوت لورد «جرينفيل» تدفع السيدة «ديجليمون» إلى الاختلاج القاسي، حتى إنها لم تجرؤ على أن تجيبه خوفًا من أن تكشف له عن مدى تأثيره وسيطرته عليها. ولم يجرؤ لورد «جرينفيل» على تأمل «جولي» بحيث أخذت السيدة «ديوبمفين» على عاتقها وحدها مهمة المحادثة الخالية من أية أهمية. وشكرتها «جولي» على نجدتها لها بأن بعثت إليها بنظرة مطبوعة بالاعتراف المؤثر بالجميل.

وعلى ذلك فرض العاشقان الصمت على مشاعرهما، وكان لازمًا أن يستمسكا في داخل الحدود التي تعينها الواجبات واللياقات. ولكن سرعان ما أعلن حضور السيد «ديوبمفين». وعند دخوله تبادلت الصديقتان نظرة، وفهمتا دون كلام صعوبات الموقف الجديدة. وقد كان من المستحيل إطلاع السيد «ديوبمفين» على سر هذه المأساة، ولم يكن لدى «لويزا» مبررات ذات قيمة كي تقدمها إلى زوجها لو طلبت إليه البقاء مع صديقتها. ولم تكد السيدة «ديوبمفين» تلبس الشال حتى نهضت «جولي» كأنها تساعدها على ربطه، وقالت بصوت خفيض: «سأجد الشجاعة. ما دام قد جاء علنًا عندي فما الذي أخشاه؟ ولولاك لسقطت عند قدميه منذ أول لحظة لمرآه

المتغيِّر».

ثم قالت السيدة «ديجليمون» في صوت مرتجف، وهي تعود لتأخذ مكانها فوق تخت لجلوس شخصين لم يجرؤ اللورد «جرينفيل» على المجيء للجلوس عليه: ماذا إذن يا «أرتير»؟ إنك لم تطعني.

- لم أستطع مقاومة متعة الاستمتاع إلى صوتك ومتعة البقاء إلى جوارك مدة أطول. لقد كان ذلك نوعًا من الجنون أو الخرف. لم أعد سيِّد نفسي. لقد شاورت نفسي جيدًا وعرفت أنني أضعف مما ينبغي إذ يجب أن أموت. ولكن الموت بغير أن أكون قد رأيتك، وبغير أن أكون قد استمعت إلى ارتعاش ثوبك واقتطفت دموعك.. أي موت هو ذاك!».

وأراد الابتعاد عن «جولي» ولكن حركته المفاجئة أدت إلى سقوط مسدس من جيبه. ونظرت الماركيزة إلى هذا السلاح نظرة لم تعبر عن العشق أو الفكر. والتقط لورد «جرينفيل» مسدسه، وظهر كأنه قد استاء بقسوة من حادث يمكن أن يؤخذ على أنه مساومة غرامية.

سألت «جولي»: «أرتير!».

أجاب «أرتير» وهو يخفض من عينيه: «سيدتي؛ لقد جئت مليئًا باليأس وأردت..» ثم توقف..

صاحت: «أردت أن تنتحر في بيتي».

قال بصوت رفيق: «ليس بمفردي».

- إيه! ماذا! من المحتمل زوجي أيضًا؟

صاح بصوت مخنوق: «لا.. لا.. ولكن اطمئني». وعاد يقول: لقد اختفى مشروعي المقدور. بمجرد دخولي إلى هنا، وعندما رأيتك أحسست بالشجاعة على أن أصمت وعلى أن أموت وحدي.

ونهضت «جولي» وألقت بنفسها بين ذراعي «أرتير» الذي استطاع أن يتبين، برغم شهيق عشيقته بالبكاء، قولين مليئين بالعشق. قالت «جولي»: أن يعرف المرء السعادة ثم يموت.. إيه، بل نعم!

وكانت كل قصة «جولي» مركزة في هذه الصيحة العميقة، صيحة الطبيعة والحب الذي تذعن له المرأة غير المتدينة. وأمسك بها «أرتير» وحملها فوق الأريكة بحركة ذات طابع العنف الذي تدفع إليه السعادة غير المنتظرة. ولكن الماركيزة انتزعت نفسها فجأة من ذراعي حبيبها، وقذفته بنظرة ثابتة من امرأة يائسة، وأخذته من يده، وأمسكت بمصباح وقادته إلى غرفة النوم. ثم بلغت السرير الذي تنام فوقه «هيلين». فدفعت ستائره وكشفت غطاء ابنتها برقة، وهي تضع يدها أمام الشمعة حتى لا يضايق الضوء جفون الابنة الصغيرة الشفوفة نصف المقفلة. وكان ذراعا «هيلين» مفتوحتين، كما كانت تبتسم وهي نائمة. وبنظرة أشارت «جولي» إلى طفلتها أمام لورد «جرينفيل»

وكان كل شيء في تلك النظرة.

- أما الزوج فسنستطيع أن نهجره، حتى ولو أحبنا. فالرجل كائن قوي يستطيع أن يجد عزاءات كبيرة، ونستطيع أن نحتقر قوانين المجتمع. أما الطفل بغير أم...!

كانت كل هذه الأفكار وآلاف أخرى أكثر حنوًا في تلك النظرة.

قال الإنجليزي وهو يتمتم: «نستطيع أن نحملها معنا.. وسوف أحبها كثيرًا...».

صاحت «هيلين» مستيقظة: «ماما!».

وبمجرد سماعها ذرفت «جولي» الدموع. وجلس لورد «جرينفيل» صامتًا حزينًا بذراعيه مضمومتين إلى صدره في تقاطع.

«ماما»! هذا الطلب الحلو الساذج أيقظ كثيرًا من المشاعر النبيلة، وكثيرًا من التعاطفات التي لا تقاوم، بحيث انسحق الحب لحظة أمام صوت الأمومة القوي. إذ لم تعد «جولي» امرأة، وإنما صارت أمًّا. ولم يقاوم لورد «جرينفيل» طويلًا إذ انتصرت عليه دموع «جولي».

وفي تلك اللحظة انفتح أحد الأبواب بعنف محدثًا ضجة كبيرة، ودوت هذه الألفاظ كدوي الرعد في قلب العاشقين! هل أنت هنا يا سيدة «ديجليمون».

فقد عاد الماركيز. وقبل أن تستطيع «جولي» استعادة

الدم البارد كان اللواء يتجه من غرفته نحو غرفة زوجته، فقد كانت الغرفتان متلاصقتين. ولحسن الحظ أشارت «جولي» إلى لورد «جرينفيل» الذي ألقى بنفسه في مقصورة المياه، وأوصدت الماركيزة بابها بإحكام.

قال «فيكتور»: «ها يا زوجتي.. هأنذا. إننا لم نقم بمشروع الصيد، وسأذهب للنوم».

قالت هي: «عم مساء، وسأفعل مثلك، وعلى ذلك دعني أستبدل ملابسي».

- تبدين خشنة الليلة. سمعًا وطاعة يا سيدتي الماركيزة.

وعاد الماركيز إلى غرفته، وصحبته «جولي» كي تغلق الباب الموصل واندفعت لتخليص اللورد «جرينفيل» واستعادت رباطة جأشها وحضور ذهنها، ففكرت في أن زيارة طبيبها القديم لها طبيعية تمامًا. وكان في إمكانها أن تتركه في الصالون كي تحضر لتشرف على نوم ابنتها. وذهبت لتطلب منه التوجه إلى هنالك بلا ضوضاء. ولكنها لم تكد تفتح باب المقصورة حتى صرخت مدوية، إذ كانت أصابع لورد «جرينفيل» قد انحشرت في فَرْضة الباب فهرستها.

سألها زوجها: «إيه! ماذا بك إذن؟».

- لا شيء، لا شيء... لقد شكَّني دبوس في إصبعي.

وفجأة انفتح باب الاتصال. وظنت الماركيزة أن زوجها

جاء خصيصًا من أجلها، ولعنت ذلك الاهتمام... فلم يخلق القلب عبثًا. ولم تكد تجد الوقت لإقفال مقصورة المياه ولم يكن لورد «جرينفيل» قد سحب يده بعد. وظهر اللواء مرة أخرى في الواقع. غير أن الماركيزة أخطأت إذ كان قد قدم نحوها بسبب مسائل شخصية خاصة به.

- هل لك في أن تعيرني منديلًا؟ إن «شارل» ذاك لغريب. فهو يمضي دون أن يترك لي منديلًا واحدًا للرأس. في أيام زواجنا الأولى كنت تتدخلين في أعمالي برعاية دقيقة إلى درجة مضايقتي. آه إن شهر العسل لم يدم طويلًا بالنسبة إليّ ولا بالنسبة إلى أربطة عنقي. والآن صرت تحت رحمة سلطة مدنية خاصة بهؤلاء الناس الذين يسخرون جميعًا مني.

- خذ. هاك منديل. ألم تمر بالصالون؟

- لا.

- كان يمكن أن تلتقي هناك بلورد «جرينفيل».

- أهو موجود بباريس؟

- يبدو هذا.

- أوه! سأذهب إلى هناك. هذا الطبيب الطيب.

صاحت «جولي»: ولكن لعله رحل الآن.

وكان الماركيز حينذاك في وسط غرفة زوجته قد غطى رأسه بالمنديل، وهو ينظر إلى نفسه في المرآة بإعجاب

ورضى.

- لا أدرى أين هم شغالة البيت؟ لقد دققت الجرس «لشارل» ثلاث مرات ولم يحضر. أنت أيضًا إذن بدون الخادمة؟ دقّي لها الجرس لأنني أود الليلة غطاء إضافيًا لسريري.

أجابت الماركيزة بجفاف: لقد ذهبت «بولين» للنزهة.

- في منتصف الليل!

- لقد أذنت لها بالذهاب إلى الأوبرا.

قال الزوج وهو يخلع ملابسه: هذا شيء فريد!.. لقد خيل إلي أنني رأيتها عند صعودي السلم.

قالت «جولي» وهي تتكلف عدم الصبر: «لقد عادت إذن بلا شك».

ثم لكي تحاشى الماركيزة إيقاظ أي شك لدى زوجها سحبت حبل الجرس شدًّا خفيفًا.

ولم تعرف أحداث تلك الليلة تمامًا. ولكن لا شك أنها كانت جميعها غاية في البساطة، وغاية في الشناعة، على نحو ما كانت عليه الأحداث المبتذلة البيتية السابقة.

وفي اليوم التالي رقدت الماركيزة «ديجليمون» في سريرها جملة أيام.

سأل السيد «دير ونكر ول» السيد «ديجليمون» بعد أيام

قليلة من ليلة الكوارث: ما الحدث الغريب الذي وقع ببيتك حتى يتحدث المجتمع كله عن زوجتك؟

قال «ديجليمون»: صدقني.. وابق عزبًا. لقد أمسكت النار بستائر السرير الذي كانت تنام فيه «هيلين» وفجعت زوجتي للحدث حتى أصابها مرض يستغرق عامًا كاملًا حسب إشارة الطبيب... تتزوج من امرأة جميلة فتصير قبيحة، وتتزوج فتاة مليئة بالصحة، فتتحول إلى صاحبة نقاهة، وتعتقد أنها شديدة الولع فإذا بها باردة. أو أنها باردة في المظهر ثم تكون في الحقيقة شهوانية بحيث تقتلك أو تزري بشرفك. أحيانًا تصير المخلوقة الشديدة الرقة مخلوقة ذات أهواء، ولن تكون ذات الأهواء رقيقة بحال. وأحيانًا تبسط الطفلة، التي اخترتها حمقاء ضعيفة، ضدك إرادة من حديد أو روح شيطان. لقد تعبت من الزواج».

- أو من زوجتك.

- هذا صعب. بالمناسبة، هل تحب أن تحضر معي إلى كنيسة القديس «توما الإكويني» لمشاهدة دفن لورد «جرينفيل»؟

قال «دير ونكر ول»: هذه فرصة فريدة لإضاعة الوقت. ولكن هل عرف سبب وفاته على وجه التحديد؟

- زعم خادمه أنه بقي ليلة بأكملها على الإفريز الخارجي من الشباك إنقاذًا لشرف عشيقته، وكان الليل باردًا بردًا قارسًا هذه الأيام!

- هذه التضحية كانت تصير محلّ تقدير كبير لدينا نحن المدربين أيضًا، غير أن لورد «جرينفيل» شاب و.. إنجليزي. هؤلاء الإنجليز يريدون دائمًا التفرد في كل شيء.

- أجاب «ديجليمون» على أي حال نتوقف ملامح البطولة على المرأة التي توحي بها، ومن المؤكد أن «أرتير» المسكين لم يمت من أجل زوجتي!

* * *

2

آلام مجهولة

يمتد فيما بين نهر «اللوان» الصغير ونهر «السين» سهل فسيح تحفة غابة «فونتنبلوه» وثلاث مدن هي «موريه» و«نيمور» و«مونتيروه» ولا يرى البصر في ذلك الإقليم المجدب سوى تلال نادرة. وترى أحيانًا وسط الحقول بعض الجذور الخشبية التي تأوي إليها طرائد الصيد، ثم ترى في كل مكان تلك الخطوط المحدودة الرمادية أو الصفراء الخاصة بآفاق «سولوني» و«بوس» و«بيري». ويرى المسافر وسط ذلك السهل بين «موريه» و«مونتيروه» قصرًا قديمًا اسمه «سان لانج» الذي لا تخلو منافذ الوصول إليه من عظمة وجلال. إنها كلها من المتنزهات الرائعة ذات شجر الدردار على الجانبين. وذات الحفيرات والحوائط الطويلة حول الأحواش، والحدائق الشاسعة، والمباني الواسعة الخاصة «بالأشراف» التي احتاجت في بنائها إلى جباية الضرائب غير القانونية، وكذلك إلى ثمرات المزارع العامة، وسرقات وكيل الخزانة لمال الحكومة المشروعة، أو الثروات الضخمة الأرستقراطية التي هدمتها الآن مطرقة القانون المدني. فإذا تاه بعض الفنانين، أو بعض الحالمين مصادفة في الطرق ذات آثار العجلات العميقة أو الأراضي الصلدة التي تحمي مدخل الإقليم، فإنه يتساءل عن النزوة التي دفعت إلى الإلقاء بهذا القصر الشاعري

إلى تلك السهول المعشوشبة بالقمح، وتلك الصحراء المليئة بالطباشير والسجيل والرمال، حيث يموت المرح، وتنشأ التعاسة حتمًا، وتتعب الروح بلا توقف بسبب العزلة التي لا يمتزج بها صوت، والآفاق الرتيبة، والمظاهر السلبية للجمال، وإن كانت مناسبة للآلام التي لا تطمع في عزاء.

وجاءت امرأة شابة اشتهرت في «باريس» بلطفها وحسنها وروحها، وكانت ذات وضع اجتماعي وثروة متناسبتين مع شهرتها العريضة، جاءت تقيم، مثيرة اندهاشًا كبيرًا، في القرية الصغيرة الواقعة على بعد ميل تقريبًا من «سان لانج» في حوالي آخر 1820. ولم يكن المزارعون والفلاحون قد شهدوا أي «سادة» بالقصر منذ أجيال لا تذكر. ولو أن محصول الأرض كان وفيرًا فإن الأرض قد تركت في رعاية وكيل أعمال، وفي حراسة «أجراء» قدماء. وأثارت رحلة السيدة الماركيزة نوعًا من القلق في الإقليم، واجتمع أشخاص عديدون عند طرف القرية في فناء فندق رديء واقع عند مفترق طرق «نيمور» و «موريه» كي يشهدوا مرور المركبة المتباطئة، لأن الماركيزة جاءت من (باريس) بخيولها وفي مقدم المركبة كانت الخادمة تمسك فتاة صغيرة أميل إلى الأحلام منها إلى الابتسام، في حين كانت الأم تجلس مضطجعة في داخل العربة مثل محتضر في النزع الأخير أرسله الأطباء إلى الريف. ولم يعجب محيا تلك المرأة الشابة الرقيقة المتوعك دهاة القرية الذين رأوا في وصولها إلى «سان لانج» أملًا في حركة ما بالمقاطعة. ومن

المؤكد أن كل نوع من الحركة كان غير أثير كما هو ظاهر لدى تلك المرأة المصابة بالأوجاع.

وأعلن أكبر شيوخ القرية في «سان لانج» مساء بالملهى الليلي في ركن الحانة التي يقدم فيها الوجهاء على الشراب، أن مظهر التعاسة المطبوع على سمات وجه السيدة الماركيزة هو دليل على أنها أصيبت بالإفلاس، إذ تغيب السيد الماركيز بناء على تعيينه -كما أشارت الصحف- مرافقًا لدوق «دانجوليم» في إسبانيا. وعليها أن توفر في أثناء بقائها في «سان لانج» المبالغ الضرورية للوفاء بالفروق المعزوة إلى مضاربات خاطئة بالبورصة، فقد كان الماركيز أحد كبار المضاربين، وقد تباع الأرض حصصها صغيرة، وسيكون ثمة فرص طيبة لمن يشاء. ولعل كل مستمع قد شرع يفكر في حصر دراهمه، وفي سحبها من مخبئها، وتعداد ممتلكاته، حتى يكون له نصيبه من حطام «سان لانج» وبدا ذلك المستقبل جميلًا إلى الحد الذي دفع كل وجيه من الوجهاء إلى التشوق لمعرفة واقع الأمر وللتفكير في وسائل الإلمام بالحقيقة عن طريق العاملين في القصر. غير أنه لم يكن في إمكان أي واحد منهم أن يلقي أي أضواء على تلك الكارثة التي قادت سيدتهم إلى قصرها العتيق في «سان لانج» في مطلع الشتاء، في حين أنها تملك أراضٍ أخرى معروفة ببهجة معالمها وجمال حدائقها. وجاء السيد عمدة القرية، لتقديم تحياته واحتراماته إلى السيدة، ولكنه لم يقابلها. وجاء الوكيل بعد العمدة، وقدم نفسه، ولكن حظه لم يزد

شيئًا على حظ الأول.

ولم تكن السيدة الماركيزة تخرج من غرفتها إلا لكي يقوموا بترتيبها. وفي الانتظار تبقى داخل صالون صغير مجاور كانت تتناول فيه العشاء، إذا صح تسمية الجلوس إلى المائدة والنظر إلى ما عليها من طعام في قرف، ثم تناول القدر الضروري منه على وجه التحديد، كي لا تقضي جوعًا... عشاء. وبعد ذلك ترجع في الحال إلى مقعد قديم مبطن بوسادة حيث تجلس منذ الصباح في كوة الشباك الوحيد الذي كان ينير الغرفة. ولم تكن ترى ابنتها إلا في أثناء اللحظات القصار التي تتناول فيها عشاءها المكروب. وحتى لحظات رؤيتها تلك كانت تدفعها فيما يبدو إلى معاناة الألم.

أليس من الضروري أن تشعر امرأة شابة بآلام خارقة كي تخرس فيها عاطفة الأمومة؟

ولم يوفق أحد هؤلاء الناس في التقرب إليها، وكانت خادمتها الشخص الوحيد الذي تقبل منه الخدمات. وفرضت صمتًا مطلقًا على القصر، بحيث كان على ابنتها أن تلعب بعيدًا عنها. وكان يصعب عليها أن تتحمل أقل ضوضاء، حتى صار أي صوت إنساني -بما في ذلك صوت طفلتها مصدر حزن مقيت بالنسبة إليها. وشغل أهل الإقليم أنفسهم بأحداثها الغريبة، ولكن عندما استنفدت كل الافتراضات الممكنة لم يعد أهل المدن الصغيرة المجاورة أو الفلاحون يفكرون إطلاقًا في تلك المرأة المريضة.

واستطاعت الماركيزة، وقد خلت إلى نفسها، أن تمكث إذن صامتة تمامًا وسط الصمت الذي ضربته حول نفسها. ولم تجد فرصة إطلاقًا كي تغادر الغرفة المغطاة بالسجاد، حيث ماتت جدتها، وحيث جاءت هي لتموت موتًا رقيقًا بلا شهود وبلا مزعجات، وبدون أن تعاني مظاهر الأنانية الزائفة المحلاة بالعاطفة التي تجعل موت الأموات في المدن مزدوجًا.

كانت هذه المرأة في السادسة والعشرين من عمرها. وتستعذب الروح عادة -وهي لا تزال مليئة بأوهام شاعرية- أن تستطعم الموت عندما يبدو لها نافعًا مفيدًا، غير أن للموت دلالًا بالنسبة إلى الشباب؛ إذ يقدم الموت ويتراجع، ويظهر ثم يختفي، حتى يصبح إبطاؤه سببًا في زوال أوهامه. بل يؤدي ما بعد الموت إلى عدم اليقين، وينتهي إلى أنه يلقي بهم إلى العالم حيث يلتقون بالألم، وهو أقل شفقة من الموت فيضربهم دون أن يترك لهم فرصة انتظاره. والواقع أن هذه المرأة التي حرمت نفسها الحياة، كانت في طريقها إلى تجربة مرارة ذلك التواني في أعماق العزلة، وإلى أن نتلقى فيها -في أثناء فترة احتضار خلُقي لا يقضي عليها الموت- درسًا قاسيًا في الأنانية يخلع منها القلب ويشكلها حسب المجتمع.

وينشأ هذا الدرس التعليمي القاسي الحزين عن آلامنا الأولى. ولعل الماركيزة قد تألمت، وعانت حقيقة للمرة الأولى والوحيدة في حياتها. أليس من الخطأ حقيقة

الاعتقاد بأن مشاعرنا نتوالد؟ ألا تظل بمجرد تفريخها موجودة في قاع القلب؟ فتسكن وتصحو حسب أحداث الحياة، وتبقى كامنة فيه بحيث تؤثر إقامتها على الروح بالضرورة. وعلى ذلك يخص كل شعور يوم كبير واحد، هو يوم عاصفته الأولى الطويل إلى حد ما. ولا يكون أكثر الآلام ثباتًا من بين مشاعرنا قويًّا إلا في هجمته الولى، على حين تواصل إصاباته الأخرى سيرها آخذة في الضعف، إما بسبب تعودنا أزماته، وإما بسبب أحد قوانين طبيعتنا التي تسعى إلى البقاء، فتعارض تلك القوة الهدامة بقوة مساوية مدفونة في حالة سكون في تدبيرات الأنانية. ولكن إلى أي نوع من أنواع تلك الآلام ينتمي اسم هذا الألم؟

لقد أعدت الطبيعة الناس لحزن فقدان الوالدين في حين يعد الألم العضوي عابرًا ولا يلحق بالروح، وإذا دام فليس هو بالألم، وإنما هو الموت. وعندما تفقد امرأة شابة مولودها سرعان ما يعطيها حب الزوجية مولودًا آخر. وهذه الآلام وأخرى غيرها مشابهة، هي ضربات وجروح بشكل ما، ولكن ليس من بينها ما يصيب الحيوية في جوهرها، ولا بد من أن نتتابع هذه الآلام بشكل عجيب، كيما تقتل الشعور الذي يحثنا على البحث عن السعادة، فالألم الحقيقي الكبير لا بد أن يكون إذن داء فتاكًا إلى حد ما كي يعانق الماضي والحاضر والمستقبل معًا، ولا يدع أي جزء من أجزاء الحياة في تكامله، ويغير معالم الفكر إلى الأبد، ويرتسم على الدوام فوق الشفاه وفوق الجبين حتى

يحطم أو يرخي نوابض اللذة بأن يغرس في الروح مبدأ القرف من كل شيء في الحياة، ولا بد أن يحدث هذا الألم كي يستكمل ضخامته، وكي يثقل على الروح والجسد. لا بد أن يحدث في لحظة من لحظات الحياة عندما تكون كل قوى الروح والجسد لا تزال شابة، أن يصعق القلب في ريعانه، وعندئذ يشق الألم ندبًا كبيرًا، إذ إن المعاناة شاقة، ولا يكاد يفلت أحد من هذا المرض دون تغيير شعري فني. فإما أن يأخذ طريق السماء، أو يبقى ها هنا أرضًا، على أن ينفذ إلى العالم كي يكذب على المجتمع، ويلعب فيه دورًا ويعرف الطريق إلى «الكواليس» حيث ينسحب من أجل التدبير والبكاء والمزاح. وبعد هذه الأزمة الصحية لا توجد أي أسرار في الحياة الاجتماعية التي تصير منذ ذلك الحين محكومًا عليها نهائيًّا. وتنشأ هذه الأزمة الأولى أو أشد الآلام جرحًا عند النساء الشابات في سن الماركيزة عن واقعة بعينها؛ إذ لا يفوت المرأة، وبخاصة المرأة الشابة الكبيرة الروح والكبيرة القدر من الجمال -لا يفوتها إطلاقًا أن تبذل حياتها حيثما تدفعها الطبيعة والعاطفة والمجتمع على القذف بها كاملة. أما إذا كانت تنقصها تلك الحياة، وكانت تعيش على الأرض، فستأخذ في تجريب أقسى الآلام فيها للسبب نفسه الذي يجعل من الحب الأول أجمل العواطف جميعًا.

لماذا لم يوهب قطّ هذا الشقاء مصورًا أو شاعرًا؟ ولكن هل يستطيع أن يصور نفسه؟ وهل يستطيع أن يتغنى

بآلام نفسه؟ لا.. فطبيعة الآلام التي يولدها هذا الشقاء لا تستسلم لأي تحليل أو لأي ألوان فنية. وفضلًا عن ذلك لا يمكن أن تروي هذه الآلام إطلاقًا إلى أحد، ولكيما يمكن التسرية عن إحدى النساء بصددها، لا بد من القدرة على تخمينها، لأن العلم بها يحاط دائمًا بمرارة، ويعاقب عليها دينيًا، وتأوي إلى الروح ككتلة هابطة من الجليد تتلف كلها في أثناء سقوطها في الوادي قبل أن تبلغ مكانها في قاعه.

كانت الماركيزة إذن فريسة لآلامها التي كان مقدرًا لها أن تمكث طويلًا مجهولة، لأن كل ما في الحياة يحكم عليها بذلك في حين تقوم العاطفة بملامسة تلك الآلام كما يقوم وعي المرأة الصادق بتسويفها جميعًا دائمًا. ومن تلك الآلام ما يشبه الأطفال الذين تجحدهم الحياة عمدًا أو الذين يستمسكون بقلوب أمهاتهم بروابط أقوى من روابط الأطفال الموهوبين بتوفيق. ولعل تلك الكارثة المرعبة التي تقضي على كل ما هو حياة خارجنا لم تكن على هذا النحو من القوة والتمام قط، ولم تتضخم بقسوة بواسطة الظروف مثلما جرت في حياة الماركيزة. فقد مات رجل معشوق شاب كريم لم تستجب قط لرغباته كي تطيع قوانين المجتمع بسبب حرصه على أن ينقذ لها ما اصطلح المجتمع على تسميته باسم «شرف المرأة». ولمن تستطيع أن تقول «إنني أعاني»؟ ولو بكت لساءت زوجها دموعها برغم أنه السبب الرئيسي للنكبة، ولأبطلت القوانين وصنوف العرف

شكواها، ولاستفادت من ورائها صديقة، وضارب عليها صديق. لا.. لم يكن لهذه المكروبة المسكينة أن تبكي بدون انزعاج إلا في الصحراء، بحيث تلتهم هناك ألمها، أو بحيث يلتهمها ألمها، أو بحيث تموت، أو تقتل شيئًا فيها، وليكن ضميرها مثلًا.

وبقيت منذ بضعة أيام بنظراتها معلقة على أفق منبسط، حيث لم يكن ثمة ما يحث عنه كالحال بالنسبة إلى حياتها المستقبلة، ولم يكن ثمة ما يبعث على الأمل، حيث كان كل شيء ظاهرًا مكشوفًا في نظرة واحدة، وحيث كانت هي تلتقي بصور حزنها البارد الذي لا يكف عن تمزيق قلبها.

وكانت الأصباح الضبابية، والسماء ذات النور الخافت، والسحب المنخفضة الداكنة الجارية بالقرب من الأرض، كأنها أروقة رمادية كان ذلك كله يلائم أطوار مرض الماركيزة النفسي، إذ لم يكن قلبها ينقبض، ولم يكن يذوي تقريبًا.. لا.. ولكن طبيعتها الناضرة المزهرة كانت تتعجن بفعل ألم لا يحتمل، لأنها لم تكن محددة الهدف، فقد عانت طبيعتها من الألم كما عانت من أجل الألم، ولكن أليست المعاناة انتقالًا إلى الأنانية؟

وكذلك كانت أفكار مفزعة تمر بضميرها فتخدشه. وتساءلت، في إيمان صادق، فوجدت نفسها في حالة ازدواج، إذ كان فيها امرأة تستخدم البرهان، وامرأة تستخدم العاطفة.. امرأة تعاني، وأخرى لا تريد المعاناة

أكثر من ذلك. وتذكرت مباهج طفولتها التي جرت دون أن تحس بسعادتها، والتي أخذت تتوافد صورها الذهنية الصافية في ازدحام كأنها تريد أن تؤنبها على خديعة الزواج الذي يظهر مناسبًا في نظر المجتمع، ويكون شنيعًا في الحقيقة. فيم أفادها التعفف الجميل في شبابها؟ وفيم أفادتها المباهج المكبوتة، والتضحيات المؤداة نحو المجتمع؟ وبرغم أن كل ما فيها عبر عن الحب وتوقعه ظلت تتساءل: لماذا الآن هذا التناسق في حركاتها وابتسامها ولطفها؟ فلم تعد تحب أن تشعر بالنضارة والشهوة أكثر مما يكون مكروهًا سماع لحن متكرر بلا غرض. وكان جمالها نفسه غير محتمل بالنسبة إليها كأي شيء لا جدوى منه، واستشفت في فزع أنها برغم ذلك لم تعد قادرة على أن تصبح مخلوقة كاملة. ألم يفقد (الأنا) الداخلي فيها ملكة تذوق الانطباعات في هذا الوضع الجديد الحلو الذي يهب الحياة مقادير طائلة من السرور والفرح؟

وستُمحى أكثر الأحاسيس في المستقبل غالبًا بمجرد تلقيها، وسيصبح كثير من الأحاسيس التي كانت تثيرها لو مرت بها في الزمن القديم -بلا قيمة أو أهمية بالنسبة إليها، إذ تتبع طفولة المخلوق طفولة القلب. والواقع أن عشيقها قد حمل معه إلى القبر تلك الطفولة الثانية، ولو أنها لا تزال شابة من حيث رغباتها، لكنها لم تعد يتوافر لها ذلك الشباب الكامل في الروح الذي يعطي كل ما في الحياة قيمته ونكهته. ألم تحتفظ في نفسها بمبدأ الحزن والحذر

الذي يسلب انفعالاتها عنفوانها المفاجئ واندفاعها؟ لأنه لم يعد شيء يستطيع أن يهبها السعادة التي تمنتها، والتي حلمت بها أحلامًا جميلة. وأطفأت دموعها الأولى الحقيقية هذه النار السماوية التي تنير انفعالات القلب الأولى، وكان عليها أن تقاسي على الدوام ألا تكون على نحو ما كان يمكنها أن تكون. ومن هذا الاعتقاد كان لا بد أن ينشأ قرف مرير يدفع إلى إدارة الرأس كلما سنحت متعة جديدة. وتصورت الحياة على ذلك تصور المسن الهرم الذي يوشك أن يفارقها. وبرغم إحساسها بشبابها أثقل روحها حجم أيامها الخالية من المتع، وضغط عليها ضغطًا أحالها إلى عجوز قبل الأوان.

وطلبت إلى المجتمع بصرخة يأس ما كان المجتمع قد رده إليها بديلًا عن الحب الذي أعانها على أن تعيش والذي فقدته. وتساءلت: أليس الفكر أقسى من العمل في غرامها الضائع الذي كان على قدر كبير من العذرية والنقاء؟ وظهرت بمظهر المذنبة عن خطيئة، كي تسب المجتمع، وكي تجد هي العزاء عن أنه يحدث بينها وبين الذي بكته ذلك الاتصال الكامل الذي يعمد إلى وضع الأرواح بعضها فوق بعض، بحيث يخفف من ألم الروح التي تبقى بيقين استمتاعها المطلق بالسعادة وبيقين أنها عرفت تمامًا كيف تعطيها، ثم بيقين احتفاظها في ذاتها بانطباع من تلك الروح التي ولت. وكانت غير راضية عن نفسها مثل الممثلة التي فاتها دورها، لأن الألم كان يهاجم كل وشائج بدنها وقلبها

وعقلها. وإذا كانت الطبيعة قد انقبضت في تمنياتها الودية الخالصة، فإن الغرور لم يكن جرحه بأقل من جرح الطيبة التي تحمل المرأة على التضحية بنفسها. ثم عمدت إلى إثارة كل الأسئلة وإلى تحريك جميع قوى الموجودات المختلفة التي تهبنا إياها الطبائع الاجتماعية والأخلاقية والجسمية، ولكنها أهملت تمامًا قوى الروح، بحيث لم تعد تدرك شيئًا وسط أشد الأفكار تناقضًا. وأحيانًا عندما كان الضباب يغيم الأرجاء كانت تفتح نافذتها، وتظل أمامها بلا فكر، وهي مشغولة بتنفس الرائحة الطيبة الترابية المنثورة في الأجواء آليًّا، وتبقى واقفة ساكنة بلهاء في مظهرها لأن طنين ألمها أحالها أيضًا إلى آلة صماء بالنسبة إلى انسجامات الطبيعة ومفاتن الفكر.

وفي أحد الأيام قرب الظهر، في لحظة أضاءت الشمس فيها الجو دخلت خادمتها بغير إذن وقالت لها: «هذه هي المرة الرابعة التي يحضر فيها السيد القسيس لرؤية السيدة الماركيزة. وهو يلح اليوم بإصرار حتى لم نعد نعرف بماذا نجيبه؟».

- إنه يطمع بلا شك في بعض النقود، من أجل الفقراء في الدائرة نخذي خمسًا وعشرين ليرة ذهبية وأعطيه إياها من قبلي.

قالت الخادمة وقد عادت بعد لحظة: «سيدتي، السيد القسيس يرفض تسلم النقود، ويريد أن يخاطبك».

- فليحضر إذن!

أجابت الماركيزة بذلك وقد أفلتت منها حركة تنم عن مزاج منحرف ينبئ باستقبال تعيس للقسيس الذي تمنت بلا شك لو أمكنها أن تتفادى كل اللجاجات بتقديم شرح مختصر صريح إليه.

كانت الماركيزة قد فقدت أمها وهي طفلة، وبطبيعة الحال تأثرت تربيتها بالفتور الذي دمغ الروابط الدينية في فرنسا في أثناء الثورة. وتعد التقوى من فضائل المرأة التي تستطيع النساء وحدها أن تنقلها نقلًا طيبًا. وقد كانت الماركيزة طفلة من أطفال القرن الثامن عشر الذي كانت عقائده هي عقائد والدها، ولم تكن تباشر أي عبادات دينية؛ وكان القسيس في نظرها موظفًا أهليًّا غير معترف بجدواه، ولم يكن يستطيع صوت الدين أن يؤدي إلا إلى استفحال الشرور حيال الموقف الذي تردت فيه، ثم إنها قلّما كانت تعتقد في قساوسة الأرياف أو في شموعهم، ولذلك عزمت على أن تعرف هذا القسيس حدوده دون خشونة، وأن تتخلص منه ببعض الهبات على طريقة الأغنياء.

حضر القسيس، ولكن مظهره لم يؤثر على أفكار الماركيزة، فقد رأت رجلًا قصيرًا سمينًا ذا بطن بارز، وذا وجه محمر، ظاهر الشيخوخة، وظاهر التجاعيد، ويتكلف الابتسام دون أن تفلح ابتسامته في شيء. وكان رأسه أصلع مخططًا بتجاعيد عديدة بالعرض كما كان يسقط في

ربع دائرة على وجهه ويصغره. وكانت بضع شعرات بيضاء تزين أسفل رأسه فوق الرقبة، وتمتد إلى الأمام نحو الأذنين، ومهما يكن من شيء فقد كانت هيئة وجه هذا القسيس أشبه بهيئة وجه رجل مرح بالطبع، وكانت شفتاه الغليظتان، وأنفه الخفيف التقلص، وذقنه الذي توارى وراء ثنيات التجاعيد، كما كان ذلك يدل على طباع سعيدة. ولم تلمح الماركيزة أول الأمر سوى ملامحه الرئيسية؛ ولكن بمجرد نطقه أول كلمة أذهلتها رقة صوته؛ فتأملته بانتباه أكبر، ولاحظت عينيه من تحت حاجبيه اللذين وخطهما الشيب. وقد بلّلتهما الدموع. وكانت خطوط خده من ناحية الجانب تسبغ على وجهه تعبيرًا جليلًا للألم، بحيث اكتشفت الماركيزة إنسانًا وراء هذا القسيس.

- سيدتي الماركيزة، إن الأغنياء لا ينتمون إلينا إلا حين يتألمون؛ ويمكن تخمين نوع الآلام التي تنزل بساحة امرأة متزوجة شابة جميلة غنية لم تفقد أطفالًا أو أقارب، فهذه الآلام تنشأ عادة عن جروح لا يخفّف أوجاعها الشديد سوى الدين؛ وروحك يا سيدتي في خطر. وأنا لا أحدثك الآن عن الحياة الأخرى التي تنتظرك!! لا.. فلست أمام كرسي الاعتراف، ولكن أليس من واجبي أن ألقي لك الأضواء على مستقبل وجودك الاجتماعي؟ لعلك تغفرين لرجل عجوز إزعاجك بقصد سعادتك.

- لم يعد ثمة سعادة بالنسبة إليّ يا سيدي. سوف أكون

منكم عما قليل، كما تقول، ولكن على الدوام.

- لا، يا سيدتي. أنت لن تموتي من الألم الذي يثقل عليك ويرتسم على ملامحك. لو كان عليك أن تموتي بسببه لما جئت إلى «سان لانج» فنحن نموت تحت تأثير الندم الأكيد، أقل مما نموت من آثار الآمال التي تخيب الظن. لقد عرفت آلامًا أشد قسوة، ومما لا يحتمل، دون أن تؤدي إلى الموت.

أدّت الماركيزة حركة من لا يصدق...

- سيدتي أنا أعرف رجلًا كان شقاؤه عظيمًا حتى لتبدو آلامك خفيفة إذا قورنت بآلامه.

ولعل عزلتها الطويلة بدأت تثقل عليها أو لعل اهتمامها قد أثاره احتمال تمكنها من أن تصب أفكارها المؤلمة في قلب صديق، ومهما يكن من أمر فقد نظرت إلى القسيس بتعبير الاستفهام الذي لا يخطئه المرء.

عاد القسيس يقول: «سيدتي، كان ذلك الرجل أبًا لأسرة تحولت من أسرة عديدة الأبناء إلى أسرة ذات ثلاثة أطفال فقط، إذ أنه فقد أقاربه على التوالي، ثم ابنته وزوجته اللتين كان يحبهما حبًا جمًّا، وبقي بمفرده في أقصى أقاليم الريف على أرض صغيرة يمتلكها، حيث كان سعيدًا مدة طويلة، وذهب أولاده الثلاثة إلى الجيش، واحتفظ كل منهم بالرتبة المناسبة مدة خدمته. وفي فترة المائة يوم من 20 مارس إلى 22 يونية سنة 1815 عند

عودة «نابليون» إلى «باريس» دخل الابن الأكبر الحرس، وصار برتبة مقدم، وكان الصغير رئيس فرقة مدفعية كما كان الابن الأوسط ذا رتبة رئيس كتيبة من فرسان الخيالة. وكان هؤلاء الأولاد الثلاثة -يا سيدتي- يحبون والدهم بقدر ما كان هو يحبهم؛ ولو كنت تعرفين عدم مبالاة الشبان الذين يندفعون مع عواطفهم الجامحة فلا يتوافر لهم وقت على الإطلاق للمشاعر الأسرية، لفهمت مرة واحدة قوة هذه العاطفة بالنسبة إلى عجوز مسكين معزول لم يكن يعيش إلا بهم ومن أجلهم. ولم يمر أسبوع دون أن يتلقى رسالة من أحد أولاده ولكنه لم يكن هو أيضًا ضعيفًا نحوهم مما ينقص احترام الأولاد، ولم يكن أيضًا قاسيًا في ظلم مما يدفعهم إلى الانقباض، ولم يكن فوق هذا وذاك بخيلًا عليهم بالتضحية مما يدفعهم إلى التفكك. لا.. بل كان أكثر من والد، لأنه جعل من نفسه أخًا لهم وصديقًا. وفي النهاية ذهب يودعهم في «باريس» عند سفرهم إلى «بلجيكا»؛ إذ كان يود أن يرى أيملكون خيولًا جميلة! ألا ينقصهم شيء؟.. وعندما رحلوا عاد الوالد إلى بيته، وبدأت الحرب، فتلقى الرسائل مكتوبة من «فليرو» ومن «ليني» وسار كل شيء سيرًا حسنًا؛ ثم تقع معركة «وترلو» وأنت تعرفين النتيجة، إذ في نفس واحد كانت فرنسا كلها في حداد، وعاشت الأسر جميعها في أعمق قلق؛ أما هو يا سيدتي فقد كان ينتظر، ولم يعرف فسحة أو راحة، وكان يقرأ صحف الأخبار، ويذهب كل يوم بنفسه إلى مكتب البريد. وفي إحدى

الليالي أبلغ بزيارة خادم ابنه المقدم، فإذا الرجل يقود الحصان الخاص بسيده، ولم يكن ثمة موضع للسؤال، إذ كان المقدم قد مات ممزقًا إلى نصفين برصاصة. وقرب نهاية السهرة وصل خادم الابن الأصغر على قدميه، وكان الابن الأصغر قد مات غداة المعركة؛ وأخيرًا عند منتصف الليل جاء أحد رجال المدفعية يعلن وفاة الابن الأخير الذي كان الأب المسكين قد وقف حياته بأكملها فوق رأسه منذ وقت قصير. نعم يا سيدتي سقطوا جميعًا موتى!

وبعد فترة سكون غالب القسيس انفعالاته، وأضاف هذه الأقوال في صوت رقيق:

- وبقي الأب حيًّا يا سيدتي. وفهم أنه إذا كان الله قد تركه حيًّا على الأرض فعليه أن يواصل العذاب فيها. وهو يتعذب فيها فعلًا، ولكنه ألقى بنفسه وسط الدين. ماذا يستطيع أن يصبح؟

ورفعت الماركيزة عينيها نحو وجه القسيس الذي مجللًا بالحزن والضراعة، وانتظرت هذه اللفظة التي انتزعت دموعها انتزاعًا:

- قسيسًا يا سيدتي. فقد طهرته الدموع قبل أن يتطهر عند أقدام المذابح.

وساد الصمت لحظة، وصارت الماركيزة، والقسيس يتأملان الأفق الضبابي من النافذة كما لو كانا يريان هناك أولئك الذين لم يعودوا أحياء. ثم قال القسيس: «لا قسيسًا

في مدينة، وإنما مجرد خوري بسيط».

سألت وهي تمسح دموعها: في «سان لانج».

- نعم يا سيدتي.

ولم يظهر جلال الألم قط كبيرًا على هذا النحو في نظر «جولي». وقولة الرجل: «نعم يا سيدتي» وقعت من قلبها كوقع أثقال ألم لا نهائي. وكان هذا الصوت الذي يرنّ برقة في الأذن يؤدي إلى مغص في الأحشاء آه! لقد كان نفس صوت الشقاء.. ذلك الصوت المليء الرهيب الذي يبدو كما لو كان يجمع في حلقاته سوائل نفاذة.

قالت الماركيزة فيما يحمل تقريبًا معنى الاحترام: «سيدي، وإذا لم أمت فماذا أصبح إذن»؟

- سيدتي، أليس لك طفل؟

قال ببرود: «بلى».

ألقى القسيس نحو تلك المرأة نظرة شبيهة بالنظرة التي يقذفها الطبيب نحو مريضه في حالة الخطر، وعزم على أن يعمل كل ما بوسعه كي ينتزعها من الروح الخبيثة الشريرة التي وضعت اليد عليها سلفًا.

- كما ترين، يا سيدتي، لا مندوحة عن أن نعيش بآلامنا، ولا يعطينا العزاء الحقيقي سوى العقيدة الدينية، فهل تسمحين بأن أعود أسمعك صوت إنسان يستطيع أن يتعاطف مع كافة الآلام، ولا يحمل فيما أعتقد أي فزع؟

- نعم يا سيدي.. عد... وأشكرك لأنك فكرت فيّ..

- على ذلك إلى لقاء قريب يا سيدتي.

أرخت هذه الزيارة روح الماركيزة، إن صح هذا التعبير، وكان الحزن والعزلة قد أثارا قواها بعنف شديد، وخلف لها القسيس في قلبها ذلك الأريج البلسمي ودوى الخلاص عبر الأقوال الدينية، ثم إنها أحست بذلك النوع من الرضا الذي يسعد السجين عندما يتلقى -بعد أن يتعرف على عمق الوحدة وثقل قيودها- طرقات جار يطرق الحائط دافعًا إياه إلى الرد عليه بصوت آخر يتناقلان به التعبير عن أفكار مشتركة. وهكذا عثرت على نجيّ لم تكن تتوقعه، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى أعماق تأملاتها المريرة وقالت لنفسها مثل السجين: إن رفيق الألم لا يخفف من القيود أو من المستقبل. ولم يشأ القسيس أن يجعلها تجفل أو تنفر كثيرًا من ألم كله أنانية وأثرة منذ زيارته الأولى، ولكنه تعشم أن يجعلها بفضل فنه وطريقته -تقترب من الدين بتقدّم في أثناء اللقاء الثاني.

وعاد في الواقع غداة اليوم التالي، فبرهن استقبال الماركيزة له على أن زيارته كانت مطلوبة.

قال العجوز: «على أي حال يا سيدتي الماركيزة، هل فكرت قليلًا في كل الآلام البشرية؟ هل رفعت عينيك نحو السماء؟ هل رأيت هناك عظمة العوالم وضخامتها التي تنقص من أهميتنا وتسحق غرورنا فتقلل آلامنا»؟

قالت: «لا يا سيدي، إذ تثقل القوانين الاجتماعية بشدة على قلبي وتمزقه لي تمزيقًا قويًا حتى أستطيع الارتفاع بنفسي إلى السموات، ولعل القوانين ليست في قسوة آداب المجتمع. أوه! المجتمع»!

- علينا، يا سيدتي أن نطيع هذه وتلك، فالقانون هو الكلمة والآداب هي أفعال المجتمع.

عادت تقول الماركيزة مبدية حركة اشمئزاز: «طاعة المجتمع»؟ هيه! يا سيدي إن شرورنا جميعها تنشأ عنه. لم يضع الله أي قانون للشقاء، ولكن عندما تجمّع الناس بعضهم مع بعض أفسدوا عمله. ونحن.. نحن النساء.. لقد عاملتنا المدنية بأسوأ مما عاملتنا الطبيعة به، فالطبيعة تفرض علينا الآلام البدنية التي لم تخففوها، في حين أضافت المدنية المشاعر التي تخونونها باستمرار، إذ تخنق الطبيعة الكائنات الضعيفة، على حين تحكمون عليها أنتم بأن تعيش كي تقوموا بتسليمها إلى شقاء دائم. ويؤدي الزواج، وهو نظام يرتكن إليه المجتمع، إلى إشعارنا نحن وحدنا بأثقاله، فللرجل الحرية، وللمرأة الواجبات. علينا أن نهبكم حياتنا بأكملها، وليس عليكم من حياتكم نحونا إلا لحظات نادرة ثم إن الرجل يختار هناك حيث نرضخ نحن من عمى. أوه! يا سيدي، لعلي أستطيع أن أقول لك كل شيء.. فالزواج على نحو ما يطبق اليوم يبدو لي دعارة مشروعة. منه تنبع كل آلامنا. ولكن عليّ أنا وحدي -من بين كل المخلوقات التعيسة التي عقدت قرانها قضاء وقدرًا- أن ألزم

الصمت، أنا وحدي كنت مصدر الشر لأنني أردت هذا الزواج.

وتوقفت وذرفت دموعًا مريرة وبقيت صامتة. ثم عادت تقول: «في هذا الشقاء العميق، ووسط هذا المحيط الشاسع من الألم عثرت على بعض الرمال، حيث خطوت بقدمي، وحيث تعذبت بغير أدنى إزعاج، ثم هبّت عاصفة أودت بكل شيء. وهأنذا وحدي بلا سند، أضعف من أن أقف ضد العواصف».

قال القسيس: «لا نكون ضعفاء قط حينما يكون الله معنا. وعلاوة على هذا إذا لم تكن لديك عواطف ترضينها هنا على الأرض أفليس عليك واجبات تتطلب الأداء؟» صاحت هي بشيء من نفاد الصبر: دائمًا واجبات! ولكن أين لي العواطف التي تهبنا قوة أدائها؟ سيدي، لا شيء في لا شيء أو لا شيء من أجل لا شيء هو أعدل قوانين الطبيعة والأخلاق والأبدان. هل تريد أن تعطر هذه الأشجار أوراقها دون ماء النابت الذي يجعلها تورق؟ وللأرواح رحيقها أيضًا، وقد نضب الرحيق عندي في منبعه!».

قال القسيس: «لم أكن أتكلم معك عن العواطف الدينية التي تولد الإذعان. ولكن أليست الأمومة إذن يا سيدتي...».

قالت الماركيزة: كفى يا سيدي سأصدق في كلامي

معك. وا أسفاه! وبرغم ذلك لا أملك أن أصدق إنسانًا القول؛ إذ أنه محكوم علي بالزيف، وتقتضي منا الدنيا التظاهر المستمر، وترغمنا على قبول العرف السائد، وإلا رمتنا بالعار. هناك أمومتان يا سيدي، وكنت في الزمن القديم أجهل مثل هذه الفوارق، لكني أعرفها اليوم. ولست إلا نصف أمّ، وكان الأفضل ألا أكونها إطلاقًا. وليست «هيلين» ابنته! أوه! لا ترتجف! إن «سان لانج» هوة سحيقة تبتلع العواطف الزائفة ابتلاعًا، ومنها تثب ومضات شريرة، وفيها تنهار الأبنية الواهنة من القوانين المناقضة للطبيعة. فعندي طفل، وهذا يكفي. إنني أم، وهذا هو ما أراده القانون. ولكن أنت يا سيدي.. يا من تملك روحًا رءوفة رأفة رقيقة.. لعلك تفهم صرخات امرأة مسكينة لم تدع لأي عاطفة مصطنعة سبيلًا إلى قلبها. وسيحكم الله علي ولكنني لا أظن أنني أقصر في تنفيذ قوانينه عندما أستسلم لعواطف وضعها في روحي وهأنذا أجد نفسي بينها. أليس الطفل يا سيدي صورة كائنين وثمرة عاطفتين ممتزجتين في حرية؟ فإذا لم يتعلق الطفل بكل وشائج الجسم، وبكل حنان القلب.. إذا لم يكن ذكرى لحب لذيذ، وللأزمنة والأماكن التي كان الشخصان سعداء فيها، وكانت لغتهما ملأى بالموسيقى الإنسانية، وبأفكارهما العذبة الحلوة، فذلك الطفل إذن خلق غير موفق. نعم فبالنسبة إليهما يجب أن يكون ذلك الطفل تحفة ساحرة تجمعت فيها أشعار حياتهما المزدوجة الخفية؛ إذ عليه أن يكون بالنسبة إليهما منبع

انفعالاتهما الخصيبة، فيمثل ماضيهما بأكمله، ومستقبلهما بأكمله. وطفلتي الصغيرة المسكينة «هيلين» هي ابنة أبيها، لأنها ابنة الواجب والمصادفة، وليس لها عندي سوى غريزة المرأة أي القانون الذي يدفعنا دون أن نقوى على مقاومته إلى حماية المخلوقة المولودة بين ضلوعنا. أنا لا أستحق المؤاخذة من الناحية الاجتماعية. ألم أضحّ بحياتي وسعادتي من أجلها؟ وصياحها يثير شجن أحشائي؟ وإذا وقعت في الماء فسأجري مسرعة كي آخذ بيدها، ولكنها ليست في قلبي. آه! لقد جعلني الحب أحلم بأمومة ضخمة معقدة، وقد لامست برقة ذلك الطفل الذي انطوت عليه رغائبي قبل أن يولد، أو تلك الزهرة الحلوة النابتة في الروح قبل أن تخرج إلى الحياة في أثناء حلم ضائع. وإنني بالنسبة إلى «هيلين» ما يجب أن تكون عليه أم نحو ذريتها في النظام الطبيعي، وسينتهي كل شيء حين تصبح بغير حاجة إليّ!، إذا انطفأ السبب انتهت آثاره! وإذا رزقت المرأة بالمزية الرائعة التي تجعلها تمتد بأمومتها فتشكل كل حياة طفلها.. أفليس ينبغي إرجاع ذلك الاستمرار الإلهي العاطفي إلى إشعاعات مفهومها الأخلاقي؟ وإذا لم يوهب الطفل روح أمه كغطاء أول، توقفت الأمومة بالتالي في قلبها كما تتوقف عند الحيوانات. وهذا صحيح وأنا أشعر به. وكلما كبرت ابنتي تقلص قلبي. وأدت التضحيات التي قمت بها نحوها سلفًا إلى انفصالي عنها، في حين كان يمكن أن يصير قلبي معينًا لا ينضب بالنسبة إلى طفل آخر وأنا أحس بذلك، فبالنسبة إلى هذا الطفل الآخر كان

كل شيء سيصبح متعة بدلًا من أن يكون تضحية. وهنا يا سيدي يقف العقل والدين وكل شيء فيّ عاجزًا ضد عواطفي. أهي مخطئة تلك المرأة حين تطمع في الموت وهي ليست أمًّا أو زوجة مع أنها استطاعت -وذلك لشقائها- أن تمتص رشفة حب في مفاتنه غير المتناهية، وأن تعيش لحظة أمومة في مباهجها التي لا حدود لها؟ ماذا تصبح تلك المرأة؟ سأقول لك بنفسي ما سوف تعانيه! رعدة تهز رأسي. وقلبي، وجسدي مائة مرة في النهار، ومثلها أثناء الليل، كلما حملت إلى بعض الذكرى التي لم تخمد صور الهناء الذي أراه أكبر مما هو عليه. وتدفع هذه الأوهام القاسية عواطفي إلى الشحوب، وأقول لنفسي: «ماذا كانت تصير حياتي لو...؟» وغطت وجهها بين يديها وسالت دموعها ثم استعادت كلامها: «هاك أعماق قلبي طفل منه كان يجعلني أقبل أبشع النكد! وإلهنا الذي مات محملًا بجميع خطايا الأرض سيغفر لي هذه الفكرة الدنيوية الفانية عندي. ولكنني أعرف أن المجتمع حقود، وأقوالي في نظره تجديفات، وأنا ألعن قوانينه. آه! كم وددت أن أقوم بحرب ضد هذا المجتمع كيما أحطمه! ألم يجرح المجتمع كل أفكاري، وكل وشائجي وكل عواطفي، وكل رغباتي وآمالي في المستقبل والحاضر والماضي؟ فاليوم بالنسبة إليّ مشحون بالظلمات، والفكر نصل حادّ، وقلبي ندب عميق، وطفلي لا شيء. نعم. عندما تخاطبني «هيلين» أتمنى لها صوتًا غير صوتها، وعندما تنظر إليّ أتمنى أن تكون لها عيون أخرى، إنها موجودة لكي تؤكد لي

كل ما كان ينبغي أن يكون، وكل ما لا وجود له. إنها لا تُحتمل بالنسبة إلي! إنني أبتسم لها وأحاول أن أعوّضها العواطف التي تفوتها. إنني أتعذب. أوه! يا سيدي، إنني أتعذب عذابًا أكبر مما يجب لكي أعيش. وسيعدُّني الجميع امرأة فاضلة! وأنا لم أرتكب أخطاء! وسوف يشرفونني! فقد صارعت الحب غير الإرادي الذي لم يكن لي الحق في الاستسلام له، ولكنني إذا كنت قد احتفظت بإيماني الجسدي فهل حافظت على قلبي؟ إنه لم يكن قط إلا لمخلوق واحد.

قالت ذلك وهي تسند يدها اليمنى إلى صدرها، ثم استطردت: «ولا تكاد ابنتي تخطئ ذلك. فهناك نظرات وصوت وحركات أم تعجن بقوتها روح الأطفال. وطفلتي المسكينة الصغيرة تشعر بذراعيّ تهتزان، ولا بصوتي يرتعد أو بعينيّ تلينان عندما أتأملها وأكلمها وآخذها. فهي تلقي إليَّ نظرات اتهام لا أحمل أعباءه! وأحيانًا أرتعد لمرأى محكمة في شخصها يحكم علي فيها دون الإصغاء لأقوالي.. لتأمر السماء بأن يذهب الحقد فلا يقوم له مقام بيننا في أحد الأيام. يا إلهي العظيم! افتح لي قبري ودعني أقضي في (سان لانج)! أريد أن أذهب إلى العالم الذي أعثر فيه على روحي الأخرى والذي سأكون فيه أمًّا تمامًا! أوه! اغفر لي يا سيدي فأنا مجنونة. هذه الألفاظ كانت تخنقني، وقد قلتها. آه! أنت أيضًا تبكي! أنت لا تحتقرني».

وصاحت في شيء من اليأس حين سمعت ابنتها وهي

عائدة من النزهة: «هيلين»! «هيلين»! تعال يا بنتي!

وجاءت الصغيرة ضاحكة باكية. فقد جاءت بفراشة أمسكتها، ولكن عندما رأت أمها تبكي سكتت، وجلست إلى جوارها، وأعطتها جبينها لتقبلها.

قال القسيس: «ستكون جميلة تمامًا».

أجابت الماركيزة وهي تقبل ابنتها بتعبير حار كما لو كانت تسدد دينًا وتود أن تزيل تأنيب الضمير: «إنها تشبه أباها تمامًا».

- أنت محرورة يا ماما.

أجابت الماركيزة: «هيا. دعينا يا ملاكي».

وانصرفت الطفلة غير نادمة، ودون أن تنظر إلى والدتها، بل لعلها كانت سعيدة لتحاشيها وجهها الحزين، كأنما أدركت سلفًا أن العواطف التي ارتسمت عليه كانت ضارة، فالابتسامة هي نصيب الأمومة ولسانها وتعبيرها، ولم تكن الماركيزة تستطيع الابتسام. واحمرت خجلًا وهي تنظر إلى القسيس، فقد شاءت أن تبدو أمًّا ولكنها لم تستطع، كما لم تستطع ابنتها أن تكذب. الواقع أن قبلات المرأة المخلصة ذات عسل إلهي يبث الروح في الملامسة والتربيت أو يخلق نارًا دقيقة تخترق القلب فإذا خلت قبلات من هذه الطلاوة الشهية ظلت مرة جافة. وأحس القسيس بهذا الاختلاف، فقد استطاع أن يستكشف الهوة التي تفصل أمومة البدن وأمومة القلب. وبعد أن

ألقى نظرة فاحصة نحو تلك المرأة قال لها:

- «سيدتي.. إنك على حق، فقد كان الأولى بالنسبة إليك أن تكوني ميتة...»».

- آه أنت تفهم عذابي.. إنني أرى ذلك، ما دمت كقسيس مسيحي قد استطعت أن تستنتج وأن تؤيد القرارات المنكودة التي أوحت إليَّ بها الآلام. نعم. لقد أردت أن أنتحر. ولكن نقصتني الشجاعة الضرورية كي أتمم خطتي، وكان جسمي جبانًا حين كانت روحي قوية، وعندما كفت يدي عن الارتعاد تذبذبت روحي. إنني لا أعرف شيئًا عن سر هذا الصراع وهذه النوبات. إنني لا شك امرأة -مع الأسف العميق- خالية من الثبات في رغباتي، وقادرة على الحب فقط. إنني أحتقر نفسي! وفي المساء عندما كان الجميع في البيت ينامون -كنت أذهب إلى دورة المياه بشجاعة، وبمجرد وصولي إلى أطرافها كانت طبيعتي الهشة تفزع من الفناء.. أنا أعترف لك بنواحي ضعفي، وبمجرد وجودي في السرير كنت أخجل من نفسي، وأعود أشعر بالشجاعة. وفي إحدى هذه اللحظات تناولت «اللودانوم» غير أنني تألمت كثيرًا دون أن أموت، واعتقدت أنني تناولت كل ما كان موجودًا في القنينة في حين كنت قد توقفت عند منتصفها في الحقيقة.

قال القسيس بصوت جهم تخنقه العبرات: «لقد ضعت يا سيدتي، إذ أنك تقدمين إلى الحياة ثم تخونينها، وتبحثين فيها ثم تعثرين فيها على ما تنظرين إليه كتعويض

عن شرورك، ثم إنك ستحملين في يوم من الأيام ألم لذائذك...»».

صاحت هي: «أنا سوف أذهب لأسلم آخر وأثمن ثروات قلبي إلى أول غشّاش يعرف كيف يلعب الملهاة الخاصة بالأهواء، ثم أفسد حياتي، من أجل لحظة لذة غير مؤكدة؟! لا.. فسوف تضني روحي شعلة نقية. سيدي؛ كل الناس يملكون حواسّ الجنس عندهم، أما من يملك روحه، ويرضى على هذا النحو كل مقتضيات طبيعتنا ذات الانسجام النغمي، فلا ينفعل إطلاقًا إلا تحت ضغط العواطف، وهذا لا يلتقي به المرء مرتين في الحياة. إن مستقبلي شنيع... أنا أعرف ذلك؛ فالمرأة لا تساوي شيئًا بغير الحب، والجمال لا يساوي شيئًا بدون اللذة والمتعة. ولكن ألن يعيد المجتمع إثبات سعادتي إذا تقدم إليَّ مرة أخرى؟ إن من واجبي نحو ابنتي أن تكون لها أم شريفة. آه! لقد وقعت في دائرة حديدية لن أخرج منها خالية من عار، وسوف تضايقني واجبات الأسرة المؤداة بلا مثوبة، وسألعن الحياة، ولكن ابنتي ستحظى على الأقل بمظهر لائق للأم. وسأودعها كنوز الفضيلة كي تحل محل كنوز العاطفة التي حرمتها إياها، ولا أريد حتى أن أعيش كي أتذوق المتع التي تهبها سعادة الأولاد للأم، إذ أنني لا أعتقد في السعادة. وماذا سيصبح مصير»هيلين»؟ نفس مصيري بلا شك. فبأي الوسائل تضمن الأمهات لبناتهن أن يصبح الرجل الذي يستسلمن له زوجًا وفقًا لقلوبهن؟

إنكم تفضحون المخلوقات المسكينة التي تبيع نفسها في مقابل بعض الدراهم لرجل عابر، فالجوع والحاجة تحللان هذه العشرة العابرة. هذا في حين يغفر المجتمع، ويشجِّع الزيجات المباشرة، برغم بشاعتها بين فتاة ساذجة ورجل لم تره أكثر من ثلاثة أشهر، فتباع طول حياتها. لا شك أن الثمن مرتفع، إذا كنتم عندما تسمحون لها بالمكافأة على آلامها تقومون بتشريفها. ولكن لا.. إذ أن المجتمع يفتري على أفضل الفاضلات من بيننا! ذاك مصيرنا في وضوح من كلا وجهيه: الدعارة العامة والخزي والفضيحة، أو الدعارة الخفية والشقاء. أما البنات المسكينات اللائي لا يملكن المهر فإنهن يصبحن مجنونات، ويمتن.. لا شفقة بالنسبة إليهن.. وليس الجمال أو الفضائل قيمًا في سوق البشرية، وأنتم تسمّون مجتمعنا ذلك العرين الخاص بالأنانية. على الأقل حرموا الميراث على المرأة! على الأقل أتموا بذلك قانون الطبيعة باختيار رفيقاتكن، وبالزواج منهن بفضل أمنيات القلب».

- سيدتي، أحاديثك تثبت لي أن روح الدين وروح المجتمع لم يبلغاك، وكذلك أنت لا تترددين بين الأنانية الاجتماعية التي تشينك، وأنانية المخلوق التي ستدفعك إلى تمني المتع..

- هل توجد الأسرة يا سيدي؟ إنني أنكر الأسرة في مجتمع يقسم الأملاك عند موت الأب أو الأم، ويوصي كلا بالذهاب إلى حيث يشاء. فالأسرة هيئة وقتية عرضية

يحلها الموت بسرعة فائقة... لقد هدمت قوانينا البيوت والتركات وخلود النماذج والتقاليد. لا أرى سوى خرائب من حولي.

- سيدتي، لن تعودي إلى الله إلا حين تلح عليك يده في الأثقال، وأتعشم أن تجدي الوقت الكافي كي تصلحي ما بينك وبينه. إنك تبحثين عن السلوى لنفسك، وأنت تخفضين عينيك نحو الأرض بدلًا من رفعهما نحو السماء. ولقد أصاب قلبك التفلسف والنفع الشخصي؛ بل إنك لم تعودي تسمعين صوت الدين على نحو ما يفعل الأطفال الخالون من العقيدة في هذا القرن. ولا تولد لذائذ العيش إلا الآلام، وسوف تستبدلين آلامًا بآلام، وهذا هو كل ما في الأمر.

قالت وهي تبتسم بمرارة: «سأكذب نبوءتك. سأكون مخلصة لذلك الذي مات من أجلي».

أجاب القسيس: «الألم لا يعيش إلا في الأرواح التي أعدتها العقيدة الدينية».

وخفض عينيه بإجلال كي لا يدع لنفسه فرصة يرى خلالها الشكوك التي ارتسمت في نظرته، إذ أحزنته طاقة الشكاوى الصادرة عن الماركيزة وبتعرفه على «الأنا» الإنسانية تحت آلاف الأشكال والصور يئس من أن يلين هذا القلب الذي كان الشر قد جففه بدلًا من أن يرققه، والذي لم يكن ثمة أمل في أن تنبت فيه بذرة

الباذر السماوي طالما كان صوتها الناعم فقد خنقته فيه ضوضاء الأنانية الرهيبة. وبرغم ذلك فقد بسط أمام عينيه مثابرة الحواريين والرسل، وعاد مستأنفًا عدة مرات، وهو دائم الأمل في أن يدير تلك الروح النبيلة المزهوة نحو الله؛ ولكنه فقد الشجاعة يوم أدرك أن الماركيزة لم تكن تحبّ التحدث إليه إلا لكي تجد التملق في الكلام عن ذلك الذي مات، ولم يكن يحب أن يجعلها تبتلع من جديد وساطته وهو يقوم بدور الملاطف للأهواء، فكفّ عن محاوراته، وعاد شيئًا فشيئًا نحو قوالب العبارات المعتادة المألوفة، والأماكن المشتركة في المحادثة.

وجاء الربيع ووجدت الماركيزة بعض العزاء عن حزنها العميق، وشغلت نفسها بحكم البطالة بأرضها، وأدخلت على نفسها التسلية بتوزيع الأوامر الخاصة ببعض الأعمال. وفي شهر أكتوبر هجرت قصرها العتيق في «سان لانج» حيث صارت ناضرة جميلة من جديد، في فراغ الألم الذي كان أول الأمر عنيفًا مثل الأسطوانة المقذوفة بشدة ثم صار يخفّ على صورة اكتئاب على نحو ما نتوقف الأسطوانة بعد ذبذبات أضعف فأضعف تدريجيًّا. ويتألف الاكتئاب من سلسلة من الذبذبات النفسية المتشابهة التي تلمس أولاها اليأس وأخيرتها اللذة، ففي الشباب يكون الاكتئاب فجر الصباح ويكون في الشيخوخة الليل.

وعندما عبرت مركبتها القرية تلقت الماركيزة تحايا القسيس الذي كان عائدًا من الكنيسة نحو بيته، ولكن

عندما ردت عليه التحية خفّضت عينيها، وأدارت رأسها كيلا تراه مرة أخرى؛ إذ كان القسيس على حق ضد هذه المسكينة «أرتيميز ديفيز».

3

في سن الثلاثين

كان في حفل السيدة «فيرمياني» شاب من الشباب المتألق الذي ينتظر له مستقبل باهر وكان ينتمي إلى أحد البيوت التاريخية ذات الاسم المرتبط ارتباطًا وثيقًا بمجد فرنسا برغم القوانين نفسها، وقد أعطته هذه السيدة بعض رسائل تزكية إلى صديقتين أو ثلاث من صديقاتها في مدينة «نابولي» بإيطاليا، وكان السيد «شارلي ديفانديبيس» -وهذا اسم ذاك الشاب- قد حضر لكي يشكر لها ذلك، ويستأذنها في التغيب وبعد أن أدى «ديفانديبيس» جملة مهام باقتدار، عينوه أخيرًا ملحقًا مع أحد وزرائنا المفوضين المرسلين إلى مؤتمر «ليباخ» وأراد أن ينتهز فرصة رحلته لكي يدرس إيطاليا.

كان هذا الاحتفال إذن نوعًا من الوداع للمباهج الباريسية، ولتلك الحياة السريعة، ولذلك الإعصار من الأفكار والمتع التي نتجنى عليها غالبًا، ولكن كم يحلو الاستسلام لها! وعلى الرغم من أن «شارل ديفانديبيس» قد اعتاد منذ ثلاث سنوات أن يزور العواصم الأوروبية، وأن يهجرها بفضل نزوات مصيره الدبلوماسي، كان يأسف لمغادرة «باريس» بسبب بعض أشياء قليلة. ولم يعد للنساء تأثير عليه إطلاقًا، إما لأنه نظر إلى العاطفة الصادقة كما لو كانت تحتل مكانًا أكثر مما ينبغي في حياة

رجل السياسة، وإما لأن المشاغل الحقيرة خلال الغزل السطحي كانت تبدو في نظره أفرغ مما ينبغي بالنسبة إلى الروح القوية. ولدينا جميعًا ادعاءات ضخمة فيما يتعلق بقوة الروح. إذ لا يوافق أي رجل في فرنسا -مهما كان مستواه العادي- على أن يعد مجرد روحاني.

وهكذا كان «شارل» برغم صغر سنه يكاد يكون في الثلاثين من عمره قد تعود سلفًا الفلسفة أعني الأفكار والنتائج والوسائل في حين كان الرجال في مثل عمره يشغلون بالعواطف واللذائذ والأوهام، فكبح جماح الحرارة والهوس الطبيعيين لدى الشباب، ودفعهما إلى أعماق روحه التي أسبغت عليها الطبيعة الكرم والأريحية. وكان يجتهد في أن يكون مدبرًا رزينًا، وفي أن يصبّ الثروات الأخلاقية التي كانت من نصيبه في أنماط وفي أشكال محببة وفي حِيَل مغرية؛ وهي المهمة الحقيقية للطموحين، ومجرد دور بائس أو مشغولية بقصد بلوغ ما يطلق عليه اسم: المركز المرموق؛ وأخذ يلقي نظرة أخيرة على صالونات الرقص. وقبل أن يغادر الحفل، أراد بلا شك أن يحمل معه صورة ذهنية للمكان، مثل أحد نظّارة الأوبرا الذي لا يخرج من «اللوج» دون أن ينظر إلى اللوحة الأخيرة ولكن -بنوع من الخيال المتطرف الذي يسهل فهمه- كان السيد «ديفانديتيس» يدرس الحركة ذات الطابع الفرنسي البحت، والوجوه المتألقة الضاحكة في ذلك الاحتفال الباريسي، مع مقارنتها في الفكر بالسحنات الجديدة والمناظر

الرائعة التي تنتظره في (نابولي) حيث عقد العزم على أن يمضي عدة أيام، قبل أن يتسلم عمله. وبدا كأنه يقارن فرنسا المتغيرة، التي تستغرق دراستها أمدًا طويلًا، ببلاد لم يكن يعرف عاداتها ومواقعها إلا عن طريق المعلومات السمعية المتناقضة، أو عن طريق كتب معظمها سيئ الإعداد. ومرت حينئذ برأسه بعض الأفكار الشاعرية إلى حد ما، من تلك الأفكار التي أصبحت اليوم عادية جدًّا، وأجابت على غير علم منه عن تمنيات قلبه الخفية الذي كان شديد التقصي أكثر مما كان مدفوعًا بدافع الملل، كما كان خاليًا أكثر مما كان ذابلًا.

كان يقول لنفسه: «هاك أكثر السيدات أناقة وغنى ومكانة في (باريس) ها هنا توجد شهيرات العصر، وذائعات الصيت المرموقات وذوات السمعة الأرستقراطية والأدبية.. ها هنا فنانون ها هنا رجال السلطة. وبرغم ذلك لا أرى سوى حيل صغيرة وألوان من الغرام الذي يولد ميتًا، والابتسامات غير الناطقة، وازدراء بلا مسوغ ونظرات خالية من اللهب، وفكر ضخم يبعثر بلا هدف.. كل هذه الوجوه البيضاء والوردية تبحث عن السرور أقل مما تبحث عن التسري؛ إذ لا يوجد انفعال واحد صادق. وإذا شئت فقط الريشات الموضوعة وضعًا جيدًا والكريشات الشفافة الناضرة، والتزين الجميل، والنساء النحيفة، إذا كانت الحياة في نظرك هي مجرد واجهة سطحية تمس مسًّا خفيفًا، فهاك إذن عالمك. هل ترضى

بهذه العبارات الخالية من المدلول، وتلك التصنعات الساحرة، ولا تعنيك عاطفة في القلوب؟ عن نفسي أشعر بالاشمئزاز من كل هذه الحيل التافهة التي تنتهي بزواج، ومنصب مساعد محافظ أو مدير محلي للضرائب، وإذا كان ثمة حب فعن طريق الترتيبات السرية طالما كانت أمثال هذه العاطفة مصدر خجل. إنني لا أرى واحدًا من هذه الوجوه الفصيحة يكشف عن روح تخلو إلى فكرة كما تخلو إلى تأنيب الضمير، فالندم والشقاء يختفيان في خجل وراء المداعبات والملح؛ ولا أكاد ألحظ واحدة من تلك النساء اللائي كنت أحب نزالهن واللائي يسقن المرء إلى هاوية. وأين يجد المرء هذه الدفعة في باريس؟ فالخنجر تحفة تعلق فيها على مسمار ذهبي ويزين بغلاف جميل؛ وكل النساء والأفكار والعواطف تتشابه، ولم تعد هناك أي ميول، لأن الفرديات اختفت، وتساوت كل الرتب والعقول والثروات، ولبسنا جميعًا الملابس السوداء كأننا نلبس الحداد على فرنسا الميتة. إننا لا نحب الأقران. وبين عاشقين من العشاق لا بد أن تكون ثمة فوارق تُزال وأبعاد تغطي؛ وسحر الحب ذاك قد اختفى منذ 1789! وليس مللنا وعاداتنا الباهتة إلا نتيجة النظام السياسي. وفي إيطاليا كل شيء على الأقل مرسوم بشكل قاطع، والنساء هناك لا تزال حيوانات مؤذية، أو غانيات خطرة، ليس لها من العقل أو المنطق إلا ما يتصل بأذواقهن ورغباتهن، وينبغي الحذر منهن كما يحذر المرء من النمور».

وجاءت السيدة «فيرمياني» تقطع هذه المناجاة ذات الألف فكرة من الأفكار المتناقضة المضطربة غير المستوفاة، وكل فضل الأحلام يتركز في غموضها... أليست الأحلام ضربًا من البخار الذهني؟

قالت وهي تأخذ بذراعه: «أريد أن أقدمك إلى السيدة التي ترغب رغبة كبيرة في التعرف عليك، بعد كل ما سمعته عنك».

وقادته إلى «صالون» مجاور، حيث أشارت بإيماءة وبابتسامة، وبنظرة باريسية محضة نحو امرأة جالسة عند ركن المدفأة.

سأل الكونت «ديفاندينيس» بقوة: «من هي؟».

- هي امرأة من المؤكد أنك حاورت نفسك بشأنها أكثر من مرة، لكي تثني عليها، أو تلعنها.. امرأة تعيش في العزلة.. سر حقيقي.

- لو كنت رحيمة مرة واحدة في حياتك عن فضل فأخبريني باسمها!

- الماركيزة «ديجليمون».

- سوف أذهب لآخذ دروسًا بالقرب منها، فقد جعلت من زوج ضئيل القدر رجلًا لا مثيل له في فرنسا، بل جعلت من رجل تافه كفاية سياسية. ولكن أخبريني.. هل تعتقدين أن لورد «جرينفيل» مات من أجلها، كما

زعمت بعض النساء؟

- من المحتمل؛ فمنذ تلك المغامرة الصحيحة أو غير الصحيحة تغيرت المرأة المسكينة. لم تعد تدخل المجتمعات. لا شك أن هذا حدث من أحداث باريس أن تبقى فيها أربع سنوات. وإذا كنت تراها هنا.. وتوقفت السيدة «فيرمياني» ثم أضافت في تعبير رقيق.. إنني أنسى أنه ينبغي علي أن أصمت. اذهب وتحدث إليها.

بقي «شارل» لحظة ساكنًا، وقد أسند ظهره إلى إفريز الباب وهو مشغول تمامًا بفحص امرأة صارت مشهورة، دون أن يلم أي شخص بالدواعي التي بنيت عليها شهرتها. والمجتمع يقدم عادة الكثير من هذه النوادر الغريبة. ومن المؤكد أن شهرة السيدة «ديجليمون» لم تكن أكثر غرابة من شهرة بعض الرجال العاملين دائمًا في عمل مجهول.. فرجال الإحصاء يقال إنهم متعمقون في الإيمان بالحساب الذي يحرصون على إذاعته.. والسياسيون الذين يعيشون على مقال صحيفة.. والمؤلفون أو الفنانون الذين يظل عملهم دائمًا محصورًا في الأوراق المالية ورجال علماء مع أولئك الذين لا يعرفون شيئًا في العلم، كما كان «اسجانا ريل» متخصصًا في اللاتينية مع أولئك الذين لا يفقهون حرفًا في اللاتينية ورجال تُعزى إليهم قدرات وكفايات متفقة في نقطة واحدة سواء كانت هذه النقطة هي إدارة الفنون أو مهمة ذات شأن كبير فهذه العبارة الرائعة: «ذاك تخصص» يبدو أنها ابتكرت لهذه الأنواع من الحيوانات عادمة الرأس

في السياسة والأدب.

وبقي «شارل» مدة أطول في تأمل لم يكن يريده، ولم يرض عن كونه قد انشغل بامرأة إلى هذه الحد القوى. لكن حضور هذه المرأة أيضًا دلل على مدى خطأ الأفكار التي كان الدبلوماسي الشباب قد اعتقدها منذ لحظة سابقة عن مظهر الحفل.

وكانت الماركيزة حينذاك في سن الثلاثين، وكانت جميلة برغم نحافة شكلها وبرغم رقتها المتناهية؛ وكان أكبر عوامل جاذبيتها يتركز في سيماء وجهها الذي كان هدوؤه ينم عن عمق عجيب في الروح، وكانت عينها ممتلئة بالبريق ولكن كأنها محجوبة بفعل فكر دائم، فتفصح عن حياة محمومة وعن استسلام عريض. ونادرًا ما كانت جفونها ترتفع بعد أن انخفضت على الدوام، نحو الأرض في تعفّف. وإذا كانت تلقي بعض النظرات حولها فقد كانت تؤديها في حركة حزينة؛ لو رأيتها لقلت إنها تحفظ نار عينيها من أجل غيبية، كذلك كان كل رجل متميز يشعر بأنه مجذوب جذبًا غريبًا نحو هذه المرأة الرقيقة الصامتة.

وإذا كان يحلو للفكر أحيانًا أن يستطلع أسرار رد الفعل المستمر الذي كان يحدث بداخلها للحاضر نحو الماضي، وللمجتمع إزاء عزلتها، فإن الروح أيضًا لم يكن اهتمامها أقل بالتعرف على أسرار قلب مغرور بآلامه بشكل ما. وليس فيها فضلًا عن ذلك ما يكذّب الأفكار التي كانت توحي بها في مبدأ الأمر. وككل النساء تقريبًا من ذوات

الشعر الطويل جدًّا، كانت شاحبة اللون، كما كانت بيضاء بياضًا ناصعًا... وكانت بشرتها ذات النعومة العجيبة تنبئ بما لا يدع مجالًا للخطأ عن حساسية حقيقية تعززها طبيعة ملامحها التي تميزت بذلك الكمال الرائع الذي يسكبه المصورون الصينيون على أوجههم الوهمية. ولعل رقبتها كانت طويلة بعض الشيء، ولكن هذه الأنواع من الأعناق هي الأكثر رقة، وتهب رؤوس النساء متشابهات غامضة مع تموجات الثعابين الجذابة. ولو لم توجد علامة واحدة من آلاف العاملات التي تتكشف بها أشد الطباع خفاء على الملاحظ لكان يكفيه أن يفحص بانتباه حركات الرأس والتواءات العنق الشديدة التنويع والشديدة التعبير معًا لكي يحكم على امرأة.

وكانت أناقة زيّ السيدة «ديجليمون» منسجمة مع الفكر المسيطر على شخصها، وكانت ضفائر شعرها المعقوصة تنشئن فوق رأسها تاجًا عاليًا لا تداخله أي زينة لأنها كانت قد فارقت العمر الذي كانت تهتم فيه بدراسة زينة تجميلها وودعته إلى الأبد. كذلك لا يأخذ عليها المرء إطلاقًا تلك التدبيرات الصغيرة في التدلل التي تشوّه نساء كثيرات. ولكن مهما كان تواضع الصديري الذي كان تلبسه فلم يكن يخفي تمامًا رشاقة خصرها، ثم كانت نخفخة «فستانها» الطويل تبدو في تفصيلته الرفيعة الشأن. ولو كان مباحًا للمرء أن يبحث عن الأفكار في تنسيق القماش لأمكن القول أن الثنايا العديدة البسيطة في ردائها كانت

تبلغ بها مصافّ أعلى النبلاء. وعلى الرغم من ذلك كانت تفتضح ضروب الضعف الثابتة عند المرأة من مدى العناية الدقيقة التي تبذلها في يدها وقدمها. ولكن إذا كانت تكشف يدها وقدمها في بعض المتعة، فقد كانت يصعب على أشد المنافسات دهاء أن تكتشف في حركاتها أثر عناية أكبر مما يلزم حيثما بدت عفوية أو كانت راجعة إلى عادات طفولية، وكانت هذه البقية من الدلال تغتفر مع شيء من التغاضي الرقيق.

ولا يستطيع المرء أن يعبر مارًّا بهذه الكومة من الملامح، وهذه المجموعة من الأشياء الصغيرة التي تؤدي إلى جمال المرأة أو قبحها، وإلى فتنتها أو عدم قبولها، دون أن يأخذ في بيانها، وبخاصة عندما تكون الروح كما هو الحال عند السيدة «ديجليمون» واسطة العقد بين كل التفصيلات بحيث فرضت عليها وحدة شهية؛ كذلك كانت هيأتها متناسبة تمامًا مع طابع وجهها ومع أناقة زيِّها. في بعض السن فقط تعرف بعض النساء المنتقاة وحدها كيف تنسق لغتها مع وضعها، فهل الحزن أو الهناء والسرور هو الذي يعير المرأة في سن الثلاثين -المرأة السعيدة أو الشقية- سر ذلك المحيا الفصيح؟ سيظلّ ذلك دائمًا لغزًا حيًّا يفسره كلٌّ وفقًا لرغباته أو أمانيه أو نظامه. وكان كل شيء -الطريقة التي تحفظ بها مرفقيها مستندين إلى ذراعي مقعدها، وتصل أطراف أصابعها في كل يد على طريقة اللاعب، واستدارة رقبتها، وعدم الاعتناء بجسدها

الضعيف المرن في وقت معًا الذي كان يبدو مكسورًا برشاقة فوق المقعد، وتخلية ساقيها، وعدم المبالاة بوضعها، مع حركاتها المليئة بالتعب- كل شيء كان يوحي بامرأة لا تجد أية متعة في الحياة، ولم تعرف أي لذائذ الحب، ولكن عاشتها في الأحلام، وتنحني تحت الأثقال التي تجثم بها الذاكرة فوقها.. امرأة يئست منذ وقت طويل في المستقبل، وفي نفسها.. أو امرأة خالية من المشغوليات تأخذ الفراغ على أنه عدم.

وأعجب «شارل ديفاندينيس» بهذه اللوحة الرائعة، ولكن بوصفها نتاج صنعة أكثر براعة من السيدات العاديات، وكان يعرف «ديجليمون»، ومن أول نظرة يلقيها على تلك المرأة -التي لم يكن قد رآها من قبل- استطاع الدبلوماسي الشاب حينذاك أن يتعرّف على اختلال النسب والتناقضات الشديدة إذا شئنا استخدام اللفظ القانوني بين الشخصين، بحيث صار من المستحيل بالنسبة إلى الماركيزة أن تحب زوجها. وبرغم ذلك تمسكت السيدة «ديجليمون» بسلوك لا لوم عليه، ولا تثريب وبقيت فضيلتها مثار تقدير أعلى من كل الأسرار التي يستشعرها فيها من يلاحظها. وبمجرد انقضاء حركة الاندهاش الأولى بحث «ديفاندينيس» عن أفضل طريقة للاقتراب من السيدة «ديجليمون» وأراد بحيلة تافهة من حيل الدبلوماسية أن يربكها لكي يعرف كيف تستقبل إحدى البلاهات.

قال وهو يجلس بالقرب منها: سيدتي، لقد علمت عن طريق فضول موفق أنني حصلت -لا أدري بأي صفة- على حظ التفاتك. إنني أدين لك بتشكراتي بالقدر الذي يناسب ما لم أحظ به إطلاقًا من الفضل المماثل، ولعلك تحصين عليَّ أيضًا أحد أخطائي. وبرغم ذلك فلا أود أن أكون متواضعًا.

قالت وهي تضحك: لا شك أنك مخطئ يا سيدي إذ يجب أن يترك الغرور لأولئك الذين لا يملكون سواه يضعونه على واجهتهم.

وبدأت محادثة حينذاك بين الماركيزة والشاب اللذين طرقا -وفقًا للعرف الجاري- في لحظة واحدة جملة من الموضوعات: التصوير والموسيقى والأدب والسياسة والناس والأحداث والأشياء. ثم أدركا في منحدر غير محسوس الموضوع الأبدي للمحادثات الفرنسية والأجنبية وهو موضوع الحب والعواطف والنساء.

- إننا عبيد.

- إنكن ملكات.

ومن الممكن أن تخلص العبارات اللطيفة المتبادلة بين «شارل» والماركيزة إلى هذا التعبير البسيط عن كل الأحاديث الحاضرة والمستقبلة الجارية على هذا النحو. ألا تعني هاتان الجملتان دائمًا أن تقولا في وقت واحد «اجعلي حبك لي.. سوف أحبك».

صاح «شارل ديفانديس» برقة: سيدتي، إنك تجعلينني أندم ندمًا شديدًا لمغادرة باريس، فمن المؤكد أنني لن أجد في إيطاليا ساعات بمثل هذه اللطافة التي جرت الآن.

- من المحتمل أن تعثر على السعادة يا سيدي، وهي أفضل بكثير من كل هذه الأفكار الذكية، صادقة كانت أو كاذبة، التي تقال كل ليلة في باريس.

وحصل «شارل» -قبل أن يحيي الماركيزة- على الإذن بزيارتها من أجل تقديم تحيات الوداع، واعتبر نفسه سعيدًا جدًّا لأنها أعطت رجاءه شكلًا من أشكال الإخلاص عندما راح يغط في نومه في نفس الليلة أو في أثناء النهار في اليوم التالي؛ إذ استحال عليه أن يطرد ذكرى تلك المرأة، فأحيانًا كان يتساءل: فيم تمييز الماركيزة له؟ ماذا كانت أغراضها عندما طلبت رؤيته. وبنى على ذلك تعليقات لا تنفد. وأحيانًا كان يعتقد أنه وجد الدوافع إلى هذا الفضول فينتشي عند ذلك بالأمل أو يبرد، وفقًا للتفسيرات التي كان يفسر لنفسه بها هذا التمني المهذب الشائع في باريس، وأحيانًا كان ذلك هو كل شيء وأحيانًا لم يكن ثمة شيء. وفي النهاية أراد أن يقاوم ذلك الميل الذي كان يجذبه نحو السيدة «ديجليمون» ولكنه ذهب إليها، فإن هناك أفكارًا نطيعها دون أن نعرفها، فهي توجد فينا دون أن نعلم. وبرغم أن تلك الفكرة كان يمكن أن تبدو متناقضة أكثر مما تبدو صحيحة فإن كل شخص ذي إيمان صادق يجد فيها ألف دليل في حياته.

وعندما ذهب إلى بيت الماركيزة رضخ «شارل» لإحدى العبارات القائمة سلفًا ضمن تجربتنا؛ وليست غزوات فكرنا في النهاية إلا تطورات حسية؛ «فامرأة في سن الثلاثين» تجد ميولًا لا تقاوم نحو شاب، ولا شيء أكثر طبيعية وأشد نسيجًا وحبكة وأفضل في التعيُّن سلفًا من الارتباطات العميقة التي تعرض نماذجها في المجتمع بين امرأة مثل الماركيزة وشاب مثل «ديفانديس». والواقع أن «الفتاة» تكون عادة ذات أوهام جمة وعديمة التجربة أكثر مما ينبغي، وذات جنس يبالغ في تحالفه مع حبها إلى درجة أن الشاب لا يمكن أن يرضي غروره بسببها في حين تعرف «المرأة» عادة كل مدى التضحيات الضرورية، فهناك حيث تنقاد «إحداهما» للفضول والإغراءات الغريبة على إغراءات الحب تكون «الثانية» مطيعة لعاطفة واعية. «فالأولى» تستسلم و «الثانية» تختار أليس هذا الاختيار نفسه سلفًا تملقًا ضخمًا؟

وتكون «المرأة» المجربة فيما يبدو مزودة بمعرفة تكاد تكون دائمًا قد دفعت ثمنها غاليًا من تعاستها، فتعطي أكثر حين تعطي من نفسها، في حين لا تستطيع «الفتاة» الجاهلة السريعة التصديق في عدم علمها بشيء أن تقارن وتوازن، أو أن تقدر شيئًا قدره، إذا أنها تتقبل الحب وتدرسه. فإحداهما تثقفنا وتنصحنا في السن الذي نعشق فيه بأن نرخي أزمتنا للقياد، حيث تكون الطاعة نفسها متعة ولذة، على حين تريد الأخرى أن تتعلم كل شيء، وتكشف

سذاجتها حيثما أظهرت الأولى رقتها. وبينما لا تعطيك تلك فرصة الانتصار غير مرة واحدة، ترغمك هذه على النزال المتصل. والأولى لا تملك سوى الدموع والمتع، في حين تملك الثانية الشهوات وتأنيب الضمير.

ولكي تصبح فتاةٌ عشيقة لا بد أن تكون فاسدة إلى حد كبير، وعندئذ يفارقها المرء مشمئزًا. أما المرأة فتجد ألف وسيلة للاحتفاظ بقدرتها وكرامتها معًا في وقت واحد. وبينما تكون الأولى خاضعة خضوعًا مطلقًا، وهي تبذل ضمانات الراحة التعيسة، تتنازل الثانية عن الكثير من أجل ألا تتطلب من الحب آلاف التحولات الخاصة به. فالواحدة تتخلى عن شرفها بمحض إرادتها في حين ترتكب الأخرى جناية قتل أسرة بأسرها لمصلحتك. ولا تملك الفتاة سوى دلالها، وتعتقد أنها عبرت عن كل شيء حين تخلع ملابسها؛ في حين تملك المرأة العديد من التعبيرات والأقوال وتتخفى وراء آلاف الأقنعة، فهي تتحسس وتربِّت على كل ألوان الزهو والغرور، أما المستجدة فلا تتملق سوى لون واحد حسب من هذه الألوان.

ويجيش بانفعالات المرأة في سن الثلاثين تردد ورعب وخوف واضطراب مما لا يلقاه المرء إطلاقًا في حب الفتاة. وعند بلوغ هذه السن تسأل المرأة الشاب أن يرد إليها التقدير الذي ضحت به من أجله؛ إذ أنها لا تحيا إلا من أجله، وتشغل نفسها بمستقبله، وتريد له حياة جميلة، وتنظمها له على أروع صورة، وتطيع وترجو وتأمر، تضع

من نفسها وتعلو بنفسها، وتعرف كيف تواسي في آلاف المناسبات، حيث لا تعرف الفتاة سوى التأوُّه. وفي النهاية تستطيع المرأة في سنّ الثلاثين -بالإضافة إلى كل المحاسن التي يتميز بها وضعها- أن تجعل من نفسها فتاة. وأن تلعب كل الأدوار، وأن تتميز بالحياء والخفر، وتتحلى حتى بالشقاء. فبين كل منها ذلك الاختلاف الذي يصعب قياسه عادة بين ما يكون متوقعًا وما لا يُتوقع، أو بين القوة والضعف. فترضي المرأة في سن الثلاثين كل شيء وليس ضروريًّا أن ترضي الفتاة شيئًا وإلا انحدرت بكيانها.

وتنمو هذه الأفكار في قلب الشاب، وتؤلف لديه أقوى العواطف والأهواء، لأن هذه هي التي توّحِد لديه بين العواطف المصطنعة الصادرة عن العرف الأخلاقي وبين عواطف الطبيعة الحقيقية.

ويكون عادة الإجراء الرئيسي الحاسم في حياة النساء على وجه الدقة هو الذي تنظر إليه المرأة دائمًا بوصفه غير ذي دلالة؛ فإذا تزوجت المرأة لم تعد تنتمي إلى أحد، وإنما تصبح ملكة المسكن البيتي وعبْدته. ولا تتفق قداسة النساء مع واجبات المجتمع وحرياته، وتحرير النساء إفساد لهن. وعند الموافقة على حق نفاذ غريب إلى محراب الأسرة، أليس في ذلك خضوع ونزول عند رغباته، وعندما تجذبه المرأة إلى الداخل، أليس ذلك خطأ، أو بتعبير دقيق أليس ذلك ابتداء للخطأ؟ لا بد من قبول هذه النظرية في كل صرامتها أو تبرئة الأهواء.

ولقد عرف المجتمع في فرنسا حتى اليوم كيف تبقى في وسط المسافة؛ إذ لا يعبأ أهل فرنسا بالشقاء، وكأنهم أهل (إسبرطة) الذين كانوا يعاقبون عدم الحذق كما لو كان هو سبب السرقة. ولكن قد يكون هذا النظام حكيمًا جدًّا، ذلك أن الاحتقار العام ينشئ أبشع العقوبات جميعًا في أنه ينال من المرأة في قلبها. وينبغي أن يتمسك النساء كلهن بأن يكنّ موضع تشريف؛ لأنهن لا يستطعن العيش بدون الاحترام والتقدير. إنهن كذلك يطلبن من الحب أول عاطفة، فأشد النساء فسادًا من بينهن يشترطن قبل كل شيء عفوًا وغفرانًا عن الماضي ويتبعن مستقبلهن ويسعين لإفهام العشيق الجديد أنهن يستبدلن التكريمات التي يأباها عليهن المجتمع بالهناء الذي لا يقاوم. وليست بامرأة تلك التي تستقبل شابًّا لديها لأول مرة، ولا تدرك بعض هذه الأفكار عندما تكون بمفردها معه، وعلى الخصوص إذا كان ذلك الشاب مثل «شارل ديفاندينيس» تامّ التكوين ولطيفًا. وبالمثل قليل جدًّا من الشبان تنقصه إقامة بعض أمانيه الخفية فوق واحدة من ألف فكرة مما يسوّغ حبه الفكري للنساء الجميلات اللطاف السخيات البائسات على نحو ما كانت السيدة «ديجليمون»».

كانت الماركيزة مضطربة، وهي تنتظر الإخطار بوصول السيد «ديفاندينيس» وأوشك ذلك أن يكون مخجلًا برغم التأكيد الذي يكاد يكون نوعًا من العادة لدى الدبلوماسيين، غير أن الماركيزة لم تلبث أن أعطت

نفسها تلك المسحة العاطفية التي تحتمي تحتها النساء ضد تفسيرات الغرور. وتستبعد هذه الهيئة كل فكرة خلفية، وتجعل الأمر من نصيب العاطفة، إن صح هذا التعبير، مع تلطيفه بأساليب من الآداب العامة. وتبقى النساء في ذاك الوضع المبهم عندئذ أطول مدة يرغبن فيها كأنهن عند تقاطع الطريق الذي يؤدي إما إلى الاحترام أو إلى عدم المبالاة أو إلى الهوى الشديد.

وفي سن الثلاثين فقط تستطيع المرأة أن تعرف حيل هذا الموقف، فهي تعرف كيف تضحك فيه، وكيف تمزح، وكيف تترقق دون أن تعرض نفسها لأية شبهة. وهي تملك عندئذ الكياسة اللازمة، لكي تهاجم كل خيوط الحساسية في الرجل، ولكي تدرس الأصوات التي تستخرجها منها. فصمتها على نفس مستوى خطورة أقوالها. ولا تستطيع إطلاقًا إذا كانت في تلك السن أن تعمد إلى تخمين أصريحة هي أم زائفة؟ أهي تسخر أم أنها ذات إيمان صادق في أمانيها؟ فبعد أن تكون الواحدة منهن قد أعطتك حق النزال أمامها، تستطيع فجأة بكلمة أو بنظرة أو بإحدى الحركات التي يعرفن مدى قوتها، أن تنهي النزال، وأن تهجرك، وأن تبقى عشيقة سرك مع احتفاظها بحريتها في أن تضحي بك في دعابة، وفي أن تنشغل بك محتمية بضعفها وبقوتك. وبرغم أن الماركيزة احتلت مكانها في أثناء هذه الزيارة الأولى، فوق تلك الأرض المحايدة، عرفت كيف تحافظ هنالك على أعلى

كرامة للمرأة. فقد كانت آلامها الخفية دائمًا فوق مرحها المصطنع كسحابة خفيفة تحجب الشمس بطريقة ضعيفة وخرج «ديفاندينيس» بعد أن كان قد استعذب خلال تلك المحادثة لذّات مجهولة، ولكنه بقي مقتنعًا بأن الماركيزة كانت من تلك النساء اللائي يكلف غزوهن غاليًا إذا أراد المرء أن يشرع في حبهن.

قال بعد خروجه: سوف تكون تلك عاطفة من العواطف الطويلة المدى، أو تجاوبًا يجهد «نائب رئيس» طموح مثلي! وبرغم ذلك لو أنني أردت حقًّا.. إنه أمر مقدور.

لو أنني أردت حقًّا! قد أطاحت أمثال هذه العواطف دوامًا بأصحاب المزاج العنيد. وفي فرنسا يؤدي حب الذات إلى الهوى الشديد.

وعاد «شارل» مرة أخرى إلى السيدة «ديجليمون» وأدرك أنها تجد متعة في محادثته، وبدلًا من أن يستسلم عندئذ بسذاجة إلى هناء الحب، أراد أن يلعب دورًا مزدوجًا، فحاول الظهور بمظهر العاشق، ثم حاول تحليل سير هذه الحيلة الماكرة ببرود، أي أن يكون محبًّا ودبلوماسيًّا معًا. ولكنه كان كريمًا وشابًّا، وكان لا بد أن يسوقه هذا الاختبار إلى حب بغير حدود، وذلك لأن الماركيزة كانت سواء مصطنعة أم طبيعية أقوى منه دائمًا. وفي كل مرة يخرج «شارل» من بيت السيدة «ديجليمون» كان يصر على حذره، فيخضع مواقف التقدم التي كانت روحه تمرّ بها لتحليل صارم يؤدي إلى بتّر انفعالاته الخاصة.

قال لنفسه في الزيارة الثالثة: اليوم أدركت من كلامها أنها كانت شقية جدًّا، ووحيدة في الحياة، ولو لم تكن ابنتها لرغبت في الموت بتلهف شديد. لقد كانت في حالة إذعان كامل. والواقع أني لست أخًا لها ولا قسيس الاعتراف... فلماذا أسرّت إلي بكل أحزانها؟ إنها تحبني.

وبعد يومين لعن الأخلاق الحديثة وهو في الطريق إليها، وجعل يحدث نفسه: «يأخذ الحب لون كل قرن؛ ففي 1822 كان مذهبيًّا، وبدلًا من أن يثبت نفسه على نحو الزمن السالف بوقائع، صار موضع نقاش، وموضع تعليق، وموضع خطب المنابر. وخلصت النساء بشأنه إلى ثلاث وسائل: فهن أولًا يحاولن أن يضعن عاطفتنا موضع التساؤل ويرفضن أن يمنحننا القدرة على الحب بقدر ما يحببن، دلال! بل تحدّ حقيقي حملته لي الماركيزة هذه الليلة، ثم إنهن يظهرن بمظهر الشديدات التعاسة كي يثرن أريحيّاتنا الطبيعية أو حبنا الذاتي. ألا يدعو إلى ملق الشاب أن يجد نفسه يسرّي عن نكبة كبيرة؟ وفي النهاية هن مصابات بهوس العذرية أو البكارة! ولا بد أنها ظنت أنني أنظر إليها على أنها عذراء لم تمسّ. لا شك أن ثقتي الصادقة تستحق أن تصير نظرية رائعة».

وفي يوم من الأيام بعد أن أجهد أفكاره عن التحدي تساءل: «إذا كانت الماركيزة مخلصة، كانت كل هذه الآلام في مقدور بشر، فلماذا تظهر بهذا الإذعان؟ لقد كانت تعيش في عزلة عميقة، وتقتات في صمت أحزانها

التي جعلته يستنتجها ويدركها بصعوبة، من لهجة مغصوبة في الهَتَفات».

ومنذ تلك اللحظة اهتم «شارل» اهتمامًا حارًّا بالسيدة «ديجليمون» وبرغم ذلك وجد «ديفانديس» -وهو في طريقه إلى موعد لقاء معتاد صار بالنسبة إليهما ضروريًّا كأنها ساعة محجوزة بغريزة متبادلة -وجد أن عشيقته لا تزال بارعة أكثر مما هي صادقة، وكانت قولته الأخيرة هي: «هذه المرأة بالتأكيد ماهرة جدًّا».

دخل ووجد الماركيزة في وضعها المفضل، وهو وضع مليء بالاكتئاب، ورفعت عينيها نحوه دون أن تبدر منها حركة، وألقت إليه واحدة من تلك النظرات المليئة التي تشبه الابتسامة، وعبرت السيدة «ديجليمون» عن ثقة وصداقة حقيقة، ولكن لم يصدر أي تعبير عن الحب. وجلس «شارل» ولم يستطع أن ينطق بكلمة. فقد كان منفعلًا بأحد تلك الإحساسات التي يعوزها التعبير.

قالت بنبرة صوت عطوف: «ماذا بك؟».

- لا شيء. بلى.. أفكر في شيء لم يشغلك إطلاقًا إلى الآن.

- وما هو؟

- ولكن... لقد انتهى المؤتمر.

- هيه... هل يجب إذن أن تذهب إلى المؤتمر؟

وكانت الإجابة المباشرة أكثر بلاغة وأشدّ رقة من كل التصريحات، غير أن «شارل» لم يؤدها. وأبدت هيئة السيدة «ديجليمون» صراحة وسلامة نية في صداقتها تحطم كل تدبيرات الغرور، وكل الآمال في الحب، وكل التحديات الدبلوماسية. وكانت تجهل -أو تظهر بمظهر من تجهل تمامًا- أنها موضوع حب. وعندما رجع «شارل» إلى نفسه بارتباك تام اضطر إلى أن يعترف بأنه لم يأت بفعل، ولم يبُح بقول يسمح لتلك المرأة بأن تفكر في ذلك. ووجد السيد «ديفانديتيس» الماركيزة في أثناء تلك السهرة كما كانت دائمًا: بسيطة، عطوفًا صادقة في ألمها، سعيدة بأن يكون لها صديق، فخور بأن تلقى روحًا استطاعت أن تصغي لروحها. لم تكن تذهب إلى أبعد مما هو موجود أمامها، ولم تكن تفترض أن امرأة تستطيع أن تقع في إغراء مرتين. ولكنها عرفت الحب واحتفظت به للآن، وهو لا يزال بدمه في قاع قلبها. ولم تكن تتخيل أن السعادة تستطيع أن تحمل إلى امرأة مرتين هذه النشوات، لأنها لم تكن تعتقد فقط في الفكر، ولكن في الروح أيضًا. ولم يكن الحب عندها ضربًا من الإغواء، لأنه كان يطابق كل الإغراءات النبيلة.

وعندئذ عاد «شارل» شابًا وقهره رونق ذلك الطبع العظيم، وودّ لو يتقدم في معرفة كل هذه الأسرار الخاصة بهذا الوجود الذي أذبلته المصادفة أكثر مما أذبلته خطيئة ما. ولم تلق السيدة «ديجليمون» سوى نظرة إلى صديقها

وهي تسمعه يستفسر عن تزايد الحزن الذي زوّد جمالها بكل تناسقات الشقاء، ولكن كانت هذه النظرة العميقة كخاتم يُمهر به عَقْدٌ عليّ.

- لا تسلني مثل هذه الأسئلة بعد الآن... منذ ثلاث سنوات، وفي يوم مثل هذا، مات ذلك الذي كان يحبني.. الرجل الوحيد الذي كنت أزمع أن أضحي من أجل سعادته وهنائه، ولو كان ذلك على حساب قدري وكرامتي... مات لينقذ سمعتي وشرفي. ولقد انتهى ذلك الحب شابًا بريئًا مليئًا بالغرور. لقد جرفتني الغواية بما يدفع بنات عديدات إلى الضياع.. برجل ذي أشكال مقبولة ولكنه لا يساوي شيئًا. قبل أن أستسلم لعاطفة مشبوبة دفعني إليها قدر فريد. وقد جردني الزواج من آمالي واحدًا بعد الآخر. واليوم فقدت السعادة المشروعة، كما خسرت السعادة التي تسميها إجرامية، دون أن أعرف ما هي السعادة ولم يبق لي شيء. وإذا كنت لم أعرف كيف أموت فعليّ أن أظل على الأقل مخلصة لذكرياتي.

ولم تبك وهي تقول هذه الكلمات، وخفضت عينيها، ولفت أصابعها التي كانت قد شبكتها وفقًا لحركتها المعتادة لفًّا خفيفًا، وقالت ذلك ببساطة، ولكن لهجة صوتها كانت لهجة يأس عميق بالدرجة التي تبدو في عمق حبها، ولم تدع أي أمل «لشارل». واستهوى «ديفانديتيس» ذلك الوجود الرهيب مُترجمًا في ثلاث عبارات، ومعلقًا عليه في صورة لفة يد، ثم ذلك الألم القوي في امرأة ضعيفة، وتلك

الهوة السحيقة داخل رأس جميل، وأخيرًا الكآبات ودموع حداد ثلاث سنوات استهواه ذلك كله، وبقي صامتًا في تواضع إزاء تلك المرأة العظيمة النبيلة. ولم يعد يرى أي جمال مادي من ضروب الجمال اللذيذة الكاملة، ولكنه صار يرى الروح الحساسة على هذا النحو من أعلى درجات الكمال ولا في النهاية ذلك الوجود المثالي الذي طالما حلم به وهمًا، وطالما ناداه بشدة، كل أولئك الذين يبثون الحياة في العشق، ويبحثون عنه في حماس، وشوق، وغالبًا ما يموتون قبل أن يستطيعوا التمتع بكل كنوزه التي حلموا بها.

ووجد «شارل» أن أفكاره كانت ضيقة الأفق وهو يسمع لغة كلامها، أمام ذاك الجمال الرفيع. وإزاء عدم قدرته -حيث كان- على قياس تلك الأقوال بالنسبة إلى سمو ذلك المشهد برغم كل ما فيه من بساطة ورفعة، أجاب بأفكار مبتذلة حول مصير النساء.

- سيدتي. لا بد من معرفة كيفية نسيان الآلام أو حفر مقبرة لصاحبها.

ولكن العقل ضئيل دائمًا بالقياس إلى العاطفة. فالعقل محدود بطبيعة الحال ككل ما هو وضعي، في حين أن العاطفة غير نهائية. والتفكير العقلي -حيثما وجب الإحساس- من أخص صفات الأرواح الخالية من الإدراك. وقد بقي «ديفاندينيس» صامتًا، وظل يتأمل السيدة «ديجليمون» ثم انصرف. وكأنما وقع فريسة أفكار جديدة جعلت تُكبر من المرأة، فصار أشبه ما يكون

بالمصور الذي ظل يتعامل مع أنماط عادية كنماذج في مرسمه إلى أن لقي فجأة «منموزين»(5) أم عرائس المتحف... أكثر التماثيل القديمة جلالًا، وأقلها من حيث التقدير. وصار «شارل» مولهًا ولهًا عميقًا. وأحب السيدة «ديجليمون» بذلك الإيمان الصادق الذي يتميز به الشباب مع تلك الحمية التي تمنح العواطف الأولى سخاء لا يوصف، وسلامة نية لا يستعيدها الرجل إلا وهي حطام، عندما يحب مرة أخرى فيما بعد: عواطف لذيذة، وتتشهاها بلذة في الغالب النساء اللائي يبتعثنها، لأنهن يستطعن في سن الثلاثين الجميلة، وقد بلغت ذروة الشاعرية في حياتهن، أن يحتضن كل خط السير، وأن يرين أيضًا الماضي كالمستقبل. فتعرف النساء إذن كل قدر الحب، ويستمتعن به خشية فقدانه، عندئذ تكون روحهن لا تزال حلوة من الشباب الذي يشرع بهجرهن، وتتقوى عواطفهن بالمستقبل الذي يخيفهن.

(5) أم العرائس في اليونان القديمة وابنة أورانوس وآلهة الحلقة.

قال «ديفاندينيس» هذه المرة وهو يفارق الماركيزة: «إنني أحبّ، ولسوء حظي أقع على امرأة مقيدة بذكرياتها، ويصعب الصراع إذا كان ضد ميت لم يعد موجودًا ولا يستطيع أن تصدر عنه حماقات، فلا يسيء إلى أحد إطلاقًا، ولا نعود نرى منه إلا أنبل الصفات. أليس معنى ذلك الرغبة في الهبوط بالكمال، أكثر من محاولة قتل مفاتن الذاكرة والآمال التي تظل حية بعد عشيق ضائع،

لمجرد أنه لم يوقظ على التحديد سوى الرغبات، وهي أجمل ما في الحب، وأشد ما فيه فتنة وإغراء؟».

وقد كانت هذه الفكرة الحزينة الناجمة عن التثبيط، وعن تخوف الفشل، مما يبدأ به عادة حب صادق، آخر تدبير لدبلوماسيته المختصرة ومنذ ذلك الوقت لم تعد لديه أية فكرة خلفية، وصار لعبة في يد حبه، وضاع في تفاهات تلك العادة غير ذات التفسير التي تغتذي من كلمة ومن سكوت ومن عشم مبهم. وقد أراد أن يكون حبه «أفلاطونيًّا» وجاء كل يوم يستنشق الهواء الذي تستنشقه السيدة «ديجليمون»، متخذًا من بيتها قشرة صدفية ومصاحبًا لها في كل مكان، مأسورًا بطغيان عاطفة شديدة تمزج أنانيته بتفانيه المطلق. فللحب غريزته، وهو يعرف كيف يجد طريقه إلى القلب كأضعف الحشرات عندما تمشي نحو زهرتها بإرادة لا تُقَاوَم ولا يخيفها شيء.

كذلك ألا يكون المصير غير محدد عندما تصدق العاطفة؟ أليس ثمة مسوغ لإلقاء المرأة في كل مقلقات الفزع، إذا صارت تظن أن حياتها تعتمد -على الأكثر أو على الأقل- على حقيقة أو طاقة أو ثبات مما يضعه عاشقها في رغباته؟ الواقع أنه من المستحيل على المرأة وعلى الزوجة أو الأم، أن تصون نفسها ضد حب أحد الشبان. كل ما في قدرتها أن تمتنع عن الاستمرار في لقائه في اللحظة التي نستخلص فيها سر القلب، ذاك الذي تخمنه المرأة دائمًا. غير أن ذلك الدور يبدو حاسمًا جدًّا كي تستطيع امرأة

أن تقطع به في سن يثقل فيه الزواج، ويصير مصدر قلق وملل، وتصبح فيه العلاقة الزوجية في مرحلة أكبر من مرحلة الفتور، إذا لم يكن زوجها قد هجرها سلفًا.

فإذا كانت النساء قبيحات سرهن وأرضاهن حب يجعل منهن جميلات، وإذا كن شابات جذابات فلا بد أن يكون الإغراء من نفس مستوى مفاتنهن، أي أن يكون الإغراء كبيرًا. وإذا كن فاضلات فإن العاطفة الأرضية السامية الجليلة تحملهن على أن يجدن أي غفران، في عظمة التضحيات نفسها التي يقدمنها إلى عشاقهن، وفي مجد الدخول في ذلك الصراع الشاق. وفي كل موضع شرك. كذلك ما من درس أشد مما ينبغي إذا قيس بمثل هذه الإغراءات القوية. والوقاية الوحيدة للأخلاق البيتية هي الحبس الذي كان مأخوذًا به قديمًا إزاء المرأة في اليونان وفي الشرق، وصار شائعًا اليوم في إنجلترا؛ ولكن تحت سيطرة هذا النظام تنعدم كل زخارف المجتمع: فلا تصير المجتمعات أو الآداب أو الأناقة في الأخلاق ممكنة. وعلى الأمم أن تختار.

وعلى ذلك وجدت السيدة «ديجليمون» حياتها عقب بعض الشهور من لقائها الأول مرتبطة ارتباطًا شديدًا بحياة «ديفانديس» فتعجبت بغير حيرة، بل تكاد تكون بلذة خاصة، في أن تشاركه أذواقه وأفكاره. فهل استقت هي أفكار «ديفانديس» أم أن «ديفانديس» قد صار متعصبًا لأصغر نزواتها؟ وكانت تلك المرأة الرائعة التي

تملكها تيار العاطفة سلفًا قد قالت لنفسها بالنية السليمة الزائفة عند الخوف: أوه! سأكون مخلصة لذلك الذي مات من أجلي.

وكان «باسكال» قد قال: «إن الشك في الله إيمان بوجوده»، وعلى نفس الوتيرة لا تدخل المرأة في عراك مع نفسها إلا حين تكون قد انشغلت. وظلت الماركيزة في اليوم الذي اعترفت لنفسها فيه بأنها كانت معشوقة تطفو بين ألف من العواطف المتعارضة. وتكلمت الخرافات في التجربة بلغتها. هل ستصبح سعيدة؟ هل يمكنها أن تعثر على السعادة خارج القوانين التي أقام بها المجتمع أخلاقه بالحق أو بالباطل؟ حتى اليوم لم تكن الحياة قد أعطتها سوى المرارة. هل كان ثمة نهاية سعيدة ممكنة للارتباطات التي توحِّد بين كائنين منفصلين بحكم اللياقات الاجتماعية ولكن هل نتكلف السعادة ثمنًا باهظًا؟ وهذه السعادة التي يطلبها الناس في حماس، والتي يعد البحث عنها طبيعيًّا، قد تصادفها في النهاية! ومن شأن الفضول أن يدافع دائمًا عن قضية العشاق.

ووصل «ديفاندينيس» وهي قائمة وسط هذه المناقشة السرية. وأخفى حضورها شبح العقل «الميتافيزيقي» (عقل فلسفة ما وراء الطبيعة). وإذا كانت هذه التحولات المتتالية التي تقع في سياقها عاطفة سريعة لدى الشاب أو لدى المرأة في سن الثلاثين على هذا النحو، فقد تأتي لحظة تلغى فيها الاستدلالات مع فكرة واحدة

أخيرة تختلط بإحدى الرغبات وتقويها. وكلما طال أمد المقاومة كان صوت الحب عندئذ أقوى وأشد. وهنا يتوقف إذن هذا الدرس أو تلك الدراسة حول موضوع «المسلوخ» (أي تقديم حيوانات رفع عنها جلدها للدراسة في الفنون الجميلة عامة) إذا كان من المسموح به استعارة أحد هذه التعبيرات الشائقة من فن التصوير لأن هذه القصة تشرح مخاطر الحب وآلية تطوره أكثر مما تصوره.

غير أنه منذ تلك اللحظة كانت تضفي بعض الألوان على هذا الهيكل العظمي فتكسوه بنعماء الشباب ولطافته، وتبتعث الحياة في البدن، وتبث الحب والقوة في حركاته، وترد إليه البريق والجمال والإغراءات العاطفية وميول الحياة.

ووجد «شارل» «ديجليمون» مشغولة الفكر. وبمجرد أن قال لها بهذه النغمة النفاذة التي ملأتها فتن القلب الرقيقة بقدرة أكبر على الإقناع: «ماذا بك؟» تحفظت تمامًا في إجابتها. إذ يبوح هذا السؤال الحلو بتفاهم روحي كامل؛ وفهمت الماركيزة بغريزة المرأة المدهشة أن الشكاوى، أو التعبير عن الشقاء الشخصي الباطني، سيكون بشكل ما لونًا من الألوان المقدمات. وإذا كان لكل من هذه الأقوال دلالة مفهومة من الطرفين فأية هوة لن تضع فيها قدميها؟ وقرأت في ذاتها بنظرة واضحة مشرقة ثم سكتت وقلدها «ديفاندينيس» في سكوتها.

قالت أخيرًا وقد ذعرت من مدى الطاقة العالية التي

تمثلت في لحظة حلت فيها لغة العيون تمامًا محل العجز عن الحديث: «إنني مريضة».

أجاب «شارل» بصوت حنون شديد الانفعال: «سيدتي، الجسد والروح كلاهما يمسك أحدهما بالآخر. ولو حظيت بالسعادة لصرت شابة ناضرة لماذا ترفضين أن تطلبي من الحب كل ما حرمك الحب إياه؟ هل تعتقدين أن الحياة قد انتهت في اللحظة التي أوشكت أن تبدأ فيها بالنسبة إليك؟ ضعي ثقتك في رعاية صديق. فكم يكون حلوًا أن يكون المرء محبوبًا!».

- لقد صرت عجوزًا سلفًا.. ولا شيء يغفر لي -إذن- ألا أستمر في الألم مثلما كنت في الماضي. وفضلًا عن ذلك يجب أن يحب المرء، أليس هذا ما تقوله؟ هيه!! لا حق لي في الحب، ولا قدرة لي عليه ولا يعجبني شخص فيما عداك أنت، بعد أن صارت صداقتك تفيض بالوداعة على حياتي، ولن يستطيع إنسان أن يمحو ذكرياتي. وقد أقبل الصديق، ولكني أهرب من العاشق. وهل من الكرم في شيء أن أبادل قلبًا ذاويًا بقلب شاب، وأن أتلقى غوايات الحب دون أن أستطيع اقتسامها، وأن أكون سببًا في سعادة لا أعتقد فيها إطلاقًا أو أرتعد إذا فقدتها؟ قد أقابل تضحيته وإخلاصه بالأنانية وأظل أحكم العقل يكون هو غارقًا في المشاعر والأحاسيس كما أنني قد أُسيء بذاكرتي إلى فورة لذائذه. لا... كما ترى... الحب الأول لا يحل محله حب أبدًا. ثم في النهاية أي رجل يقبل قلبي بهذا

الثمن؟

وكانت هذه الأقوال التي انطبعت في دلال شديد آخر جهد حكيم. «فلو تراجع ووهن عزمه فسأظل وحيدة مخلصة»، ووردت هذه الفكرة على قلب تلك المرأة وكانت بالنسبة إليها بمثابة فرع الصفصاف المتدلي في تراخ شديد، والذي يمسك به من يسبح قبل أن يحمله التيار.

وعند الاستماع إلى هذا القرار أفلتت من «ديفاندينيس» اختلاجة غير إرادية كانت أقوى على قلب الماركيزة من كل ما حدث قبل ذلك من ملاحقاته الماضية فما يمس قلب النساء مسًا قويًا هو ما تلقاه لدى الرجال من رقة لطيفة، ومن مشاعر لذيذة بقدر ما لديهن أنفسهن، لأنهن يعتقدن أن اللطف والرقة هما علامتا الصدق. وكانت حركة «شارل» تفصح عن حب حقيقي. وعرفت السيدة «ديجليمون» قوة حب «ديفاندينيس» من قوة ألمها. فقال الشاب ببرود: لعلك على حق. فالحب الجديد حزن جديد.

وغير موضوع المحادثة، فأخذ يتبادل الكلام في أشياء بلا غرض، ولكنه كان واضح الانفعال، وينظر إلى السيدة «ديجليمون» بانتباه مركز كأنه يراها لآخر مرة. وأخيرًا فارقها وهو يقول لها في انفعال:

- «وداعًا يا سيدتي».

- «إلى اللقاء».

قالت ذلك بتدلل ناعم لا يدرك سره سوى صفوة

النساء، ولم يجب وخرج.

وأحست بألف ندم عندما لم يعد موجودًا وعندما صار مقعده الفارغ يتكلم بدلًا منه، وأخذت تحصي لنفسها الأخطاء. وتتقدم العاطفة تقدمًا ضخمًا لدى المرأة حين ترى أنها قد عملت عملًا غير كريم، أو أنها جرحت روحًا نبيلة إذ لا ينبغي إطلاقًا تحدي المشاعر السيئة في الحب، لأنها تكون ملائمة تمامًا. ولا تذعن المرأة إلا إذا وقعت تحت طائلة الفضيلة. وقول: «الجحيم معبد بالنيات الطيبة» ليس مجرد مفارقة من أحد الوعاظ.

وظل «ديفاندينيس» لا يحضر عدة أيام. وكانت الماركيزة تنتظره أثناء كل ليلة في ساعة الموعد المعتاد بصبر نافد مليء بتوبيخ الضمير. والكآبة اعتراف، فضلًا عن أن غريزتها كانت تقول لها إنه سوف يعود. وأخطر الخادم بقدومه في اليوم السادس. ولعلها لم تسمع اسمه قط بمثل هذا السرور. وقد أرعبها أن تفرح إلى هذا الحد.

قالت له :»لقد عاقبتني عقابًا حسنًا!».

ونظر إليها «ديفاندينيس» بتعبير أبله، وقال:

- «عاقبتك؟!... ولكن علام؟!».

وكان «شارل» يفهم الماركيزة فهمًا تامًّا، ولكنه شاء أن ينتقم لآلامه التي كان فريسة لها منذ اللحظة التي اشتبهت فيها.

سألته وهي تبتسم «لماذا لم تأت لزيارتي؟».

- لعلك لم تري أحدًا إذن؟

قال ذلك لكي يتفادى السؤال المباشر.

- لقد بقي السيد «ديرونكيرول» والسيد «مارسيه أوديسجرينيون» الصغير ها هنا، أحدهما بالأمس، والآخر أثناء هذا الصباح قرابة ساعتين. ورأيت أيضًا فيما أعتقد السيدة «فيرمياني» وأختك السيدة «دلسيتومير».

ألم جديد! ألم غير مفهوم عند أولئك الذين لا يحبون في نوع من الطغيان المكتسح الضاري الذي تكون أبسط آثاره غيرة وحشية ورغبة متصلة من أجل اختلاس الكائن المحبوب بعيدًا عن كل مؤثر غريب عن الحب.

قال «ديفاندينيس» لنفسه: «ماذا؟ تستقبل وترى أشخاصًا راضين، وتحادثهم في حين أبقى أنا وحيدًا تعيسًا!».

ودفن حزنه، وأبقى قلبه في أعماق صدره كتابوت الموتى في البحر. وكانت أفكاره من النوع الذي لا يقال، ومن النوع السريع الشبيه بالأحماض التي تقتل وهي تتبخر. وبرغم ذلك غطت السحب جبينه، وأطاعت السيدة «ديجليمون» غريزة المرأة، وهي تشاركه هذا الحزن دون أن تلحظ ذلك. ولم تكن متواطئة مع ذلك الألم الذي أحدثته، وأدرك «ديفاندينيس» ذلك.

وتحدث عن موقفه، وعن غيرته، كما لو كان ذلك

اقتراضًا مما يسر العشاق مناقشته، وفهمت الماركيزة كل شيء ووقع ذلك من قلبها موقعًا قويًا بحيث لم تستطع مقاومة دموعها. ومنذ تلك اللحظة نفذا خلال أعتاب فردوس الحب. والجنة والنار ليسا سوى قصيدتين طويلتين تمثلان صيغ وعبارات النقطتين الوحيدتين اللتين يدور حولهما وجودنا: السرور والألم. أليست الجنة وستظل دائمًا صورة من لا نهائية مشاعرنا التي لن تصور إلا خلال تفصيلاتها طالما كانت السعادة واحدة... ألا تمثل النار تعذيب آلامنا غير المتناهي، التي نستطيع أن ننظمها في عمل شعري، لمدى الاختلافات الكبيرة بين كل منها؟

وكان العاشقان جالسين في إحدى الليالي أحدهما إلى جوار الآخر صامتين مشغولين بتأمل مسحة من مسحات السماء... هي مسحة السماء حين تكون صافية تلقي فيها أشعة الشمس الأخيرة أصباغًا ذهبية وأرجوانية خفيفة. وفي تلك اللحظة من اليوم يبدو انخفاض النور ببطء شيئًا فشيئًا كما لو كان يوقظ مشاعر رقيقة. فتتذبذب عواطفنا ورغباتنا بتراخ، ونستعذب الاضطرابات ذات الطابع العنيف وسط السكون الهادئ. وحين ترينا الطبيعة السعادة خلال صور مبهمة فإنها تدعونا إلى أن نستمتع بهذه السعادة حين تكون دانية منا، وتدفعنا إلى الندم من أجلها إذا هربت.

ومن الصعب في تلك اللحظات الخصبة في نشواتها تحت مظلة من ذلك الوهج الذي تحد انسجاماته الرقيقة في

إغراءات قلبية، من الصعب عندئذ أن يقاوم المرء رغبات قلبه ذات الفتن العديدة! وبذلك يتضاءل الحزن وينتشي الفرح ويجثم الألم. وأبهة الليل هي علامة الرغبات التي تشجعها. ويصبح الصمت أخطر من القول وهو يبلغ العيون بكل قوة لا نهائية السموات التي تعكسها. فإذا تكلم المرء صارت الكلمة ذات قوة لا تقاوم. أليس ثمة نور في الصوت وحمرة في النظرة؟ وكما لو كانت السماء في باطننا نحن، أو كما لو لم يكن يبدو في السماء؟ وبرغم ذلك كانت «جولييت» و«فاندينيس».. لأنها استسلمت لتسمية نفسها على هذا النحو المألوف على لسان ذلك الذي كان يسرها أن تناديه «بشارل» كانا إذن يتكلمان في موضوع بدائي خلال محادثتهما، بعيد كل البعد عنهما. وإذا لم يعودا يعرفان معنى أقوالهما فإنهما كانا يصغيان بالتذاذ للأفكار الخفية التي كانت تغطيها تلك الأقوال. وبقيت يد الماركيزة في يد «ديفاندينيس» وتركتها له دون أن يكون في اعتقادها أنها كانت متفضلة بذلك عليه.

وانعطفا معًا كي يريا أحد تلك المناظر المهيبة المليئة بالجليد، وبأكوام الثلج، وبالظلال الرمادية التي تخضب أضلع الجبال الغريبة. وكانت إحدى هذه اللوحات ملأى بمتقابلات مفاجئة بين اللهيب الأحمر وبعض اللمسات السوداء التي تزين السماء في شاعرية عابرة لا مثيل لها، وأحزمة رائعة تبدو في وسطها الشمس كالأكفان الجميلة التي تحيط بها وهي تلفظ النفس الأخير.

في تلك اللحظة هفهفت شعور «جوليت» على خدي «فاندينيس» وأحست هي بهذا الاحتكاك الخفيف، وانتفضت بقوة بسببه، وأرضاها ذلك أيضًا؛ لأن كلا منهما كان قد وصل شيئًا فشيئًا إلى إحدى هذه الأزمات التي لا تفسر، حيث يبلغ الهدوء الحواس أمام مشهد رقيق حتى إن أقل صدمة تؤدي إلى ذرف الدموع، وإلى طفح الشقاء، إذا كان القلب ضائعًا بين هذه الكآبات، أو يزودها بلذائذ لا توصف، إذا كان ضائعًا بين دوار الحب. وضغطت «جوليت» لا إراديًّا تقريبًا على يد صديقها، وأعطى هذا الضغط المغري خجل العاشق شجاعة. وانصهرت كل أفراح هذه اللحظة، وكل آمال المستقبل، في هذا الانفعال... انفعال التربيتة أو الملامسة الأولى، وتلك القبلة البريئة البسيطة التي تركتها السيدة «ديجليمون» تقع على خدها. وكلما كانت الملاطفات هادئة كان الخطر أكبر وأقوى. ولسوء حظهما معًا لم يكن ثمة ادعاء أو تزييف. لقد كان ذلك تفاهمًا بين روحين حلوتين يفصلهما القانون، ولكن يربطهما إغراء الطبيعة. وفي هذا اللحظة دخل اللواء «ديجليمون» يقول:

- لقد تغيرت الوزارة... واشترك عمك في مجلس الوزراء الجديد. وهكذا أمامك فرص كبيرة لتصبح سفيرًا يا «فاندينيس».

ونظرت «جولي» و«شارل» كل إلى الآخر في حمرة الخجل. فكان لدى كليهما نفس الفكرة ونفس تأنيب

الضمير. رباط عنيف وقوى جدًّا بين لصين قتلا رجلًا، كما هو تمامًا بين عاشقين مذنبين بسبب قبلة. وكان لا بد من رد على الماركيز.

قال «شارل فاندينيس»: «لا أريد أن أغادر باريس بعد اليوم».

عاد اللواء يقول متكلفًا رقة الرجل الذي يكتشف سرًّا: «نحن نعرف السبب، إذ أنك لا تريد أن تبتعد عن عمك كي يعلنك وارثًا لإقطاعيته».

وهربت الماركيزة إلى غرفتها وهي تقول عن زوجها هذه العبارة المخيفة: «إنه حقًّا لشديد الغباء!».

* * *

4

إصبع الرب

بين «بوابة إيطاليا» وشارع «الصحة»، وعلى «البولفار» الداخلي الذي يؤدي إلى حديقة النباتات، منظور جدير بأن يسحر الفنان أو المسافر المتعب من كثرة مباهج الإبصار. فإذا وصلت إلى بروز خفيف يخني «البولفار» «المتنزه الكبير» من عنده في رقة الممشى القائم وسط الأحراش الخضراء الصامتة، ويصبح مظللًا بأشجار كبيرة مورقة، وجدت أمامك عند قدميك واديًا عميقًا تحشد فيه مصانع نصف ريفية، تتناثر فيها الخضرة، وتسقيها مياهًا قاتمة من نهر (البيفر) أو من مصانع «الجوبلان» «للسجاد». وكان يرى فوق السفح المقابل بعض آلاف من أسطح البيوت المتزاحمة كالرؤوس في الزحام، والتي تأوي فقراء ضاحية «سان مارسو» وتطل «قبة البانثيون» «مقابر العظماء» والقبة الحزينة الأسيانة الخاصة «بفال دي جراس» (مدرسة الطب العسكرية ومستشفاها) في زهو وخيلاء كمدينة بأكملها متدرجة العلو ذات مَراقٍ (مصاطب) مرسومة بشكل غريب في طرق متعرّجة.

ومن هناك تبدو النسب بين معالم الأثريين التاريخيين، هائلة فتسحق البيوت الهشة وأعلى أشجار «الحور» العالية على الوادي الصغير، ويظهر إلى ناحية اليسار «المرصد» خلال النوافذ والممرات التي ينفذ منها الضوء

مكونًا خيالات متطرفة لا تفسير لها كأنه شبح أسود هزيل. وعن بعد كان يبرق المصباح الأنيق الخاص «بالأنفاليد» (مقبرة نابليون) بين كتلة مائلة إلى الزرقة في حدائق «اللكسمبور» والأبراج الرمادية لكنيسة «سان سولبيس» وكانت هذه الخطوط الهندسية ترى من هنالك مختلطة بأوراق الأشجار وبالظلال، وهي تخضع بلا توقف لنزوات سماء متغيرة الألوان أو الضوء أو المنظر. فعلى بعد منك تؤثث الأبنية الفضاء، ومن حولك تتلوى أشجار متموجة وطرق ضيقة ريفية كالثعابين. أما إلى اليمين فيمكنك أن تلمح خلال قطاع كبير من هذا المنظر الفريد بركة ماء طويلة بيضاء هي قناة (سان مارتان) ذات الإطار الحجري المائل إلى الحمرة والمزين بأشجار «الزيزفون» والذي تحف به أبنية رومانية حقيقية خاصة بشواني الوفر. وهناك في آخر المسطح تخلط تلال (بلفيل) المليئة بالأبخرة والمحملة بالبيوت والطواحين، تخلط أحداثها بما يجري في السحب.

وبرغم ذلك توجد مدينة لا تراها بين صف الأسطح التي تحف الوادي الصغير وذلك الأفق الذي يشبه في إبهامه ذكرى الأطفال... مدينة ضخمة ضائعة كما لو كانت في هوة بين أطراف قمم «لابيتييه» وذروة مدافن «ليست»... أي بين الألم والموت. وتصاعد منها أصوات هدير أصم شبيه بهدير المحيط الذي يزمجر وراء صخور عالية كما لو كان يقول: «إنني هنا». وإذا كانت الشمس تلقي

أمواج ضوئها على هذا الوجه من أوجه باريس وتنقيه وتذيب خطوطه، وإذا كانت تضيء فيه بعض نوافذه، وتغسل حجارته وتشعل الصلبان الذهبية، وتجعل لون الحوائط أبيض وتحيل الجو إلى حجاب شفاف من شاش الجراحة... وإذا كانت الشمس تخلق شتى المتقابلات الفنية من الظلال الخيالية، وإذا كانت السماء صافية والأرض تصطفق، وإذا كانت الأجراس تنطق، يمكنك إذن أن ترى من هنالك جمال واحدة من هذه الإبداعات الفنية البليغة المعبرة التي لا يستطيع الخيال أن ينساها إطلاقًا، والتي ستجعلك متيمًا مجنونًا بها كأنها أحد مناظر «نابولي» أو «أسطمبول» أو «فلوريدا» الرائعة، إذ لا ينقص هذه المعزوفة أي ضرب من ضروب الانسجام، فهناك تهمس ضوضاء الناس وهدوء العزلة الشاعري وصوت ملايين الكائنات وصوت الله. هناك ترقد عاصمة نائمة تحت أشجار السرو الداكنة في مدافن «بيرلاشيز».

في صباح أحد أيام الربيع، وفي لحظة كانت الشمس تسبغ فيها بريقًا على كل جمالات المنظر، وقفت أتأملها مستندًا إلى شجرة ضخمة من أشجار «الدردار» التي تسلم إلى الرياح زهورها الصفراء، ثم فكرت بمرارة أمام مرأى هذه الثروات، وهذه اللوحات الجليلة، بشأن الازدراء الذي نبديه نحو بلادنا اليوم حتى خلال صفحات كتبنا، ولعنت هؤلاء الأثرياء المساكين الذين أصابهم القرف حيال بلادنا.. فرنسا الجميلة، فيذهبون لشراء حق مهانة وطنهم

بسعر الذهب حين يزورون خطفًا أو عدوًا مواقع إيطاليا التي غدت عادية إلى حد بعيد وحين يفصحونها من خلال نظاراتهم.

وتأملتُ باريس الحديثة بحب، وذهبتُ في أحلامي إلى أن دوّى فجأة صوت قبلة، فأزعج وحدتي، ودفع بفلسفتي إلى الهرب. وفي الممشى المقابل الذي يتوج المنحدر السريع الذي تهدر المياه عند أسفله، وعند النظر إلى ما وراء جسر «جوبلان».. اكتشفت امرأة بدت لي كأنها لا تزال شابة، وفي هندام بسيط من أعلى لون في الأناقة، وكأنما كان محيّا وجهها الرقيق يعكس السعادة المرحة التي تتخلل المنظر.

وأنزل شاب وسيم إلى الأرض طفلًا صغيرًا من أجمل ما يمكن رؤيته من الأطفال، بحيث لم أكن أستطيع أن أعرف ما إذا كانت القبلة قد دوّت فوق خدّ الأم أم فوق خدّ الطفل. وكانت تلمع في عيني الشاب وحركاته وابتسامته وابتسامة الشابة فكرة واحدة بعينها، ناعمة حارة؛ وتشابكت أذرعهما في خفة مرحة متزايدة، وكانا يقتربان أحدهما من الآخر بتفاهم رائع في الحركة، بحيث انشغلا بنفسيهما، ولم يلمحا وجودي إطلاقًا. ولكن طفلًا آخر بدا غاضبًا ظاهر الاستياء، وأدار لهم ظهره بحيث ألقى نظراته نحوي وعليها انطباعات تعبير أخاذ. وقد ترك هذا الطفل أخاه يجري بمفرده، فأحيانًا يتخلف وأحيانًا يستبق والدته والشاب.. وبدا هذا الطفل في ملبسه كالآخر في رقة

بالغة، ولكن الأشكال كانت أكثر طلاوة.. وكان صامتًا ساكنًا وفي وضع الثعبان المخدر. لقد كانت هذه فتاة. وكان ثمة ما يشبه آلية الأفعال الغريزية في نزهة السيدة الجميلة ورفيقها. وقد سعدا من أجل اللهو بأن جابا أرجاء المكان البسيط الذي كان موجودًا بين الجسر الصغير وبين عربة واقفة عند منعطف الطريق، وكأنهما يبدآن من جديد دومًا أعوام حياتهما، فيتوقفان ويتأمل أحدهما الآخر ضاحكين تحت تأثير نزوات الحديث الذي كان يتبدل مرة بعد مرة، فيصير مليئًا بالحياة أو سقيمًا أو مجنونًا أو وقورًا.

واختفيت وراء شجرة «الدردار» الغليظة أرقب في إعجاب ذلك المشهد اللذيذ، وكنت جديرًا بلا شك بأن أشعر باحترام نحو الأسرار ما لم أكن قد رأيت من وجه البنت الصغيرة الحالمة الصامتة آثار فكر أعمق كثيرًا مما يجري في سلوك تلك السن. وعندما استدارت أمها والشاب، بعد أن أصبحا بالقرب منها، أخذت تميل غالبًا برأسها في مداراة، وقذفتهما كما قذفت أخاها بنظرة متهربة شاذة حقيقة. ولكن ما كان شيء، يستطيع أن يعبر عن الرقة النفّاذة، والسذاجة الخبيثة، والانتباه الشرس، الذي كان ينبض في ذلك الوجه الطفولي ذي العينين المحاطتين بدائرة زرقاء حين تربّت السيدة الجميلة أو رفيقها على خصلات الولد الصغير الشقراء، وحين تضغطان برفق على رقبته الطرية، أو على الحرملة البيضاء التي كان يلبسها، وهو يحاول في

ذلك الوقت بصبيانية الطفولة أن يمشي بجوارهما. لا شك أنه كان ثمة عاطفة رجل على هيئة الوجه الهزيل الذي كانت تتمتع به تلك الفتاة الصغيرة الغريبة. لقد كانت تعاني أو تفكر.

والواقع من ذا يتنبأ بتأكيد أكبر عن موت هذه المخلوقات المزهرة؟ أعن المرض الكامن في الجسد ينجم ذلك، أم عن الفكر المبكر الذي يلتهم أرواحهم التي لم تكد تنبت؟ من المحتمل أن تكون الأم عن إلمام بذلك. أما أنا فلا أعرف الآن شيئًا أبشع من فكرة شيخ مسن مطبوعة فوق جبهة طفل. ولعل التجديف يكون أقل وحشية أيضًا على شفتي عذراء. ولعل كل شيء.. الموقف الذي يكاد يكون مليئًا بالحمق لتلك الفتاة المفكرة في تلك السن وندرة حركاتها. كل شيء كان يهمني فيها فأخذت أتأملها بغرابة. وجعلت بشيء من الخيال المتطرف الطبيعي عند «الملاحظ» عادة أقارن بينها وبين أخيها مع تعمد أن أواجه العلاقات والاختلافات التي كانت توجد بينهما. فالأولى كانت ذات شعر أسمر وعيون سوداء وقوة سابقة على الأوان مما كان ينشئ تعارضًا غنيًّا مع شعر الرأس الأشقر والعيون الخضراء بلون البحر والضعف المدلل لدى الأصغر وكانت سن الكبرى بين السابعة والثامنة في حين أن الآخر يكاد يكون في السادسة. وكانا يلبسان على نحو واحد، وبرغم ذلك لاحظت -وعندما نظرت إليهما بإمعان- فوق حرامل قمصانهما اختلافًا طفيفًا، ولكنه

كشف لي فيما بعد رواية طويلة في الماضي، ومأساة درامية عامرة للمستقبل. وقد كان ذلك قليلًا جدًا.

كانت تطرز حرملة الفتاة الصغيرة السمراء حاشية ثوب بسيطة في حين كانت تزين حرملة الابن الأصغر تطريزات جميلة تفضح سرًا قلبيًا وهو التفضيل المضمر الذي يقرؤه الأطفال في أرواح أمهاتهم كما لو كان عقل الله فيهم. وكان الابن الأشقر لا مباليًا مرحًا وأشبه ما يكون ببنت صغيرة إذ كانت بشرته البيضاء ذات نضارة، كما كانت حركاته ذات دلال، وهيئة وجهه ذات رقة. في حين كانت الكبرى أشبه ما تكون بغلام سقيم برغم قوتها وجمال ملامحها وبريق لون وجهها، وبدت عيناها الحادتان المجردتان من ذلك البخار الرطب الذي يهب نظرات الأطفال قدرًا من الجاذبية كما لو كانتا عيني واحد من حاشية الملوك، جففتهما نار باطنة.

وفي النهاية كان لبياضها بعض الفروق الدقيقة في عدم التألق مع الميل إلى اللون الزيتوني، وهو عرض من أعراض الطابع الشخصي القوي الحازم، وجاء أخوها الأصغر مرة بعد مرة يقدم إليها في دلال مؤثر، وفي نظرة جميلة، وبسحنة معبرة، كانت تأسر فنانًا «كشارليه» (1845- 1792) بوق الصيد الصغير الذي كان ينفخ فيه بعض لحظات، ولكنها في كل مرة لم تكن تجيبه إلا بنظرة متوحشة على عبارته: «خذي يا (هيلين).. هل تريدينه؟» ينطقها بصوت حنون. وكانت البنت

الصغيرة قاتمة ومزعجة في سحنتها اللا مبالية في المظهر، فلا تلبث أن ترتعد ويحمر وجهها بقوة ملحوظة عندما كان أخوها يقترب. ولكن لم يكن الطفل الأصغر يبدو كمن أدرك المزاج السوداوي الذي تميزت به أخته، وعدم اهتمامها الممزوج بالمصلحة، فأجهز بذلك على معارضة طابع الطفولة الحقيقي بعلم الإنسان الدال على الاهتمام، والذي كان مسجلًا من قبل على وجه البنت الصغيرة بحيث دفعها إلى الغموض بسحبه القاتمة.

صاح الصغير وقد انتهز فرصة جلوس أمه والشاب صامتين على جسر «جوبلان» لكي يشتكي: ماما.. «هيلين» لا تريد أن تلعب.

- دعها «يا شارل». أنت تعرف أنها دائمًا متذمرة.

واستطاعت هذه الأقوال التي نطقتها الأم بالمصادفة، واستدارت بعدها فجأة نحو لرجل الشاب، أن تنتزع من «هيلين» دموعها، فابتلعتها في سكون، وقذفت أخاها بإحدى نظراتها العميقة التي بدت لي غير مفهومة، ثم تأملت أولًا بذكاء شرير المنحدر من فوق أعلى قمة حيث كان واقفًا ثم نحو نهر «البيفر» والجسر والمنظر ونحوي أنا.

وخشيت أن يلمحني الثنائي السعيد الذي لا شك أنني كنت أعكر صفو الحديث بينهما فانسحبت بهدوء، وذهبت آوي خلف صف من «البيلسان» الذي أخفتني فروعه المشجرة تمامًا من كل النظرات. وجلست في اطمئنان عند

رأس المنحدر ناظراً في صمت، ومرة بعد أخرى، إما إلى مفاتن الموقع المتغيرة، وإما إلى البنت الصغيرة المفترسة التي كان لا يزال في إمكاني أن ألحظها من خلال الفجوات الموجودة بين صف «البيلسان»، وبين قاعدته حيث استند رأسي في مستوى «البولفار» تقريبًا.

وحينما لم تعد «هيلين» تراني ظهر عليها القلق، وظلت تبحث عني بعينيها السوداوين على بعد الممشى خلف الأشجار بفضول غير محدد. ماذا صرت إذن بالنسبة إليها؟ وفي ذلك اللحظة دوت ضحكات «شارل» البريئة في السكون كغناء عصفور. ذلك أن الشاب الوسيم الأشقر مثله جعله يتراقص بين ذراعيه وقبله وهو يسخو عليه بالكلمات الصغيرة غير المسلسلة والحائدة عن معناها الحقيقي مما نوجّهه إلى الأطفال في ودّ. وابتسمت الأم لهذه الألعاب، وأخذت تقول من وقت لآخر وبصوت منخفض بلا شك أقوالًا صادرة من القلب، لأن رفيقها كان يتوقف بسعادة تامة وينظر إليه بعين زرقاء مليئة بالضوء والهيام. وامتزج صوتهما بصوت الطفل في حنان غريب، وكان ثلاثتهم في غاية الروعة.

وأشاع هذا المشهد الجميل وسط ذلك المنظر الرائع في كل ما حوله عذوبة لا يمكن تصورها. امرأة جميلة بيضاء ضحوك، وطفل حبيب، ورجل خلاب شاب وسماء صافية، بل كل انسجامات الطبيعة كانت متوافقة كي تبعث المتعة في الروح. ووجدت نفسي أبتسم كما لو كانت

تلك السعادة ملكي.

وسمع الشاب الجميل الساعة تدق التاسعة. وبعد أن قبل رفيقته بحنان تجهمت وكادت تصبح حزينة، وعاد هو نحو «عربة بمظلة» كانت تتقدم ببطء ويقودها خادم عجوز. واختلطت بقبقة الطفل العزيز بآخر قبلات أعطاه الشاب إياها. ثم لم يكد هذا الشاب يصعد إلى عربته، وتصغي المرأة الساكنة إلى صوتها تتحرك متتبعة الأثر الباقي فوق التراب الضبابي في الممشى المخضر على «البولفار» حتى جرى «شارل» نحو أخته بالقرب من الجسر، وسمعته يقول لها في صوت أشبه برنين الفضة: «لماذا إذن لم تحضري لتودّعي صديقي الطيب؟».

وقذفت «هيلين» أخاها حين رأته فوق منحنى المنحدر بأقسى نظرة على الإطلاق ظهر بريقها في عيني طفل، ودفعته بحركة غضب وانزلق «شارل» فوق السفح السريع، وصادف جذورًا ألقت به بقسوة فوق الحجارة الحادة التي بنى منها الحائط، وتكسرت جبهته فوقها، ثم راح يهوي وهو مغطّى بالدماء في مياه النهر المليئة بالطمي، وتناثرت الموجة في ألف انبجاس مائي غامق اللون تحت رأسه الجميل الأشقر، وسمعت صراخ الطفل المسكين الحاد، ولكن لم تلبث أن اختفت نغماته مخنوقة في الوحل حيث اختفى هو نفسه محدثًا صوتًا ثقيلًا كصوت حجر غائر، ولم يكن البرق أسرع مما كانت تلك السقطة.

وفجأة نهضتُ وهبطت بطريق ضيق، وصرخت «هيلين»

مأخوذة صرخات نفاذة: «ماما!! ماما!»، وكانت الأم موجودة بالقرب مني، فطارت كعصفور، ولكن لم تستطع عينا الأم أو عيناي أن تتعرف على المكان المحدد الذي دفن فيه الطفل، وكانت الفقاقيع تتصاعد فوق الماء الأسود في مساحة واسعة؛ وفي هذا المكان يوجد في مجرى نهر «البييفر» عشر أقدام من الطمي، ولا بد أن الطفل قد لقي حتفه إذ كانت نجدته مستحيلة. وفي تلك الساعة من يوم الأحد كان كل شيء ساكنًا، ولم يكن في نهر (البييفر) قارب أو صياد، ولم أر أيّ قصبة أجس بها مدى عمق الماء الآسن أو أي شخص على البعد.

لماذا إذن تكلمت عن هذه الحادثة المشئومة، أو قلت سر هذه المصيبة؟ لعل «هيلين» انتقمت لأبيها، وكانت غيرتها بلا شك سيف الله. وبرغم ذلك فقد ارتعدت وأنا أتأمل الأم. أي استجواب مخيف سوف تلقاه من زوجها.. قاضيها الأبدي؟ وقد جرّت معها شاهدًا لا يُرشى؛ فللطفولة جبين شفاف ولون وجه ينفذ منه الضوء، والكذب عند الطفولة أشبه ما يكون بالضوء الذي يدفع به إلى الاحمرار من نظرة. ولم تكن المرأة الشقية تفكر بعد في العذاب الذي ينتظرها بالبيت فقد كانت تنظر إلى نهر «البييفر» وكان على مثل تلك الحادثة أن تؤدي إلى أصداء مخيفة في حياة امرأة وهذا واحد من أكثر أصدائها بشاعة مما كان يزعج غراميات «جولييت» من وقت لآخر.

بعد سنتين أو ثلاث من ذلك التاريخ وفي إحدى الليالي

عقب العشاء في بيت الماركيز «ديفانديئيس» الذي كان حينذاك في حداد على والده وبصدد ميراث يتطلب التنظيم، كان يوجد أحد محرري العقود. ولم يكن محرر العقود هذا نفس الرجل القصير «ديستيرن»، بل كان سمينًا ضخمًا من باريس، وكان أحد الرجال الأجلاء الذين لا يعبئون إلا بقدر، ويضعون قدمهم بصعوبة فوق أي سبب مجهول من أسباب الحزن أو الغم، ويسألون لماذا الشكوى. وإذا علموا بالمصادفة سبب عبثهم القاتل يقولون: «يا إلهي لم أكن أعرف شيئًا». على أي حال كان محرر عقود بسيطًا لا يرى في الحياة سوى العقود.

وكانت السيدة «ديجليمون» على مقربة من الدبلوماسي، وكان اللواء قد انصرف من هناك أدبًا قبل نهاية العشاء، كي يصحب طفليه إلى عرض تمثيلي على المتنزه الكبير «البولفار» في مسرح «الأمبيجي كوميك» أو مسرح «لاجيتيه». وبرغم أن الروايات المؤثرة تهيج المشاعر فإنها تجري في باريس لكي تكون في متناول الطفولة وبدون خطر، لأن البراءة تنتصر دائمًا فيها. ولم ينتظر الوالد تناول الحلو بعد الأكل، ورحل تحت إلحاح ابنته وابنه المقلق من أجل الوصول إلى العرض قبل رفع الستار.

ولم يستطع محرر العقود.. ذلك الرجل الرزين.. أن يستفسر لماذا أرسلت السيدة «ديجليمون» أولادها وزوجها إلى العرض دون أن تصحبهم إلى هنالك... فبقي منذ العشاء كما لو كان قد ربط إلى مسمار لولبي فوق مقعده؛

وجعلت المناقشة وقت الحل يمتد طولًا بحيث توانى الخدم عن تقديم القهوة. وهذه الأحداث التي كانت تلتهم الوقت الثمين بلا شك أمكنها أن تنتزع حركات فراغ الصبر من المرأة الجميلة، فكان في المستطاع مقارنتها بأحد الخيول الأصلية حين يكدف ويضرب الأرض بحوافره قبل السباق، ولم يكن محرر العقود يعرف طريقه في ميدان الخيول أو في ميدان النساء، فاكتشف بطيبة قلب في شخصية الماركيزة امرأة نشيطة قوية.

وقد انتشى بالتالي من وجوده في رفقة امرأة على أحدث الطرز ورجل من أشهر رجال السياسة فأخذ محرر العقود هذا يتظرف ويروي النكت؛ وفهم ابتسامة الماركيزة الزائفة على أنها رضى وتأييد برغم أنه كان يستنفد صبرها إلى حد كبير ويتباطأ تباطؤًا كبيرًا. وأذن سيد البيت سلفًا بالاتفاق مع رفيقته بأن يلزما الصمت مرات عديدة حيثما انتظر محرر العقود ردًّا من ردود الثناء والمديح. ولكن حتى أثناء هذه الفترات كان الرجل الخبيث ينظر إلى الموقد كمن يفتش عن فكاهات ونكت. وبعد ذلك لجأ الدبلوماسي إلى ساعته، وأخيرًا كانت السيدة الجميلة قد أعادت وضع قبعتها على رأسها تأهبًا للخروج دون أن تخرج. ولم يكن محرر العقود يرى أو يسمع، بل كان معجبًا بنفسه إعجابًا شديدًا ومتأكدًا من أنه يمتع الماركيزة إلى حد وقوفها كأنها مقيدة بمسمار هناك، فقال في نفسه: سوف تكون هذه المرأة بالتأكيد زبونة لي.

وقامت الماركيزة واقفة، ولبست قفازات اليد، ثم راحت تدير في أصابعها، وجعلت تنظر بالتبادل إلى الماركيز «ديفاندينيس» الذي كان يقاسمها نفاد صبرها أو إلى محرر العقود الذي كان يحكم تكتيف كل واحد عن طريق اللطائف والنكت الفكاهية الخاصة به. وعند كل فترة سكون يقف عندها ذلك الرجل «المحترم» كان كلاهما يتنفس الصعداء، وكأنما يقول أحدهما للآخر بالإشارة: «سوف يرحل إذن أخيرًا!» ولكن عبثًا.

لقد كان أشبه ما يكون بالكابوس النفسي الذي ينتهي بعد إثارة الشخصين الممتلئين شغفًا وعاطفة اللذين كان محرر العقود يؤثر عليهما حركة بحركة ونأمة بنأمة كما يفعل الثعبان بالطائر بحيث يضطرهما إلى شيء من التعجل. وفي وسط الحكاية تمامًا التي كان محرر العقود الظريف ذاك يرويها عن الوسائل الخسيسة التي كان يتبعها «ديتييه» رجل الأعمال الذي كان ذا حظوة خلال تلك الفترة في تكوين ثروته متتبعًا فضائحه في تفصيلاتها الدقيقة، سمع الدبلوماسي الساعة الكبيرة تدق التاسعة، ولحظ أن محرر عقوده كان سخيفًا بالتأكيد بحيث لزم ببساطة تامة صرفه، فأوقفه بإحدى حركاته بإصرار.

فقال محرر العقود وهو يقدم (الماشة) إلى زبونه: لعلك تريد (الماشة) يا سيدي الماركيز؟

- لا يا سيدي؛ إنني مضطر إلى أن أصرفك. فالسيدة تريد اللحاق بأولادها، وسيشرفني أن أرافقها.

قال محرر العقود الذي كان قد انفرد بالكلام منذ ساعة: سرعان ما صارت الساعة التاسعة! إن الوقت يمضي كالظل في صحبة الناس الظرفاء.

وبحث عن قبعته، ثم جاء يزرع نفسه أمام المدفأة وهو يقاوم بصعوبة صدور إحدى فواقاته، وقال لزبونه دون أن يرى النظرات الشبيهة بالصواعق التي كان يقذفها نحوه الماركيز:

- فلنختصر الكلام يا سيدي الماركيز فالأعمال تأتي أولًا. وسوف نبعث غدًا إذن إلى السيد أخيك بإعلام قضائي بحيث يكون مكلفًا رسميًّا، ثم نتقدم إلى الجرد وبعد ذلك فيما أرى.

قد فهم محرر العقود نيات زبونه فهمًا سيئًا بحيث أخذ المسألة في الاتجاه العكسي للتعليمات التي ألقاها إليه هذا الأخير منذ قليل. وكانت هذه الحادثة من الحساسية بحيث لم يشأ «ديفاندينيس» تعديل أفكار محرر العقود ذاك، ثقيل الظل والفهم معًا، بطريقة لا إرادية، فاندفع الرجل في مناقشة استغرقت وقتًا طويلًا.

قال الدبلوماسي في النهاية بإشارة من السيدة الشابة: اسمعني إنك تشدخ رأسي. عد غدًا في الساعة التاسعة مع وكيلي في الدعاوى.

- ولكنني سأتشرف بأن أدعوكم يا سيدي الماركيز إلى ملاحظة أننا لسنا متأكدين من مقابلة السيد «ديروش»

غدًا، وإذا لم يكن التكليف الرسمي قد أرسل قبل الظهر فإن المهلة تنقضي و...

في هذه اللحظة دخلت عربة إلى الفناء، واستدارت المرأة المسكينة بقوة لكي تخفي الدموع التي ملأت عينيها على أثر الجلبة التي أحدثتها، ودق الماركيز الجرس لكي يبلغ عن عدم وجوده بالمنزل، ولكن اللواء كان قد عاد فجأة من مسرح «لاجيتيه» فسبق الخادم وظهر ممسكًا ابنته بإحدى يديه وقد احمرت عيناها، وممسكًا باليد الأخرى ابنه الصغير الذي كان عابس الوجه غاضبًا.

سألت المرأة زوجها: ماذا حدث لكم إذن؟

أجاب اللواء وهو يتجه نحو مخدع مجاور كان بابه مفتوحًا فلمح فيه بعض الصحف: سأخبرك بذلك فيما بعد.

وألقت الماركيزة بنفسها في يأس فوق إحدى الأرائك نافدة الصبر.

ورأى محرر العقود أنه مضطر إلى أن يكون لطيفًا مع الأطفال، فاتخذ صوتًا ظريفًا في كلامه وهو يقول للولد: هيه يا صغيري. ماذا يعرض مسرح (لاجيتيه)؟

أجاب «جوستاف» في تذمر: «وادي السيل».

قال محرر العقود: أين عقيدة الرجال الشرفاء... لقد أصبح مؤلفو اليوم أنصاف مجانين. (وادي السيل). ولماذا لا يكون (سيل الوادي) فمن الجائز أن يكون الوادي بلا

سيل. وعندما يقولون (سيل الوادي)؟ يكونون قد أبلغوا شيئًا واضحًا محددًا ذا طابع وذا مفهوم. ولكن فلندع ذلك. الآن، كيف يمكن العثور على الدراما في السيل وفي الوادي؟ سوف تجيبني أن الميل الرئيسي اليوم في أمثال هذه الأنواع من العرض يكمن في (الديكور)، وهذا العنوان وحده يبين ذلك بطريقة مثلى. فهل استمتعتم يا صغيري الماكر؟ قال الرجل ذلك وهم يجلس أمام الطفل.

عندما سأل محرر العقود أي مأساة يمكن العثور عليها في قاع السيل، استدارت ابنة الماركيزة ببطء وبكت. واغتاظت الأم بشدة كبيرة حتى لم تلحظ حركة ابنتها.

أجاب الطفل: أوه! نعم يا سيدي، لقد استمتعت تمامًا... لقد كان في التمثيلية طفل صغير لطيف وحيد في العالم لأن أباه لم يستطع أن يكون والده. وعندما يبلغ مرتقى الجسر فوق السيل يجيء رجل كبير قبيح ذو لحية في ملابس سوداء ويقذف به إلى الماء. وعندئذ جعلت «هيلين» تبكي وتشهق شهيقًا عاليًا حتى إن كل من في القاعة صرخ في وجهنا، وعلى ذلك قادنا والدنا بسرعة إلى الخارج.. وبسرعة خرجنا...

وبقي السيد «ديفاندينيس» والماركيزة معًا مذهولين، وكأن سوءًا مسهما وجردهما من قوة الفكر والعمل.

صاح اللواء: «جوستاف».. اسكت إذن.. لقد منعتك من الكلام عما قد حدث في أثناء العرض وها أنت تنسى

كل تعليماتي.

قال محرر العقود: فلتغفر له جنابكم يا سيدي الماركيز.. لقد أخطأت بسؤاله ولكنني لم أكن أعرف خطورة...

قال الأب وهو ينظر إلى ابنه ببرود: «لقد كان عليه ألا يجيب...».

وبدا سبب عودة الأولاد وعودة والدهم المفاجئة واضحًا جدًّا لدى الدبلوماسي والماركيزة. ونظرت الأم إلى ابنتها ورأتها تبكي، فنهضت لتذهب نحوها، ولكن فجأة تقطب وجهها بشدة وأظهر علامات سورة لم يكن يخففها شيء.

قالت لها: كفى يا «هيلين» هيا اذهبي جففي دموعك في المخدع.

قال محرر العقود الذي أراد أن يهدئ كلا من غضب الأم ونحيب البنت: ماذا فعلت إذن هذه الصغيرة المسكينة؟ إنها لمن الجمال بحيث لا بد أن تكون أعقل مخلوقة في العالم. وإنني لواثق يا سيدتي أنها ألا تمنحك سوى السرور والهناء. أليس كذلك يا صغيرتي؟

ونظرت «هيلين» إلى أمها وهي ترتعد، ومسحت دموعها، وحاولت أن تجعل وجهها ذا تعبير هادئ ثم هربت إلى المخدع.

قال محرر العقود وهو يواصل باستمرار كلامه: «ومن المؤكد يا سيدتي أنك أم طيبة جدًّا حتى لتحبين كل

أولادك بالتساوي. وأنت على أي حال من الفضيلة بحيث لا يمكن أن يكون عندك تفضيلات تعيسة تُتكشف آثارها المشئومة أمامنا نحن محرري العقود. فالمجتمع يمرّ بنا فنرى فيه أيضًا الميول والرغبات في صورتها البشعة، وأعني بها المصلحة. فها هنا امرأة تريد حرمان زوجها من الميراث لصالح الأولاد الذين تفضلهم، في حين يريد الزوج أحيانًا من جهته أن يحجز ثروته للابن الذي حاز كراهية الأم، وعند ذاك تهب المنازعات والمخاوف والحجج والاتفاقيات المضادة للعقود والبيع الشكلي والودائع، ثم في النهاية بعثرات محزنة.. وشرفي... محزنة! فهناك من الآباء من يقضي حياته كلها في عمليات حرمان وراثة لأبنائهم مع سرقة أملاك زوجاتهم نعم.. سرقة.. هذه هي اللفظة الصحيحة. نحن نتكلم عن المأساة. آه! أؤكد لكم أننا لو استطعنا أن نتطرق إلى الأسرار الخاصة ببعض المنح لأمكن مؤلفينا أن يكتبوا عنها فواجع مأساوية «بورجوازية». ولا أدري بأي قدرة تستعين النساء كي يحققن ما يشأن. لأنه برغم كل المظاهر التي تدل على ضعفهن فإنهن يفزن دائمًا بذلك. آه! مثلًا إنهن لا يغررن بي أنا، إذ أنني أخمن دائمًا سبب حب التفضيل ذاك الذي يصفونه في المجتمع أدبًا بأنه لا يقبل التعريف! غير أن الأزواج لا يخمنونه أبدًا، وهذه عدالة يجب أن ترد لهم. قد تجيبني على ذلك بأنه توجد نعم وأفضال.

عادت «هيلين» مع والدها من المخدع إلى (الصالون)

وأصغت بانتباه إلى كلام محرر العقود، وأدركته جيدًا حتى إنها ألقت نظرة تخوف نحو أمها وهي تستشعر بغريزة سنها المبكرة أن هذ الظرف سوف يضاعف من شراسة تأنيبها. واصفر وجه الماركيزة وهي تلوح للكونت في حركة فزع نحو زوجها الذي كان يتأمل زهور السجاجيد في تفكير عميق. وفي هذه اللحظة لم يعد الدبلوماسي -برغم كل خبرته بالحياة- يتمالك نفسه، وقذف محرر العقود بنظرة شبيهة بالصاعقة، وقال له وهو يتجه بقوة نحو الغرفة السابقة على (الصالون): «تعال من هنا يا سيدي».

وتبعه محرر العقود إلى هناك وهو يرتجف دون أن يكمل عبارته.

قال له الماركيز «ديفاندينيس» في غضب مركز، وهو يقفل بقوة باب (الصالون) حيث ترك الزوجة والزوج: «سيدي منذ العشاء لم يصدر عنك إلا سخافات، ولم تفه إلا بحماقات. بالله عليك انصرف من هنا، فإنك ستؤدي في النهاية إلى أكبر النكبات؛ إذا كنت محررًا ممتازًا للعقود فابق في مكتبك، أما إذا وجدت نفسك بالمصادفة وسط الناس في المجتمع فحاول أن تكون أكثر حذرًا...»».

ثم عاد إلى (الصالون) بعد أن فارق محرر العقود دون أن يجيبه. وبقي محرر العقود بعض لحظة مذهولًا تمامًا ومشلولًا دون أن يدري شيئًا من أمره. وعندما كف الطنين الذي كان يدق بأذنيه تخيل أنه سمع عويلًا وحركة خطوات تروح وتجيء في (الصالون)، حيث أخذت

الأجراس ترنّ بقوة. فأحس بالخوف من رؤية الماركيز مرة أخرى، واستعاد قدرته على استخدام ساقيه كي يفرّ ويبلغ السلم، ولكن عند أبواب الردهات كان يصطدم بالخدم الذين أسرعوا لتلقي أوامر سيدهم.

قال لنفسه في النهاية عندما أصبح في الشارع يبحث عن عربة: هاك حال كل هؤلاء الأسياد الكبار.. إنهم يلزمونك بالكلام، ويدعونك إلى الاستمرار فيه بكل ما يطرونك به، فتظن أنك تسرهم، وإذا الأمر ليس كذلك بالمرة! فيعتدون عليك بوقاحة، ويبعدونك ثم يلقون بك إلى الباب دون أي حرج. لقد كنت لطيفًا جدًّا معهم ولم أقل شيئًا دون أن يكون معقولًا متزنًا ملائمًا. ثم إنهم يوصونني بزيادة الحذر برغم أنه لا ينقصني. هيه! يا للشيطان! إنني محرر عقود وعضو الغرفة. آه! إنها لنزوة سفير، فلا شيء مقدس عند هؤلاء الناس. وغدًا سيشرح لي كيف لم أعمل عنده إلا حماقات، وسأسأله الأسباب، أي أنني سأسأله عن سبب ذلك. وفي الجملة قد أكون مخطئًا. والله لقد كنت طيبًا في تكسير رأسي بالحكايات! ولكن ماذا أجدى ذلك لي؟

وعاد محرر العقود إلى بيته ووضع لغزه بين يدي زوجته وهو يروي لها كل أحداث السهرة نقطة بنقطة.

- عزيزي «كروتاه» إن صاحب السعادة على حق تمامًا، وهو يخبرك أنك لم تفعل إلا سخافات ولم تقل إلا حماقات.

- لماذا؟

- يا عزيزي سأقوله لك، ولكن على ألا يمنعك ذلك من أن تبدأ من جديد، في مكان آخر غدًا. وكل ما أوصيك به أيضًا هو ألا تتكلم إطلاقًا إلا في الأعمال حين تكون في مجتمع.

- إذا لم تريدي أن تخبريني أنت به، فسوف أسأل عنه غدًا...

- يا إلهي! إن أتفه الناس يتدارسون كيفية إخفاء هذه الأشياء، وأنت تعتقد أن سفيرًا سيخبرك به! ولكن يا «كروتاه» إنني لم أرك قط مجردًا من العقل على هذا النحو...

- شكرًا يا عزيزتي.

* * *

5

اللقاءان

كان قد جاء إلى (فرساي) ضابط ياوران لنابليون، نطلق عليه فقط اسم الماركيز أو اللواء، وصاحب الثروة الضخمة التي كونها في عهد العودة، ليقضي بعض الأيام الجميلة، فسكن بيتًا ريفيًا قائمًا بين الكنيسة وسور (مونتربي) على الطريق المؤدي إلى شارع (سان كلور) ولم تكن خدمته في البلاط تسمح له بأن يبتعد عن (باريس).

وكان هذا البيت قد بُني قديمًا ليكون مأوى للفتيات العابرات من أجل نزوات الحب لأحد الأشراف الكبار، ولذلك كان هذا البيت القائم وسط بستان يضم ملحقات شاسعة، وكانت الحدائق التي يقوم في وسطها تباعد بالتساوي إلى يمينه وإلى يساره بينه وبين أوائل منازل (مونتربي) والأكواخ المسقوفة بالتبن والمبنية بالقرب من السور. وهكذا كان أسياد البيت لا ينعزلون كثيرًا فيه، كما أنهم كانوا يستمتعون على بعد خطوتين من المدينة بكل لذائذ العزلة. ومن نقائضه الغريبة أن واجهة وباب مدخل البيت كانا يطلان مباشرة على الطريق الذي يحتمل أنه كان في الماضي قليل العمار. ويبدو هذا الافتراض صحيحًا إذا فكرنا أن هذا البيت يقود إلى البيت الجميل الريفي الطراز الذي بناه «لويس الخامس» من أجل الآنسة «دي

رومان»، وقبل أن تصل إليه كان الفضوليون يتعرفون هنا وهناك على أكثر من ملهى (كازينو) يكشف كل ما بداخله و(ديكور) زينته عن المجون والخلاعة اللطيفة عند أسلافنا الذين كانوا يبحثون، على الرغم من الشذوذ الذي اتهموا به، عن بعض الظلال والغموض.

وفي إحدى ليالي الشتاء وجد الماركيز وزوجته وأولاده أنفسهم بمفردهم داخل هذا البيت المعزول، وكان الخدم قد حصلوا على الإذن بالذهاب إلى (فرساي) لحضور احتفال عرس واحد منهم، وخمنوا أن احتفالات التبجيل في عيد الميلاد قد اقترنت بهذا الظرف، فمنحهم ذلك عذرًا معقولًا لدى أسيادهم، ولم يكن يخامرهم أي قلق عندما استنفدوا وقتًا أطول قليلًا للاحتفال مما كانت قد أنعمت عليهم به الأحكام البيتية، وبرغم ذلك فإن اللواء كان معروفًا كرجل لا يقصر إطلاقًا في إنجاز كلمته في نزاهة لا تلين؛ ولذلك لم يعد العاصون للأوامر البيتينة يرقصون دون بعض وخز الضمير عندما انقضى الموعد المحدد لعودتهم.

ودقت الساعة الحادية عشرة منذ قليل، ولم يكن واحد من الخدم قد عاد وكان الصمت العميق الذي يسيطر على الريف يسمح بسماع صفير النسمة العابرة خلال أغصان الشجر السوداء من حين لآخر، وهي تهدر حول البيت، أو وهي تغوص بين الممرات. وكان الصقيع قد نقى الهواء تمامًا وجمد الأرض واعترى ملاط الشوارع بحيث صار لكل شيء ذلك الرنين الجاف الذي تباغتنا دائمًا ظاهراته،

وكانت خطوات سير أحد السكارى المتأخرين الثقيلة، أو ضوضاء مركبة عائدة إلى (باريس) تحدث دويًا أقوى من المعتاد، وتسمع على مسافة أبعد من المعتاد؛ وكانت أوراق الشجر المتناثرة تقوم راقصة تحت تأثير بعض الزوابع المفاجئة، فترتعش وتتذبذب فوق حجارة الفناء بشكل يمنح الليل صوتًا كلما أراد أن يكون كالأبكم.

لقد كانت -في النهاية- إحدى تلك الليالي الشرسة التي تنتزع من أنانيتنا شكوى جدباء لصالح الفقير أو المسافر، وتحيل ركن المدفأة إلى ركن شهواني جدًا. في هذه اللحظة لم تكن الأسرة المجتمعة في «الصالون» تقلق في شيء لغياب الخدم، أو للقوم الذين لا مأوى لهم أو للأشعار التي تتلألأ بها سهرة الشتاء. وبدون فلسفة خارجة عن القصد وثقة في الرجل العسكري القديم، استسلم الأولاد والنساء للمتع التي ولدتها الحياة الداخلية طالما لم تجد الإحساسات أي حرج في الأمر، وطالما كانت العاطفة والصراحة تعمران الكلام والنظرات والألعاب.

وكان اللواء جالسًا أو على الأصح مدفونًا في كرسي واسع بوسادة عال وفسيح في ركن بقرب المدفأة، حيث كانت النار المتتابعة تلمع وتنشر حرارة لاذعة كعلامة على وجود زمهرير خارج البيت. وكان هذا الأب الهمام مستندًا إلى ظهر الكرسي في وضع مائل ميلًا خفيفًا في حين بقي رأسه في وضع يصور تراخيه هدوءًا كاملًا وانشراحًا حلوًا من المتعة؛ وأتم ذلك التعبير عن فكرة

السعادة، ذراعاه المخدرتين نصف تخدير والملقاتين بفتور خارج الكرسي. وجعل يتأمل أصغر أطفاله.. ولد يبلغ سن الخامسة.. نصف عار، ويرفض أن يدع أمه تخلع ملابسه. وأخذ الطفل يهرب من القميص أو من غطاء الرأس الليلي الذي اعتادت الماركيزة أحيانًا أن تهدده به. واحتفظ بحرملته المطرزة، وضحك لأمه عندما أخذت تناديه، وهي تدرك أنها هي نفسها تضحك من هذا التمرد الطفولي. وجعل يلاعب حينذاك أخته التي كانت في مثل سذاجته، ولكن أكثر خبثًا، وتتكلم سلفًا بتمييز أكبر منه. إذ أنه كان مبهم الأقوال مختلط الأفكار بحيث يفهمه أبواه بصعوبة شديدة.

و«موينا» الصغيرة كانت تكبره بسنتين، وتثير بدلالها الأنثوي المبكر ضحكًا لا ينتهي، يصدر مثل الطلقات، ويبدو غير متعلق بسبب. ولكن كانت تكفي رؤيتهما معًا يتدحرجان أمام النار، ويكشفان بلا تخجل جسميهما الجميلين الممتلئين بشكليهما الأبيضين الرقيقين، عامدين خلط خصلات شعر رأسيهما الأسود بالأشقر متضاربين بوجهيهما الورديين حيث كانت الفرحة قد خططت نغزات بسيطة، لكي يفهم الأب وبخاصة الأم بالتأكيد هذه الأرواح الصغيرة التي كانت بالنسبة إليهم محددة الطباع وعاطفية سلفًا. وكان هذان الملاكان من شدة ألوان عيونهما المبللة وخدودهما المتألقة وبشرتهما البيضاء يظهران ألوان زهور السجاجيد اللينة الناعمة بمظهر الباهتة الضعيفة

حيث قام مسرح لهوهما الذي كانا يسقطان عليه وينقلبان ويتصارعان ويتدحرجان فوقه بلا خطر.

وكانت الأم جالسة فوق تخت لجلوس شخصين في الركن الآخر بجوار المدفأة وجهًا لوجه أمام زوجها، وقد تجمعت حولها الملابس المتناثرة وظلت وهي ممسكة بحذاء أحمر في يدها في موقف مليء بالتغاضي، وماتت قسوتها المترددة في ابتسامة عذبة حفرت فوق شفتيها. وكانت في قرابة سن الثلاثين لا تزال تحتفظ بجمال مرجعه إلى الكمال النادر في خطوط وجهها الذي أعارته الحرارة والضوء والسعادة في تلك اللحظة بريقًا فوق الطبيعي. وغالبًا ما كانت تتوقف عن النظر إلى أولادها كيما تعود بعينيها كأنما تربت بهما فوق وجه زوجها الوقور. وعندما كانت عينا الزوجين تتلاقيان أحيانًا كانتا تتبادلان متعًا صامتة وأفكارًا عميقة. وكان للواء وجه أسمر سمرة قوية، وكانت جبهته العريضة الصافية مخططة ببعض خصلات الشعر التي وخطها الشيب، وأخذت ومضات الحزم في عينيه الزرقاوين، والهمة البادية في تجاعيد خديه الذابلين، تكشف عن أنه قد نال الشريط الأحمر الذي كان يزين عروة ملابسه بعد أن بذل من أجله أعمالًا شاقة.

وعندئذ كانت المتع البريئة التي عبر عنها ولداه تعكس على هيئة وجهه الجهم الجامد الذي تخللته بساطة ساذجة وسلامة نية. لقد عاد هذا الضابط القديم طفلًا من جديد دون عناء كبير. أليس يتوافر للضباط دائمًا قليل من الحب

للطفولة بعد أن جربوا شقاوات الحياة بما فيه الكفاية وعرفوا بؤس القوة وامتيازات الضعف؟

وعن بعد كان يجلس صبي صغير في سن الثالثة عشرة يقلب صفحات كتاب كبير في سرعة أمام منضدة مستديرة تضيئها مصابيح على هيئة نجوم، فكأنما تنافس أنوارها القوية ذلك الوهج المصفر الصادر عن الشموع الموضوعة فوق المدفأة. ولم تكن صرخات أخيه وأخته تلهيه إطلاقًا، كما كان وجهه يفشي فضول الصغار. وكان يسوغ هذه المشغولية العميقة روائع كتاب ألف ليلة وليلة المحببة وبحلة «الليسيه» أو المدرسة. وبقى بلا حراك في وضع متأمل يسند كوعًا إلى المنضدة، ويسند رأسه بيده الأخرى، بحيث كانت أصابعه البيضاء تشطر وسط شعر رأسه الأسود. وكان الضوء يسقط عموديًّا على وجهه، وظل باقي جسمه في الظلام، فكان يشبه وهو على ذلك النحو اللوحات السوداء التي كان «رافائيل» يمثل نفسه فيها منتهيًا مائلًا مفكرًا في المستقبل.

وبين هذه المنضدة والماركيزة كانت فتاة شابة طويلة تعمل وهي جالسة أمام نول سجاد تميل فوقه رأسها تارة وتارة تباعده على التعاقب، فصارت شعورها الحالكة السواد الملساء في تفنن تعكس الضوء. وكانت «هيلين» وحدها في حد ذاتها مشهدًا من المشاهد، وتميز جمالها بطابع نادر للقوة والأناقة. وبرغم أن شعر رأسها رفع بطريقة تبرز الملامح الباهرة حول الرأس كان كثيفًا إلى

حد أنه كان يستعصي على أسنان المشط ويشرع في التجعد الشديد ابتداء من الرقبة. وكان حاجباها الكأن المنسقان الأطراف يشطران بياض جبهتها النقية، وكان لديها على شفتها العليا بعض علامات الشجاعة التي تمثل تلوينًا خفيفًا كالصدأ تحت أنف يوناني ذي استدارة في كمال لطيف. أما الأشكال الدائرة الآسرة، والتعبير البريء الواضح في الملامح الأخرى، وشفافية لون بشرتها الرقيق الناعم، وطراوة الشفاه الشهوانية، وحدود الشكل البيضي الذي يرسمه الوجه، وبخاصة تلك القداسة في نظرتها العذراء - كل ذلك كان يطبع على هذا الجمال الصارم عذوبة الأنوثة مع التواضع الفتان الذي نتطلبه في ملائكة السلام والحب هذه، باستثناء أنه لم يكن ثمة شيء ضعيف في هذه الفتاة الشابة. ومن المؤكد أن قلبها أيضًا كان رقيقًا، وأن روحها كانت تمتاز بقوة معادلة لنسبها التي كانت رائعة، ولشكلها الذي كان ساحرًا جذابًا. وكانت تقلد أخاها طالب الليسيه في صمته، وتبدو فريسة واحدة من تأملات البنت الشابة المحترمة التي يتعذر النفاذ إليها غالبًا مهما تكن دقة ملاحظة الأب أو فراسة الأمهات. حتى إنه كان من المستحيل أن نعرف ما إذا كانت الظلال الهوائية المدللة التي كانت تعبر وجهها مثل السحب الضعيفة في سماء صافية مرجعها إلى تلاعب الضوء أم إلى آلام خفية.

وكان الزوج والزوجة قد شغلا تمامًا في تلك اللحظة عن الولدين الكبيرين. وبرغم ذلك أحاطت نظرة اللواء -

المستفسرة غالبًا- بالمشهد الأصم الذي كان يقدم في المرتبة الثانية تحقيقًا لطيفًا للآمال المكتوبة في هذا الشغب الطفولي الظاهر في مقدمة هذه الصور المنزلية، إذ أننا إذا حاولنا تفسير الحياة الإنسانية بدرجات الأشياء العادمة الشعور كانت هذه النماذج تؤلف نوعًا من القصيدة الحية. فترف القطع الملحقة التي تزين «الصالون» وتنوع أوضاعها وتقابلها المعزو إلى اختلاف ألوان الملابس الشديد، والتعارض بين الوجوه من حيث طابع أعمارها المختلفة ومن حيث استدارتها التي تبرزها الأضواء، كانت تشيع فوق هذه الصفحات الإنسانية كل الثروات المطلوبة في النحت ولدى المصورين والكتّاب. وفي النهاية أعار السكون والشتاء والعزلة والليل جلالهم هذا التكوين الرفيع الساذج الأشبه ما يكون بأثر جميل من آثار الطبيعة. والحياة الزوجية ملأى بهذه الساعات المهيبة التي قد يعزى سحرها غير المحدد إلى بعض تذكارات لعالم أفضل. ولا شك في أن أشعة سماوية تنفجر على مثل هذه المشاهد التي تهدف إلى مجازاة الإنسان عن جزء كبير من أحزانه، وإلى دفعه إلى قبول الوجود ويبدو كأن الكون هنالك أمامنا في صورة فنانة، وكأنه يبسط أفكاره النظامية العظيمة وكأن الحياة الاجتماعية تزكي وتطري قوانينه حين تتحدث عن المستقبل.

وعلى الرغم من ذلك، وبرغم النظرة الحنون التي ألقتها «هيلين» نحو «آبيل» و «موينا» عندما انفجرا في إحدى

مباهجهما.. وبرغم السعادة المرسومة فوق وجه «هيلين» الواضح عندما تأملت والدها خفية كانت ثمة عاطفة اكتئاب عميقة مطبوعة على حركاتها وفي عزلتها، وبخاصة في عينيها المحجبتين وراء أجفان طويلة. وكانت يداها.. هاتان اليدان البيضاوان القويتان اللتان كان الضوء يمر فيكسبهما حمرة شفافة تكاد تكون سائلة -هاتان اليدان كانتا ترتعدان.

وفي إحدى المرات فقط تصادمت عيناها وعينا الماركيزة دون أن تشرع إحداهما في الكلام مع الأخرى. كانت هاتان المرأتان تفهم كل منهما الأخرى بنظرة حزينة باردة مليئة بالاحترام لدى «هيلين» وبنظرة قاتمة منذرة لدى الأم. وخفضت «هيلين» نظرها بسرعة فوق النول، وجذبت الإبرة في رشاقة وسرعة حركة، وظلت مدة طويلة لا ترفع رأسها الذي بدا لها كأنه صار أثقل من أن يحمل. هل كانت الأم قاسية على ابنتها؟ وهل كانت تعد هذه القسوة ضرورية؟ هل كانت تغار من جمال «هيلين» التي كانت لا تزال قادرة على أن تنافسها ولكن مع بسط كل تأثير أصباغ الوجه (التواليت) وسحرها؟ أو هل استطاعت الفتاة أن تحصل -كأغلب البنات حين يصبحن راشدات بصيرات على بعض الأسرار التي اعتقدت هذه المرأة التي كانت في المظهر شديدة الإخلاص دينيًّا أنها قد دفنتها في قلبها بعمق كما لو كانت قد دفنتها في قبر؟

كانت «هيلين» قد بلغت السن التي تدفع فيها نقاوة

الروح وصفاؤها إلى تصرفات قاسية تتخطى نطاق الاعتدال المتوسط الذي يجب أن تبقى العواطف عنه. وتأخذ الأخطاء في بعض العقول نسبًا تعادل نسب الجريمة، ويرتد فعل الخيال عندئذ إلى الضمير، وغالبًا ما تبالغ البنات الشابات في العقوبة بسبب المدى الواسع الذي يعطينه للذنوب. وبدت «هيلين» كأنها لا تعتقد أنها أهل لأحد، فقد كان ثمة سر سابق قديم، لعله يكون حادثة غير مفهومة في أول الأمر، ثم تطور مع حساسية ذكائها المرهف الذي خضع لتأثير الأفكار الدينية حتى استحالت منذ وقت قصير إلى شبه ذليلة روائيًّا أو خياليًّا في عينيها الخاصتين. وقد بدأ هذا التغير في سلوكها منذ اليوم الذي قرأت فيه بين دفتي ترجمة حديثة للمسرحيات الأجنبية مأساة «وليام تل» (جيبوم تل) الجميلة التي ألفها «شيلر» فبعد أن وبخت الأم ابنتها لأنها تركت المجلد يسقط منها لاحظت أن التلف الناتج عن هذه القراءة في روح «هيلين» نشأ عن المشهد الذي أقام الشاعر فيه نوعًا من الأخوة بين «وليام تل» الذي أسال دم أحد الرجال من أجل إنقاذ شعب بأكمله وبين «جان لوبار يسيد» ولم تعد «هيلين» بعد أن صارت متواضعة ورعة متبتلة تتمنى الذهاب إلى الحفلات الراقصة، ولم تكن إطلاقًا على مثل هذه الملامسة الناعمة إزاء والدها، وبخاصة عندما لا تكون الماركيزة موجودة لتشهد ملاطفاتها كفتاة شابة.

وعلى الرغم من ذلك كان ثمة برود في عاطفة «هيلين»

نحو أمها كان يظهر على نحو رقيق، بحيث لم يكن اللواء يلحظه مهما كانت درجة غيرته على الاتحاد الذي كان يسود أسرته. ولم يكن للرجل العين النفاذة التي يستطيع أن يجس بها أغوار هذين القلبين النسائيين: فالأول شاب كريم، والآخر حساس مغرور.. الأول كنز من السماحة والثاني مليء بالرقة والعشق. وإذا كانت الأم تحزن ابنتها بطغيان المرأة الحاذق فإن أحدًا لم يكن يحس به سوى الضحية نفسها. على أي حال الحادثة وحدها هي التي أظهرت هذه التخمينات التي لا حل لها. ولم يكن حتى تلك الليلة قد بدر أي ضوء فاضح بين هاتين الروحين ولكن كان قد برز فيما بينهما وبين الله بعض السر المشئوم.

صاحت الماركيزة منتهزة فرصة تعب أو سكون: هيا يا «أبيل» لكن «موينا» بقيت هي وأخوها ساكنين. قالت الماركيزة «هيا، هلم يا بني، يجب أن تذهب لتنام...» ونظرت إليه نظرة آمرة ثم أخذته بقوة فوق ركبتيها.

قال اللواء: كيف هذا؟ الساعة العاشرة والنصف، ولم يعد إلى البيت أي واحد من الخدم؟ آه! هؤلاء المحتالون.

ثم التفت نحو ابنه وقال: «جوستاف»، لم أعطك هذا الكتاب إلا على شرط أن تغادرنا الساعة العاشرة، وكان عليك أن تقفله بيدك أنت في الساعة المحددة، وأن تذهب إلى النوم كما وعدتني. إذا شئت أن تكون رجلًا ملحوظًا فلا بد أن تجعل من وعدك دينًا ثانيًا، وأن

تمسك به كما تمسك بشرفك. وكان «فوكس» أحد كبار الخطباء في إنجلترا مشهورًا على الخصوص بجمال طباعه، وكان الإخلاص نحو الالتزامات المعقودة إحدى صفاته الرئيسية. وقد أعطاه أبوه وهو إنجليزي من الأشراف القدماء في طفولته -درسًا قاسيًا حتى يطبع عقل الطفل الصغير بطابع أبدي. وفي مثل سنك كان «فوكس» يحضر في أثناء الإجازات في بيت والده كان يملك- كل الإنجليز الأثرياء حديقة ذات شأن حول قصره، وكان في تلك الحديقة كوخ قديم يتطلب هدمه وتشييده من جديد في مكان متميز بمنظر رائع ويحب الأطفال كثيرًا رؤية مشاهد الهدم. فأراد «فوكس» الصغير أن يحصل على بعض أيام إجازة أكثر من المعتاد، كي يشهد سقوط البيت الريفي، ولكن والده أصر أن يعود إلى المدرسة في اليوم الموعود في افتتاح الدراسة. ومن هنا تخاصم الوالد وابنه. وأيدت الأم مثل كل الأمهات «فوكس» الصغير، فوعد الأب ابنه عندئذ في مهابة أنه سينتظر الإجازات القادمة كي يهدم الكوخ، فعاد «فوكس» إلى المدرسة. واعتقد الأب أن صبيًّا صغيرًا لاهيًا في دراسته سوف ينسى ذلك الظرف، فهدم الكوخ وأعاد بناءه في المكان الآخر. وتركز عناد الصبي في التفكير في ذلك الكوخ، وعندما عاد إلى بيت والده كان أول اهتمام له هو الذهاب لرؤية المبنى القديم. ولكنه عاد محزونًا جدًّا في ساعة الغداء وقال لولده: «لقد خدعتني». فقال النبيل الإنجليزي العجوز في ارتباك مليء الكرامة: «هذا صحيح يا ولدي؛ ولكنني سأصحح

غلطتي. لا بد من التمسك بالكلمة أكثر من التمسك بالثروة. لأن التمسك بالكلمة يؤدي إلى الثراء، ولا تمحو أعظم الثروات العيب الذي يصيب الضمير بسبب عدم الوفاء بالكلمة» فأعاد الأب بناء الكوخ القديم على نحو ما كان، ثم بعد أن تم بناؤه أمر بأن يهدم أمام ابنه. ولعل هذا «يا جوستاف» يكون لك درسًا.

وأقفل «جوستاف» الكتاب في الحال، بعد أن أصغى بانتباه إلى والده. وجاءت فترة صمت أخذ اللواء «موينا» في أثنائها قسرًا، وقد كانت تغالب النعاس، ووضعها برقة فوقه، وتركت الصغيرة رأسها غير الثابت ينحدر على صدر أبيها، ونامت عليه تمامًا في الحال مغطاة بحلقات شعر رأسها الجميل الذهبية. وفي تلك اللحظة دقت أصوات خطوات مسرعة على الطريق فوق الأرض. وفجأة دقت ثلاث طرقات على الباب أيقظت أصداؤها كل البيت، وتواصلت هذه الطرقات في لهجة يسهل فهمها، كما يسهل فهم صيحة رجل في خطر الموت، ونبح كلب الحراسة في صوت مخيف، وارتعدت «هيلين» و«جوستاف» واللواء وزوجته.. ارتعدوا جميعًا بقوة، ولكن «أبيل» الذي انتهت أمه من تمشيط شعره، و«موينا» لم يستيقظا.

صاح الرجل العسكري وهو يضع ابنته فوق المقعد المبطن بوسادة: إنه متلهف هذا الطارق.

وخرج مندفعًا من «الصالون» دون أن يصغى لرجاء زوجته: يا صديقي لا تذهب...

ومرّ الماركيز بغرفة نومه، والتقط من هناك مسدسين، وأضاء مصباحًا مكتوم الضوء، واندفع نحو السلم، وهبط بسرعة البرق، فوجد نفسه بسرعة إزاء باب البيت الذي تبعه ابنه إليه بشجاعة.

سأل: من هناك؟

أجاب صوت مخنوق تقريبًا في تنفس لاهث: افتح.

- هل أنت صديق؟

- نعم صديق.

- هل أنت بمفردك؟

- نعم؛ افتح لأنهم قادمون!

وانزلق رجل إلى الرواق بسرعة خيالية أشبه ما تكون بسرعة الظل بمجرد أن فتح اللواء الباب قليلًا، ودون أن يتمكن من مقاومة ذلك المجهول اضطره هذا إلى أن يتخلى عن الباب دافعًا إياه بضربة قدم عنيفة، واستند خلفه بعزم كمن يحول دون فتحه. وفجأة رفع اللواء مسدسه والمصباح نحو صدر هذا الغريب كي يفرض عليه الاحترام، فرأى رجلًا متوسط الطول يلبس معطفًا ذا بطانة من الفراء، وملابس كبار السن الواسعة المسترسلة التي لا يبدو أنها أعدت من أجله. وكان اللاجئ - سواء بدافع الفطنة أم بالمصادفة- يغطي جبهته تمامًا بقبعة تخفض إلى مستوى عينيه.

قال الرجل للواء: سيدي، اخفض فوهك مسدسك. لا أزعم أنني سأبقى في بيتك بغير موافقتك. ولكنني إذا خرجت فالموت ينتظرني عند السور. وأي موت! وسوف يسألك الله عنه. أرجوك أن تستضيفني مدة ساعتين. فكر في الأمر جيدًا يا سيدي. مهما كان تضرعي فلا بد من أن أطلب حسب ضغط الحاجة. أريد ضيافة «عربية» أي أن أكون ذا قداسة في نظر، وإلا فافتح لي الباب كي أذهب وأموت لا بد لي من أمانة السر والمأوى والماء... وأعاد بصوت محشرج: أوه! الماء!

سأل اللواء وهو مأخوذ بهذا الاشتهاء المحموم الذي كان يتحدث به المجهول: من أنت؟

أجاب الرجل في لهجة جهنمية ساخرة: آه! من أنا؟ هيه افتح لي إذن. سوف أولي من هنا.

وبرغم مهارة الماركيز في المرور بأشعة مصباحه لم يستطع أن يرى سوى أسفل هذا الوجه، ولم يكن به شيء يزكي هذه الضيافة المطلوبة على نحو فريد من نوعه. قد كان الفكان يرتعدان، وكان لونهما شاحبًا، كما كانت الملامح مقطبة ببشاعة، وكانت عيناه ترتسمان في الظل الذي تسقطه حافة القبعة مثل وهجين يضعف أمامهما ضوء الشمعة الخافت. وبرغم ذلك كان لا بد من إجابة.

قال اللواء: سيدي، إن لغتك غريبة جدًّا وفي مكاني...

صاح الغريب في رنة صوت مخيفة، وهو يقاطع مضيفه:

إنك تتصرف في حياتي.

قال الماركيز: ساعتان؟

أعاد الرجل: ساعتان.

وفجأة رد قبعته إلى الوراء في حركة يأس، وكشف عن جبهته، وأرسل نظرة ذات وضوح قوي نفذت إلى روح اللواء كما لو كان يريد أن يقوم بمحاولة أخيرة. وأشبهت هذه الرمية من الذكاء والإرادة ومضة برق، وكانت ساحقة مثل الصاعقة، إذ توجد لحظات يكون الرجال فيها مزودين بقدرة غير قابلة للتفسير.

قال رب البيت بتجهم وقد اعتقد أنه أطاع واحدة من تلك الحركات الغريزية التي لا يستطيع الإنسان دائمًا أن يفسرها: هلم. مهما تكن فستكون في أمان تحت سقف بيتي.

استطرد المجهول وقد أفلت منه تنهد عميق: فليكافئك الله على ذلك.

سأله اللواء: هل معك سلاح؟

وللإجابة عن ذلك أعطى الغريب اللواء وقتًا لا يكاد يكفي لإلقاء نظرة على معطفه وملفحته ثم أعاد طيه بحذق. ولم يكن معه سلاح ظاهر وكان يلبس بدلة شاب عائد من حفل راقص، ومهما كان مقدار سرعة الفحص الذي قام به الرجل العسكري المتشكك فقد كان ما رآه

كافيًا لأن يصيح: بحق الشيطان أين استطعت أن تذهب في هذا البرد القارس بتلطخ نفسك بالطين؟

- أجابه في تعبير متعال: وأسئلة ثانية!

وفي هذه اللحظة رمق الماركيز ابنه، وتذكر الدرس الذي لقنه إياه منذ قليل عن التنفيذ الصارم للوعد المأخوذ، فأحس بكدر قوي في هذا الظرف، بحيث قال له في نغمة غضب:

- كيف يا أيها الصغير العجيب، تكون هنا بدلًا من أن تكون في سريرك؟

أجاب «جوستاف»: لأنني اعتقدت أنني أستطيع أن أنفعك في الخطر.

أجاب الوالد بشكل أرق تحت تأثير رد ابنه عليه: هيا. اصعد إلى غرفتك.

وقال وهو يواجه المجهول: وأنت اتبعني.

وصارا صامتين كلاعبين يحذر أحدهما الآخر، وبدأ اللواء يحس مشاعر مشؤومة، وصار المجهول يجثم سلفًا فوق قلبه مثل الكابوس، ولكنه قاده وقد سيطر عليه التسليم بالعهد خلال الدهاليز وسلالم البيت إلى أن أدخله في حجرة كبيرة في الطابق الثاني فوق الصالون على وجه التحديد. وكانت هذه الحجرة غير المأهولة تستخدم كمنشر للملابس شتاء، ولم تكن توصل إلى أي مكان في السكن، ولم يكن

بها من الديكور فوق حوائطها الأربعة سوى مرآة فظة مهجورة فوق المدفأة منذ وجود صاحب البيت القديم، ومرآة كبيرة لم تكن مستخدمة في أثناء نقل متاع الماركيز، فوضعت في واجهة المدفأة مؤقتًا، ولم تكن أرضية تلك الغرفة الموجودة تحت السطح مباشرة قد نظفت عن طريق الكنس إطلاقًا، كما كان الهواء فيها باردًا كالثلج، فضلًا عن كرسيين قديمين نزع عنهما القش وهما كل أثاث الغرفة.

وبعد أن وضع اللواء مصباحه فوق مسند المدفأة قال للمجهول:

استلزم أمانك أن تكون هذه الغرفة تحت سطح البيت ملجأك. ولما كنت قد وعدتك بحفظ السر فستعدني بأن تحفظ بابها مقفلًا عليك.

وخفض الرجل رأسه كعلامة على الموافقة، وأضاف: لم أطلب سوى الملاذ والسر والماء.

أجاب الماركيز الذي أغلق الباب بعناية وهبط متحسسًا طريقه إلى الصالون، كي يبحث عن مصباه ليحضر بنفسه دورق ماء من المطبخ: سوف أحضره إليك.

سألت الماركيزة زوجها بقوة: هيه! يا سيدي ماذا هناك؟

أجاب بتعبير بارد: لا شيء يا عزيزتي.

- ولكننا استمعنا برغم ذلك؛ فقد صحبت شخصًا ما إلى

أعلى البيت.

قال اللواء وهو ينظر إلى ابنته وقد رفعت رأسها نحوه: هيلين افهمي أن شرف أبيك متوقف على كتمانك للسر. وينبغي ألا تكوني قد سمعت شيئًا.

وأجابت الفتاة بحركة رأس معبرة. وبقيت الماركيزة محرومة من كل شيء، ومغيظة في قلبها من الطريقة التي اتبعها زوجها كي يفرض عليها الكتمان. وذهب اللواء يأخذ دورق ماء وكوبًا وصعد إلى الغرفة التي كان فيها السجين، فوجده واقفًا مستندًا إلى الحائط بالقرب من المدفأة ورأسه عارٍ، فقد ألقى بقبعته فوق أحد الكرسيين؛ ولم يتوقع الغريب بلا شك أن يلقى عليه النور بقوة، فقد تغضن جبينه، وصار وجهه قلقًا عندما التقت عيناه بعيني اللواء النافذتين. ولكنه صار رقيق الحاشية وأخذ هيئة لطيفة وهو يشكر حاميه. وعندما وضع هذا الأخير الكوب والدورق فوق مسند المدفأة قطع المجهول الصمت، بعد أن قذفه أيضًا بنظرة مشتعلة. قال بصوت رقيق لم تعد فيه أي تقلصات حلقية كما كان من قبل، ولكنه كان لا يزال يفصح عن ارتعاد داخلي: سيدي سوف أبدو لك غريبًا. ولكن اغفر هذه النزوات الوقتية الضرورية. إذا بقيت هنا فإني أرجوك ألا تنظر إلي عندما أشرب.

فاستدار اللواء فجأة متكدرًا من أن يطيع دائمًا رجلًا يستقبحه. وانتزع الغريب من جيبه منديلًا أبيض لفه حول يده اليمنى، ثم أمسك الدورق وشرب ما حواه من الماء

دفعة واحدة، وبغير أن يفكر الماركيز في أن ينكث عهده الضمني نظر آليًا في المرآة، وعندئذ سمح تناظر المرآتين لأن يحيط المجهول بنظره تمامًا، ورأى المنديل يحمر لجأ بتلامس يديه الممتلئتين دمًا.

صاح الرجل عندما انتهى من الشرب ولبس المعطف وفحص اللواء بنظرات شك: آه! لقد رأيتني... لقد ضعت إنهم قادمون. ها هم أولاء.

قال الماركيز: أنا لا أسمع شيئًا.

- أنت لا يهمك شيء بقدر ما يهمني للاستماع في الفضاء.

«لقد تشاجرت إذن في مبارزة حتى تصبح مغطى بالدم على هذا النحو؟» قال اللواء هذا وهو منفعل إلى حد ما عند مشاهدته بوضوح لون البقع الكبيرة التي بللت ملابس ضيفه.

- نعم. مبارزة كما تقول.

وجعل الغريب يردد هذا وقد ترك ابتسامة مريرة تجول بشفتيه.

في هذه اللحظة دوّى صوت خيول عديدة تعدو في أقصى سرعتها عن بعد؛ لكن هذه الضوضاء كانت ضعيفة كأول أضواء الصباح؛ وتعرفت آذان اللواء ذات المران الطويل على خطوات خيول مدربة في نظام السواري، وقال:

«إنهم عساكر «البوليس»».

وألقى على سجينه نظرة تنزع نحو تبديد الشكوك التي ساورته بسبب كتمانه غير الإرادي، وحمل المصباح وعاد إلى «الصالون».

ولم يكد يضع مفتاح الغرفة العالية فوق المدفأة حتى زادت الضوضاء التي أحدثها الفرسان وأخذت تقترب من البيت الريفي بسرعة جعلت بدنه يقشعر. وفعلًا توقفت الخيول أمام باب البيت، وهبط أحد الفرسان من فوق حصانه، وأخذ يتبادل بعض العبارات مع زملائه، ثم دق الباب بشدة، وأجبر اللواء على الذهاب لفتح الباب. ولم يتمالك اللواء انفعاله الخفيّ أمام مرأى ستة جنود من جنود الدرك ذوي القبعات المطرزة بالفضة اللامعة تحت ضوء القمر.

قال له أحد الأونباشية: يا سيادة الشريف، ألم تسمع منذ قليل رجلًا يعدو نحو السور؟

- نحو السور؟ لا..

- ألم تفتح بابك لأحد؟

- وهل لي العادة في أن أفتح أنا بنفسي الباب؟

- ولكن مع الاعتذار يا سيدي اللواء في هذه اللحظة يبدو لي أن...

صاح الماركيز بلهجة الغضب: آه! يا للأمر! هل تحاول أن

تداعبني؟ هل لك الحق..

عاد الأونباشي يقول برقة: لا.. لا.. يا سيادة الشريف، لا شك أنك تغفر اجتهادنا في البحث. نحن نعرف جيدًا أن أحد الأمراء الفرنسيين لن يعرض نفسه لاستقبال قاتل في هذه الساعة من الليل، غير أن رغبتنا في الحصول على بعض المعلومات..

صاح اللواء: قاتل! ومن كان إذن...

قال العسكري: السيد البارون دي موني قتل منذ لحظة بضربة فأس؛ غير أن القاتل قد أصبحت خطواته تحت متابعة دقيقة، ونحن متأكدون من أنه في هذه الأماكن القريبة، وسوف نمسك به. اغفر لنا يا سيدي اللواء.

قال العسكري ذلك وهو يقفز فوق فرسه حتى إنه لم يتمكن لحسن الحظ أن يشهد وجه اللواء. وقد اعتاد «الأونباشي» أن يفترض كل شيء ولعله كان يستطيع أن يلمح الشكوك في مرأى هذا الوجه المكشوف حيث كانت تموج بإخلاص شديد كل حركات الروح.

سأل اللواء: هل تعرف اسم القاتل؟

أجاب الفارس: لا.. لقد غادر المكتب مملوءًا بالذهب وبالأوراق المالية دون أن يلمسها.

قال الماركيز: إنه أخذ بالثأر.

- هوه! من رجل عجوز؟... لا... لا، لم يتمكن ذاك السفيه

من أن يقوم بمهمته.

ولحق الشرطي برفاقه الذين كانوا يعدون على مبعدة، وبقي اللواء لحظة فريسة حيرة من السهل فهمها. وسرعان ما سمع صوت خدمه الذين كانوا عائدين وهم يتناقشون في حرارة مما جعل أصواتهم تدوّي عند ناصية (مونتريي).

وعندما وصلوا صبّ غضبته التي كان لا بد لها من مسوغ كي تظهر بهذه الحدة عليهم مثل وقع الصاعقة، وأرعد صوته مواقع الأصداء بالبيت، ثم خفض صوته فجأة عندما اعتذر أكثرهم جرأة ومهارة، وهو خادمه الخاص، عن تأخرهم بإبلاغه أن الشرطة ورجال البوليس قد استوقفوهم عند مدخل (مونتريي) للتحقيق بشأن قاتل. وفجأة صمت اللواء. ثم تذكر بهذه الكلمة وضعه الفريد، فأمر هؤلاء الخدم جميعًا بلهجة جافة أن يذهبواليناموا في الحال، وهم مستغربون لسهولة تصديقه أكذوبة الخادم.

ولكن عندما كانت هذه الأحداث تمر بالفناء وقعت حادثة خفيفة إلى حد ما من حيث المظهر بدلت من موقف الشخصيات الأخرى الممثلة في هذه القصة. فلم يكد الماركيز يخرج حتى قالت زوجته -بعد أن ألقت نظرات متبادلة بين مفتاح غرفة تحت السطح وبين «هيلين»- قالت بصوت منخفض وهي تميل نحو ابنتها: «هيلين» لقد ترك والدك المفتاح فوق المدفأة.

فذهلت الفتاة الشابة، ورفعت رأسها، ونظرت في خجل

نحو أمها التي كانت عيناها محتدمتين فضولًا.

أجابت بصوت مضطرب: هيه يا ماما؟

- إنني أريد أن أعرف ما يدور في أعلى البيت.. إذا كان ثمة شخص فلا شك أنه لم يمض بعد. اذهبي إذن إلى هناك..

قالت الفتاة بشيء من الفزع: أنا؟

- هل تخافين؟

- لا يا سيدتي، ولكنني أعتقد أنني تبينت خطوات رجل.

قالت الأم بنغمة الاحترام البارد: لو كنت أستطيع أن أذهب بنفسي لما رجوتك أن تصعدي يا «هيلين» إذا عاد والدك ولم يجدني فمن المحتمل أن يبحث عني. في حين أنه لن يلتفت إلى غيابك.

أجابت «هيلين»: سيدتي، إذا كنت توصينني بذلك فسأقوم به، ولكنني سأفقد تقدير والدي...

قالت الماركيزة بلهجة ساخرة: كيف؟ ولكن ما دمت تأخذين مأخذ الجد ما لم يكن سوى دعابة، فالآن آمرك بأن تذهبي لتري ما يجري في الطابق الأعلى. هاك المفتاح يا بنتي! إذا كان والدك قد أوصاك بالتزام الصمت فيما يتعلق بما يدور الآن ببيته فإنه لم يحرم عليك أن تصعدي إلى تلك الغرفة. هيا اذهبي واعرفي أنه لا ينبغي إطلاقًا أن

تكون الأم موضع سوء ظن من ابنتها...

وبعد أن نطقت الماركيزة هذه الأقوال الأخيرة بقسوة الأم المهانة إهانة كاملة، أخذت المفتاح وأودعته يد «هيلين» التي هبت دون أن تنطق بكلمة وغادرت «الصالون».

«أمي تعرف دائمًا كيف تحصل على عفوه، ولكنني سأفقد مكانتي لديه، فهل تريد أن تحرمني من الحنان الذي يحفظه لي، وأن تطردني من البيت؟» أخذت هذه الأفكار تختمر في خيالها فجأة أثناء سيرها بغير ضوء على طول الرواق الذي كان باب الغرفة السرية في نهايته. وعندما وصلت عندها كان اضطراب أفكارها ذا طابع محتوم، وأدى هذا النوع من التأمل المضطرب إلى طفح آلاف المشاعر التي كانت حتى ذلك الوقت كامنة في قلبها. ولعلها لم تعد تتوقع سلفًا مستقبلًا سعيدًا، فصارت الآن في هذه اللحظة الرهيبة مكتملة اليأس من الحياة، وارتعدت بتشنج وهي تدنو بالمفتاح من القفل، وصار انفعالها من القوة بحيث وقفت لحظة لتضع يدها على قلبها كأنها تستطيع بذلك أن تهدئ من ضرباته العميقة الرنانة.

وفي النهاية فتحت الباب. وعبثًا بلغ صرير المفتاح في القفل آذان القاتل؛ إذ برغم أن سمعه كان مرهفًا جدًّا بقي ملتصقًا بالحائط تقريبًا بلا حراك كما لو كان ضائعًا مع أفكاره. واستطاعت دائرة الضوء التي أسقطها المصباح أن تنيره بعض الشيء، فكان يشبه في منطقة الوسط بين

الضوء والظلمة تلك التماثيل المعتمة الخاصة بالأشراف القدماء الواقفة دائمًا عند زاوية بعض المقابر السوداء في الكنائس القوطية الصغيرة، وكانت بعض قطرات من العرق البارد تخطط جبهته العريضة الصفراء، وكانت تلمع فوق هذا الوجه الشديد التقطيب جرأة لا يتصورها العقل، وكانت عيناه محتدمتين ثابتتين جافتين تبدوان كأنه يتأمل صراعًا في قلب الظلام الماثل أمامه. ومرت فوق وجهه أفكار عاصفة بسرعة، وكان تعبير وجهه الثابت المحدد يشير إلى روح عالية. أما بدنه ووضعه والأبعاد المتمثلة فيه فكانت ملائمة لعبقريته غير الآدمية. إذ كان هذا الرجل قوة محضة، وقدرة محضة، وكان يواجه الظلمات كصورة مرئية لمستقبله.

ولما كان اللواء قد اعتاد رؤية النماذج النشيطة من العمالقة التي كانت تتعجل الخطو حول «نابليون» وكان مشغول الذهن آنئذ ببعض الفضول الأدبي، فإنه لم يعط صفات هذا الرجل الشاذ الجسمية الفريدة أي انتباه. ولكن حين خضعت «هيلين» ككل النساء للانطباعات الخارجية أخذت بهذا الخليط من الضوء والظل ومن العظمة والعاطفة وبهذا العماء الشعري الذي أظهر الرجل المجهول في مظهر «لوسيفر» أو الشيطان حين هبّ من سقطته.

وفجأة هبطت السَّوْرة المرسومة على وجهه كما لو كان ذلك بفعل السحر، وانتشرت السيطرة غير المحددة التي

كان ذلك الغريب على غير علمه مبدأها ونتيجتها في آن معًا، في كل ما حوله بسرعة تقدم الطوفان، وصدر سيل من الأفكار عن جبهته عندما عادت ملامحه تأخذ أشكالها الطبيعية.

وكأنما أسرت الفتاة، سواء بغرابة هذه المواجهة أم بالسر الذي نفذت إليه، فأمكنها عندئذ أن تعجب بهيئة وجه رقيقة مليئة بالخير. وبقيت بعض الوقت في صمت ساحر، وفريسة لاضطرابات لم تعهدها روحها الشابة حتى ذلك الوقت. ولكن سرعان ما حدث أن «هيلين» إما أن تكون قد أصدرت صيحة استغراب وقامت بحركة، أو أن يكون القاتل، وقد عاد من دنيا المثال إلى دنيا الواقع قد سمع صوت تنفس غير تنفسه فالتفت برأسه نحو بنت مضيفه، ولمح بغير وضوح وجهها الجليل، والأشكال المهيبة، لمخلوقة كان يمكن أن يحسبها ملاكًا بمجرد رؤيتها ساكنة ومبهمة مثل (الرؤية العلوية).

قالت في صوت خافت: «سيدي».

وارتعد القاتل.

صاح برقة: امرأة؟ هل هذا ممكن؟ ابتعدي.

وعاد يقول: أنا لا أعطي أحدًا الحق في أن أشكو إليه وأن يحكم لي أو عليّ. يجب أن أعيش وحيدًا. اذهبي يا طفلتي. ثم أضاف بحركة من حركات العظماء: سوف أكون خائنًا للخدمة التي أداها إليّ رب هذا البيت إذا

تركت شخصًا واحدًا من الأشخاص الذين يسكنون هنا يشاركني في تنفس نفس الهواء. لا بد أن أخضع نفسي لقوانين المجتمع.

نطق بهذه العبارة الأخيرة في صوت منخفض، وبعد أن انتهى بحدسه العميق من الإلمام بالشقاء الذي توحي به هذه الفكرة الحزينة ألقى نظرة ثعبان نحو «هيلين» وأهاج في خاطر هذه الشابة الفريدة عالمًا من الأفكار التي كانت لا تزال نائمة لديها، لقد كان ذلك شبيهًا بالضوء الذي أنار لها آفاقًا كانت لا تزال مجهولة؛ وغلبت روحها وقهرت دون أن تجد القوة للدفاع عن نفسها ضد هذه القوة المغناطيسية في تلك النظرة، على الرغم من أنه لم يلقها عن عمد. وخرجت في خجل وارتعاد، وعادت إلى «الصالون» قبل عودة والدها بلحظة حتى إنها لم تكد تملك أن تقول شيئًا لوالدتها.

وأخذ اللواء يتمشى مشغولًا بهدوء، وذراعاه متشابكان ذاهبًا آيبًا في خطوات موحدة الهيئة بين النوافذ المطلة على الشارع والنوافذ المطلة على البستان. وكانت زوجته تحتفظ «بأبيل» وهو نائم. ونامت «موينا» غير مبالية فوق المقعد المبطن كعصفور في عشه. وأمسكت الأخت الكبرى بكرة من الحرير في إحدى يديها وبإبرة في اليد الأخرى وأخذت تتأمل النار. ولم يكن يقطع الصمت العميق السائد في «الصالون» وفي الخارج وفي بقية أنحاء البيت سوى خطوات الخدم الزاحفة، وهم في طريقهم إلى

النوم، واحدًا بعد الآخر وكذلك بعض ضحكاتهم المكتومة كصدى أخير لمرحهم وللاحتفال بالزواج ثم أيضًا أبواب غرفهم، كلا بمفرده، عندما كانوا يفتحونها أو يقفلونها، وهم لا يزالون يتبادلون الحديث. كذلك كانت تتصاعد بعض الجلبة الصماء. من الأسرة، وسقط كرسي، ودوى سعال سائق عربة بضعف ثم خبا الصوت.

ولكن لم تلبث الظلمة الرهيبة التي فاضت على الطبيعة الناعسة في منتصف الليل أن سيطرت على كل شيء وظلت النجوم وحدها تتلألأ وأمسك البرد بالأرض، ولم يكن أحد يتكلم أو يتحرك، النار فقط كانت تحس حسيسًا مستمرًّا كأنما تريد أن تكشف مدى عمق الصمت. ودقت ساعة (مونتريي) الواحدة.

في هذه اللحظة دوى صوت خطوات خفيفة جدًّا دويًّا ضعيفًا في الطابق الأعلى؛ وكان الماركيز وابنته متأكدين من إغلاق باب قاتل السيد «دي موني» فعزوا هذه الحركة إلى إحدى النساء، ولم يستغربا سماع صوت فتح الأبواب الخاصة بالغرفة السابقة على (الصالون) وفجأة ظهر القاتل وسطهم، وسمحت له الدهشة الكبيرة التي غرق فيها الماركيز وفضول الأم الشديد واستغراب الابنة بأن يتقدم حتى كاد يصبح في وسط (الصالون) وبأن يقول للواء في صوت منغم هادئ فريد: سيادة الشريف، ستنتهي الساعتان عما قليل.

صاح اللواء أنت هنا؟... بأي قدرة؟!

وبنظرة مفزعة سأل الرجل العسكري زوجته وأولاده، وصارت «هيلين» في حمرة النار، وعاد يقول بنغمة نفاذة: أنت؟ أنت في وسطنا هنا؟ قاتل مغطى بالدم هنا؟ إنك توسخ المنظر! وأضاف بلهجة حانقة: اخرج! اخرج!

أمام لفظة قاتل أصدرت الماركيزة صرخة. أما «هيلين» فقد بدت هذه اللفظة كما لو كانت تقرّر كل شيء في حياتها، فلم يفصح وجهها عن أقل استغراب، إذ بدت كما لو كانت قد انتظرت هذا الرجل. وكان لأفكارها الممتدة إلى ذلك الحد معنى، فقد أشرقت العقوبة التي احتفظت لها بها السماء على ما اقترفته من أخطاء. ولما كانت تعتقد أنها هي الأخرى صاحبة جريمة على نحو ما كان ذلك الرجل، فقد نظرت إليه الفتاة بعين بشوش.. لقد كانت رفيقته وأخته. وفي نظرها تكشفت وصية من وصايا الله في هذا الظرف. وكان العقل قادرًا على أن يبرز هذه الوخزات بعد ذلك بسنوات، أما في تلك اللحظة فقد جعلها عديمة الإحساس.

بقي الغريب باردًا بلا حراك. وعلت ملامحه وشفتيه الحمراوين الكبيرتين ابتسامة استخفاف.

- إنك تجازيني مجازاة سيئة على نبل إجراءاتي حيالك.

قال ببطء: لم أشأ أن ألمس بيدي الكوب الذي أعطيتني فيه الماء من غلة عطشي، بل لم أفكر في أن أغسل يدي الملطختين بالدم تحت سقف بيتك، وأخرج منه دون أن

أدع فيه من جريمتي (انضغطت شفتاه عند النطق بهذه اللفظة) سوى الفكرة عندما أحاول العبور هنا دون أن أترك آثارًا. وأخيرًا لم أسمح لابنتك قط أن...

صاح اللواء وهو ينظر إلى «هيلين» نظرة رعب: ابنتي! آه، يا لمصيبتك! اخرج وإلا قتلتك.

- لم تنقض الساعتان بعد، ولن تستطيع أن تقتلني أو أن تسلمني دون أن تفقد تقديرك الخاص. وكذلك تقديري.

وقد ذهل الرجل العسكري لسماع هذه الكلمة الأخيرة، فحاول أن يتفرس في صاحب الجريمة. ولكنه اضطر إلى خفض نظراته، لأنه أحس بأنه غير قادر على أن يقاوم بريق نظرته الذي لا يحتمل، والذي استطاع للمرة الثانية أن يشيع الاضطراب في روحه، وخشي أن تضعف قواه أيضًا عندما يعترف بأن إرادته قد وهنت سلفًا.

- تقتل شيخًا مسنًّا؟! لم يكن لديك إذن أسرة أبدًا؟

قال ذلك وهو يشير بحركة أبوية نحو زوجته وأولاده.

وأعاد المجهول قوله الذي تقطب بسببه جبينه تقطيبًا خفيفًا: نعم، شيخ مسن.

صاح اللواء دون أن يجرؤ على النظر إلى ضيفه: اهرب... لقد نقض العهد بيننا. ولن أقتلك. لا! فلن أجعل من نفسي إطلاقًا مديرًا لتموين المقصلة. ولكن اخرج.. إنك تفزعنا.

أجاب صاحب الجريمة باستعفاء: أنا أعرف ذلك.. لا يوجد مكان في فرنسا أستطيع أن أضع فيه قدمي في أمان. ولكن لو عرفت العدالة مثل الله الحكم على الخصوصيات... لو تنازلت بأن تحقق: من الوحش؟ أهو القاتل أم الضحية؟... لبقيت باعتزاز وافتخار بين الرجال. ألا تخمنون أن الرجل المقتول بالفأس منذ قليل كان هو نفسه ذا جرائم سابقة؟ لقد جعلت من نفسي الحكم والجلاد معًا، وحللت محلّ العدالة الإنسانية العاجزة المشلولة. هاك جريمتي. وداعًا يا سيدي وبرغم كل المرارة التي جعلتها تشوب ضيافتك سأحتفظ بذكراها، وستبقى في روحي مشاعر اعتراف إزاء رجل في العالم، وهذا الرجل هو أنت.. ولكن كم وددت أن تكون أكرم من ذلك.

واتجه نحو الباب. وفي هذه اللحظة مالت الفتاة على أمها وقالت لها كلمة في أذنها.

- آه!...

أفلتت هذه الصيحة من زوجة اللواء حتى جعلته هو نفسه يجفل كما لو كان قد شهد «موينا» ميتة. وكانت «هيلين» واقفة، واستدار القاتل غريزيًا مبديًا نوعًا من القلق على وجهه نحو هذه الأسرة...

سأل الماركيز: ماذا بك.. يا عزيزتي؟

- «هيلين» تريد أن نتبعه.

واحمر وجه القاتل.

قالت «هيلين» بصوت منخفض: ما دامت أمي تترجم على هذا النحو السيئ تعجبًا لا إراديًا تقريبًا فسوف أحقق أمنياتها.

وبعد أن ألقت نظرة زهو وحشي تقريبًا حولها أخفضت الفتاة عينيها وظلت في وضع رائع من التواضع.

قال اللواء: «هيلين...» لقد صعدت إلى أعلى البيت في الغرفة التي استبقيت..

- نعم يا أبي.

- فليس طبيعيًا إذن أن تهدفي إلى...

- إذا لم يكن طبيعيًا فهو على الأقل صحيح يا والدي.

قالت الماركيزة بصوت منخفض ولكن بحيث يسمعها زوجها: آه! يا بنتي؟.. «هيلين»، أنت تفترين على كل مبادئ الشرف والتواضع والفضيلة التي حاولت تنميتها في قلبك. إذا لم تكوني سوى أكذوبة حتى هذه الساعة المقدورة فإنه لا يؤسف عليك إطلاقًا. هل الكمال الأخلاقي لدى هذا المجهول هو الذي يغريك؟ وهل هذا هو نوع القدرة الضرورية لدى الناس الذين يرتكبون جريمة؟... إنني أقدرك تقديرًا أكبر من أن أفترض...

أجابت «هيلين» بنغمة باردة: أوه! افترضي كل شيء يا سيدتي.

ولكن برغم قوة الطباع التي أثبتتها في تلك اللحظة جفف

احتدام عينيها بصعوبة الدموع التي ترقرقت فيهما. وخمن الغريب لغة الأم من بكاء الشابة، وألقى نظرة (نسر) نحو الماركيزة التي اضطرت بقوة لا تقاوم أن تنظر نحو هذا الغاوي الرجيم. والواقع أنه عندما تقابلت عينا تلك المرأة بعيني هذا الرجل الصافيتين المضيئين أحست في روحها برعشة شبيهة بالهياج الذي يصيبنا عند مرأى الحية أو عندما نلمس زجاجة من الخمر المعتق!

صاحت هي نحو زوجها: يا زوجي... إنه الشيطان! فهو يستنبئ بكل شيء...

وهب اللواء كي يمسك بحبل الجرس.

قالت «هيلين» للقاتل: سوف يهلكك.

فابتسم المجهول، وتقدم خطوة، ووقف ذراع الماركيز، وأرغمه على أن يتحمل نظرة ملأته بالذهول ونزعت منه قوته.

قال: سوف أدفع لك ثمن ضيافتك وبهذا نصبح بريئي الذمة. وسوف أوفر عليك العار فأقوم بتسليم نفسي. إذ ما الذي سوف أعمله الآن في الحياة بعد كل ذلك؟

أجابت «هيلين» وهي توجه إليه أحد الآمال التي لا تلمع إلا في عيني فتاة: تستطيع أن تندم.

قال القاتل في صوت جهير، وهو يرفع راسه في خيلاء: لم أندم على الإطلاق.

قال الوالد لابنته: إن يديه ملطختان بالدم.

أجابت: سوف أجففهما.

عاد اللواء إلى كلامه دون أن يجسر على الإشارة إلى المجهول: ولكن... هل تعرفين فقط ما إذا كان هو يريدك؟

فتقدم القاتل نحو «هيلين» التي بدا جمالها برغم براءته وتهويمه كما لو كان يضيء بنور داخلي استطاعت أشعته أن تطلي وأن تبرز أصغر ملامحها وأرق خطوطها إن صح هذا التعبير. وبعد أن ألقى على هذه المخلوقة الساحرة نظرة عذبة لا يزال شررها عنيفًا، قال وهو يحاول أن يخفي انفعالًا حارًّا: أليس في حبي لك، من أجلك أنت ذاتك، وفي تبرئة ذمتي من ساعتي الحياة اللتين باعهما لي والدك رفض لتضحيتك وإخلاصك؟

صاحت «هيلين» في لهجة مزقت القلوب: وأنت أيضًا ترفضني؟ وداعًا إذن للجميع سوف أذهب لأموت.

قال الأب والأم معًا: ما معنى ذلك؟

فبقيت صامتة، وخفضت عينيها بعد أن استجوبت الماركيزة بنظرة عين بليغة. منذ اللحظة التي حاول اللواء وزوجته فيها الصراع بالأقوال وبالأفعال ضد الامتياز الغريب الذي انتحله المجهول بالبقاء وسطهم والتي حاول هذا الأخير ابتداء منها أن يقذف بالضوء الذي يسبب الدوار النابع من عينيه، بقي اللواء وزوجته خاضعين لفتور لا تفسير له؛ وعاونهما عقلهما المسترخي معاونة غير مجدية

لقهر القدرة العلوية التي وقعت تحتها.

وصار الهواء ثقيلًا بالنسبة إليهما، وأخذا يتنفسان بصعوبة دون أن يستطيعا إبداء أي اتهام نحو ذلك الذي طغى عليهما بهذه الطريقة، برغم أن صوتًا داخليًا جعلهما يدركان أن ذلك الرجل السحري هو مصدر عجزهما. وفي وسط هذا الاحتضار المعنوي خمن اللواء أن جهوده يجب أن تهدف إلى التأثير على عقل ابنته المزعزع، فأمسك بها من وسطها، ونقلها إلى شباك بعيد عن القاتل.

وقال لها بصوت منخفض: ابنتي العزيزة، إذا كان قد ظهر حب غريب فجأة في قلبك فإن حياتك المليئة بالبراءة وروحك النقية التقية، قد أعطياني أدلة عديدة على طباعك كيلا أفترض أنك بحاجة إلى طاقة من أجل التغلب على حركة جنونية. وإلا فإن سلوكك يخفي سرًا إذن وعلى كل حال فإن قلبي مليء بالتسامح، وتستطيعين أن تعترفي لي بكل شيء، ولو مزّقت قلبي فسأعرف يا بنتي إسكات آلامي والاحتفاظ لاعترافك بصمت مخلص. هيا.. هل أنت تغيرين من عاطفتنا نحو إخوتك أو نحو أختك الصغيرة؟ هل يوجد في روحك حزن غرامي؟ تكلمي. اشرحي لي الأسباب التي تدفعك إلى هجر أسرتك واعتزالها وحرمانها من أكبر مفاتنها ومفارقة أمك وإخوتك وأختك الصغيرة.

أجابت: يا أبي، إني لست غيورًا من أحد، ولا عاشقة أحدًا ولا حتى صديقك الدبلوماسي السيد «ديفانديتيس».

واصفر وجه الماركيزة وتوقفت ابنتها وهي تتأملها.

- أليس من واجبي إن عاجلًا أو آجلًا أن أذهب لأعيش في حماية رجل؟

- هذا صحيح.

- وهل نستطيع أبدًا أن نعرف بأي إنسان نربط مصيرنا؟ إنني أعتقد في هذا الرجل.

قال اللواء وهو يرفع صوته: يا طفلة؛ ألا تفكرين في كل المصاعب والآلام التي سوف تلاحقك.

- إنني أفكر في مصاعبه وآلامه...

قال الأب: أي حياة!

أجابت الابنة وهي تتمتم: حياة امرأة.

صاحت الماركيزة وقد استردت الكلام: إنك لا شك عالمة.

- سيدتي. إن الأسئلة تملي عليَّ الأجوبة. ولكن إذا شئت فسأتكلم بوضوح أكبر.

- قولي كل شيء يا بنتي. فأنا أم.

هنا نظرت البنت إلى الأم، وأدت هذه النظرة إلى سكوت الماركيزة بعض الوقت.

- «هيلين» سأتحمل انتقاداتك ومؤاخذاتك إذا كان لديك

شيء منها نحوي، على أن أراك تتبعين رجلًا يتحاشاه الجميع فزعًا.

- (ها أنت ذي) ترين يا سيدتي أنه بدوني سيكون وحيدًا.

قال اللواء: كفى يا سيدتي فلم يعد لدينا سوى ابنة واحدة!

ونظر إلى «موينا» التي كانت نائمة باستمرار، ثم أضاف وهو يلتف نحو «هيلين» وسوف أحبسك في أحد الأديرة.

أجابت بهدوء مؤيس: ليكن يا أبي... وسأموت فيه. لست مسئولًا عن حياتي أو عن روحها إلا أمام الله.

وتبع هذه الأقوال لجأة صمت عميق. ولم يجرؤ شهود هذا المشهد الذي كان كل شيء فيه يمس الإحساسات العادية في الحياة الاجتماعية على أن ينظر أحدهم إلى الآخر. ولجأة لمح الماركيز مسدساته، فأمسك بواحد منها وعمره بخفة ووجهه نحو الغريب، وعند سماع الرجل الصوت الصادر عن القرقعة استدار، وألقى نظرته الهادئة النفاذة نحو اللواء الذي استرخت ذراعه بطراوة لا تقهر، وسقط في ثقل بحيث تدحرج المسدس فوق السجادة...

قال الأب مخذولًا عندئذ في هذا الصراع المخيف: ابنتي أنت حرة. قبلي أمك إذا كانت تريد أن تقبلك، أما أنا فلا أريد أن أراك أو أن أسمعك..

قالت الأم إلى ابنتها: «هيلين، إذن فكري أنك ستعيشين في شقاء».

وخرجت زفرة أو فواقة من صدر القاتل العريض جذبت إليه الأنظار، وكان وجهه مصبوغًا بتعبير ازدراء.

صاح اللواء ناهضًا: ها هي ذي ضيافتي لك تكلفني ثمنًا باهظًا! لقد قتلت منذ قليل شيخًا مسنًا، وها هنا تعتدي بالقتل على أسرة بأكملها. مهما يحدث فسيكون ثمة شقاء بهذا البيت.

سأل القاتل وهو ينظر إلى الرجل العسكري بثبات: وإذا كانت ابنتك سعيدة؟

أجاب الأب بمجهود مذهل: إذا كانت سعيدة معك، فلن أندم عليها.

وهبطت «هيلين» على ركبتيها في حياء أمام أبيها، وقالت له بصوت عطوف: أي أبت، إنني أحبك واحترمك سواء بذلت لي كنوز طيبتك أو جفاوات حرمانك لي من حظوتك ورضاك. ولكنني أتوسل إليك ألا تكون آخر أقوالك لي أقوال غضب.

ولم يجرؤ اللواء على أن يتأمل ابنته، في هذه اللحظة تقدم الغريب ملقيًا نحو «هيلين» ابتسامة محملة بشيء من الجحيم وبشيء من الفردوس معًا، وقال:

- أنت يا من لا يخفيك قاتل... يا ملاك الرحمة. هلمي.

تعالي ما دمت مصرّة على أن تكلي إليّ مقاليد مصيرك.

صاح الأب: شيء لا يتصور.

وألقت الماركيزة نحو ابنتها نظرة غريبة، وفتحت لها ذراعيها، فهرعت إليها «هيلين» باكية.

وداعًا. وداعًا يا أماه!

وأعطت «هيلين» الغريب إشارة بجسارة أطربته، وبعد أن قبلت يد والدها وقبلت «موينا» و«أبيل» الصغير بسرعة، ولكن بغير متعة، ولت الأدبار مع القاتل.

صاح اللواء وهو يصغي لخطوات الهاربين: من أي جهة يذهبون؟

وعاد يقول وهو يقول وهو يوجه الكلام إلى زوجته: سيدتي، أعتقد أنني في حلم: تخفي هذه المغامرة عني سرًّا ما، لا بد أنك تعرفينه.

وارتجفت الماركيزة، وأجابت:

لقد صارت ابنتك... منذ بعض الوقت ذات خيال روائي غريب ومتهوس هوسًا فريدًا. وبرغم اهتماماتي بالقضاء على تلك النزعة في خصالها...

- ليس هذا واضحًا...

ولكن خيل إليه أنه سمع في الحديقة خطوات ابنته والرجل الغريب فقطع اللواء كلامه كي يفتح الشباك

بسرعة، وصاح: «هيلين».

وضاع هذا الصوت في الليل البهيم كنبوءة غير مجدية. وعند نطقه بهذا الاسم الذي لم يعد يعادله شيء في الوجود، أفاق اللواء كما لو كان بفعل رقية سحر من الافتتان الذي جعلته قدرة رجيمة أسيرًا له، وكما لو كان قد تخلل وجهه ضرب من الإلهام الإلهي. فرأى المشهد الذي جرى منذ هنيهة في وضوح، ولعن ضعفه الذي لم يفهمه، وصعدت قشعريرة حارة من قلبه إلى رأسه وإلى قدميه، وعاد هو نفسه مخيفًا متعطشًا إلى الانتقام وصاح صيحة مريعة: النجدة! النجدة!

وجرى نحو حبال الأجراس وشدها كما لو كان يريد أن يحطمها بعد أن جعلها ترنّ رنينًا عجيبًا. وهب كل الخدم قفزًا من نومهم؛ أما هو فظل دائم الصياح، وفتح نوافذ الطريق، ونادى الشرطة، وأحضر مسدساته وأطلقها كي يتعجل سير «السواري» واستيقاظ خدمه ومجيء جيرانه. وتعرف الكلاب على صوت سيدهم عندئذ ونبحت، كما أخذت الخيول تصهل وتنكت الأرض بأقدامها. وتحول المشهد إلى زوبعة ضارية وسط تلك الليلة الهادئة. ورأى اللواء وهو يهبط السلالم عدوًا وراء ابنته خدمه مذعورين وقد تجمعوا من كل صوب.

- ابنتي! «هيلين» اختطفت. اذهبوا إلى الحديقة! راقبوا الشارع! افتحوا للشرطة! يا للقاتل!

وفي الحال حطم السلسلة التي تعوق كلب الصيد الكبير بقوة الغضب.

- «هيلين»! «هيلين»!

ووثب الكلب وثبة أسد، ونبح مسعورًا، واندفع في الحديقة بسرعة حتى لم يعد اللواء يستطيع أن يتبعه. ودوّت في هذه اللحظة أصوات عدو الخيول في الشارع، وذهب اللواء مهرولًا يفتح الباب بنفسه.

يا «أومباشي». اذهب اقطع طريق انسحاب قاتل السيد «ديموني». لقد ولى مخترقًا بساتيني. بسرعة حاصروا الطريق إلى (تل بيكاردي) وسوف أقوم بحملة مطاردة في كل الأراضي والحدائق والبيوت. أما أنتم -قال للخدم- فاسهروا لمراقبة الطريق وحاصروا المسافة من عند السور حتى (فرساي) إلى الأمام جميعًا!

ولم يمسك إلا ببندقية أحضرها له خادمه، واندفع في البساتين وهو ينادي الكلب: «ابحث!» فكان الكلب يردّ عليه بنباح مريع عن بعد، واتجه في الاتجاه الذي بدا له أن شهيق الكلب كان يأتي منه.

وفي السابعة صباحًا لم تكن أبحاث الشرطة أو اللواء أو خدمه أو جيرانه ذات جدوى. ولم يعد الكلب. وأعيا اللواء التعب، وقد شاخ سلفًا بفعل الحزن، فعاد إلى (الصالون) منفردًا إلى نفسه برغم وجود أولاده فيه.

قال وهو ينظر إلى زوجته: لقد كان لديك برود إزاء

ابنتك... هاك ما تبقى لنا منها! وأضاف وهو يشير إلى النول حيث رأى وردة مشغولة مبدوءة: لقد كانت هنا منذ هنيهة، والآن ضاعت. ضاعت!

وصار ينحب وهو يخفي رأسه بين يديه، وبقي صامتًا لحظة دون أن يجرؤ على تأمل (الصالون) الذي كان فيما مضى يمنحه أعذب لوحة في السعادة البيتية. وأخذ شروق الفجر يصارع المصابيح الذاوية، وحرقت الشموع نقوشها المزهرة من الورق، وكان كل شيء يتلاءم مع يأس الوالد.

قال بعد لحظة صمت وهو يشير إلى النول: لا بد من تحطيم ذاك... لن أستطيع أن أرى شيئًا مما يذكرنا بها...

* * *

كانت ليلة عيد الميلاد البشعة التي أصيب الماركيز وزوجته فيها بفقد ابنتهما الكبرى، دون أن يقويا على معارضة السيطرة الغريبة التي أنفذها فيهم الرجل الذي أغواها عن غير قصد، بمثابة إعلان بخت إذ أدى إفلاس أحد وكلاء النقد إلى خراب الماركيز، فرهن عقار كل أملاك زوجته لكي يحاول القيام بمضاربة تؤدي فوائدها إلى إعادة ثروة أسرته الأولى إليها. ولكن أتى هذا المشروع على كل شيء، وانتهى بإفلاسه واندفع اللواء بدافع يأسه إلى محاولة كل شيء، فتغرب وهجر وطنه، ومضى على رحيله ست سنوات، وبرغم أن أسرته نادرًا ما تلقت أخباره أعلن إليها عودته قبل اعتراف إسبانيا باستقلال

الجمهوريات الأمريكية بأيام قلائل.

وفي صباح أحد الأيام الجميلة وجد بعض البحارة الفرنسيين الذين نفد صبرهم من أجل العودة إلى وطنهم محملين بثروات حصلوا عليها مقابل الأعمال الطويلة، والقيام برحلات خطرة سواء إلى (المكسيك) أو إلى (كولومبيا)، وجد هؤلاء البحارة أنفسهم فوق مركب إسباني شراعي ذي صاريين على بعد بعض فراسخ من (بوردوه). وكان ثمة رجل، عجوز من جراء المتاعب، أو بدافع الحزن، أكثر مما كان عجوزًا بمقتضى سنوات عمره، يستند إلى (مترسة) المركب، ويظهر غير واع مشهد المسافرين المجتمعين فوق السطح.

وكانوا قد أفلتوا من أخطار الملاحة، واحتفلوا بجمال اليوم، فصعدوا جميعًا فوق الجسر كما لو كانوا يؤدون التحية لأرض موطنهم. وشاء أغلبهم بإصرار أن يروا عن بُعد المنارات وعمائر (الجاسكوني) وبرج هضبة (الكوردوان) ممزوجة باختلافات الخيال المتطرف عن بعض السحب البيضاء المرتفعة عند الأفق، ولولا الشراشيب البيضاء المفضضة التي كانت تتلاعب في مقدمة المركب، ولولا الخط الطويل الذي كان سرعان ما يختفي من ورائها، لاعتقد المسافرون أنها كانت بلا حراك وسط المحيط من شدة سكون البحر هنالك. وكانت السماء ذات صفاء ساحر، وكانت صبغة أركانها الداكنة تصل بدرجات هابطة غير محسوسة إلى اختلاطها بلون المياه المائل إلى

الزرقة مع تخطيط نقطة التقائها بخط كان ضوؤه يتلألأ بشدة على نحو ما تتلألأ الكواكب. وكانت الشمس تدفع بملايين الواجهات إلى اللمعان على امتداد البحر الهائل، بحيث كانت سطوح الماء الشاسعة تبدو أكثر بريقًا تقريبًا من حقول قبة السماء.

وكانت أشرعة المركب كلها منتفخة برياح ذات رقة عجيبة، وكانت ملاءاتها بيضاء ناصعة كالجليد، كما كانت خيامها الصفراء ترفرف وترتسم متاهات حبالها بدقة صارمة فوق أرضية لامعة من الهواء والسماء والمحيط دون أن تتقبل أي صبغات أخرى سوى صبغات الظلال التي تسقطها تلك الأشرعة الندية، يوم جميل.. ريح رطبة.. رؤية الوطن.. بحر هادئ.. حفيف أسيان... مركب شراعي بصاريين... يمضي وحيدًا أو ينزلق فوق المحيط كامرأة تطير نحو موعد لقاء.. لقد كان ذلك لوحة مليئة بالانسجام والتناسب.. مشهد تحيط فيه الروح الإنسانية بفضاءات لا تتغير ابتداء من نقطة كان كل شيء فيها حركة. كان ثمة تعارض مدهش بين الوحدة والحياة... بين السكون والضوضاء... دون أن تمكن معرفة أين كانت الضوضاء والحياة أو العدم والصمت. كذلك لم يكن يقطع حبل ذلك السحر السماوي صوت إنساني واحد.

وبقي القبطان الإسباني وبحارته وجميع الفرنسيين جالسين أو واقفين وقد استغرقوا جميعًا في وجد ديني مليء بالذكريات. وكان هناك بعض التكاسل في الهواء،

وكشفت الوجوه المزدهرة عن نسيان تام للمساوئ المنقضية، وأخذ هؤلاء الرجال يتمايلون فوق هذه السفينة الحلوة كما لو كانوا في حلم ذهبي.

وبرغم ذلك كان المسافر العجوز المستند إلى (مترسة) السفينة ينظر من حين لآخر في نوع من القلق، كان ثمة تحدٍّ للمصير الممزوج بكل ملامح وجهه في وضوح. وكان يبدو كأنه متخوف من ألا يلمس بسرعة إلى حد ما أرض فرنسا. وكان ذلك الرجل هو الماركيز؛ إذ لم يكن الحظ أصم أمام صرخاته وجهوده النابعة من يأسه. وبعد خمس سنوات من المحاولات والأشغال الشاقة رأى نفسه مالكًا ثروة ذات شأن وكان مشوقًا شوقًا شديدًا لرؤية بلده، وليحمل الحظ إلى أسرته، فنسج على منوال بعض التجار الفرنسيين من (هافانا) في إبحارهم فوق ظهر سفينة إسبانية ذات شحنة في اتجاه (بوردوه).

وبرغم ذلك أنهكه توقع الشر حتى صار خياله يرسم له أحلى الصور الذهنية عن سعادته الماضية. وعندما شهد عن بُعد الخط الأسمر الذي ترسمه حافة الساحل الأرضي اعتقد أنه يرى زوجته وأولاده، وصار في بيته وفي مسكنه، وأحس هنالك بأنه في زحمة وتلامس وتربيت. وتخيّل «موينا» جميلة كبيرة موقرة كفتاة شابة؛ وعندما صارت هذه اللوحة الخيالية قريبة من الحقيقة انسكبت الدموع من عينيه. وعندئذ - كأنه يخفي اضطرابه- نظر إلى الأفق الرطيب المقابل للخط الضبابي الذي أشار إلى

الأرض.

قال: إنه هو. إنه يتبعنا.

صاح القبطان الإسباني: ما هذا؟

عاد اللواء يقول بصوت خفيض: مركب.

أجاب القبطان «جوميز»: لقد شهدته بالأمس سلفًا. ثم نظر إلى الفرنسي كأنه يريد أن يستجوبه وقال عندئذ في أذن اللواء: لقد طاردنا دائمًا ولا أدري لماذا لم يلحق بنا أبدًا.

عاد الرجل العسكري العجوز يقول: مع أنه ذو قلوع أفضل من قلوع سفينتكم اللعينة (سان فيرديناند).

- سوف يصاب بعطب.. ثمة ثقب في السفينة.

صاح الفرنسي: إنه يلحق بنا.

قال له القبطان في أذنه: إنه أحد القراصنة (الكولومبيين) نحن لا نزال على بعد ستة فراسخ من الساحل، وقد هدأت الريح.

- إنه لا يسير. إنه يطير كأنه يعرف أن فريسته ستفلت منه في غضون ساعتين. صاح القبطان: هو! آه! إنه لا يسمى (عطيل) عبثًا. لقد أغرق أخيرًا مركبًا حربيًا إسبانيًا وليس مزودًا برغم ذلك إلا بثلاثين مدفعًا. ولم أكن أخشى سواه، لأنني كنت أجهل أنه كان يباشر قرصنته في جزائر (الأنتيل)... آه! آه!

وعاد يقول بعد فترة سكون نظر في أثنائها إلى قلوع سفينته: الريح تنشط. سوف نصل. لا بد من ذلك (فالباريسي) لا يرحم.

أجاب الماركيز: هو أيضًا يصل.

لم يعد (عطيل) أبعد من ثلاثة فراسخ. وبرغم أن (طقم) البحارة لم يسمع محادثة الماركيز والقبطان «جومين» فقد دفع ظهور تلك السفينة الشراعية أغلب البحارة والمسافرين إلى المكان الذي كان فيه المتخاطبان، ولكن جميعهم كانوا يرونه مسرعًا عن اهتمام، لعلمه أن المركب الشراعي ذي الصاريين سفينة تجارية، وصاح فجأة أحد الملاحين في لغة قوية:

- باسم «سان جاك» لقد اشتعلنا.. هاك القبطان (الباريسي).

وبذكر هذا الاسم المخيف انتشر الرعب في السفينة الشراعية ذات الصاريين، وساد هرج يعجز التعبير عن وصفه، وبثّ القبطان الإسباني بأقواله طاقة وقتية في بحارته، وحاول -وهو في هذا الخطر تحت تأثير رغبته في بلوغ الساحل بأي ثمن كان- أن يضع بسرعة قلوعه الإضافية العالية والسفلى وقلوع الميمنة وقلوع الميسرة كي يعطي الرياح أكبر مسطح من الأشرعة التي يزود بها عوارض الصاريين؛ ولكن هذه المناورات لم تتم إلا بعد صعوبات شديدة، إذ كان ينقصها بطبيعة الحال هذا

التناسق الجمعي الرائع الذي يبهر النظر إلى حد كبير في المراكب الحربية.

ورغم أن (عطيلًا) كانت تطير كطائر (السنونو) بفضل توجيه قلوعها، فإنها لم تقطع كثيرًا من المسافة في مظهرها، حتى إن الفرنسيين التعساء جعلوا يتوهمون بعض الوهم الرقيق. وفجأة وفي اللحظة التي أخذت فيها (سان فيرديناн) انطلاقًا جديدًا بعد جهود لا يصدقها العقل، وبفعل مناورات قديرة ساعد فيها «جوميز» بنفسه بالعمل والحركة وبالصوت، حدثت حركة خاطئة في الدفة، مقصودة بلا أدنى شك، أنفذها مدير الدفة، فجعل المركب، يسير عرضًا. وأصيبت القلوع بضربات الريح الجانبية، فصارت فجأة مكشوفة أمام الريح بدلًا من أن نتلقاها بوسعها، وتكسرت الأطراف الخارجية حتى صارت السفينة بأكملها تامة التوقف.

وتملك القبطان غضب لا يمكن التعبير عنه جعله أشد بياضًا من قلوعه. وفي طفرة واحدة قفز فوق مدير الدفة فأدركه بخنجره وهو في أشد الغضب، ولكنه أفلت من الخنجر فدفعه بسرعة إلى البحر، ثم أمسك هو نفسه بالدفة وحاول أن يعالج الاضطراب المخيف الذي أثار سفينته الجسور الشجاعة. وتدحرجت دموع اليأس من عينيه، لأننا نحس بالحزن من الخيانة التي تزيف النتائج التي تحققها مواهبنا أكثر مما ينشأ عن الموت المتوقع. ولكن كلما أقسم القبطان أكثر كان العمل يتم بدرجة أقل. وسحب بنفسه

مدفع الإنذار على أمل أن يصير مسموعًا على الشاطئ. في هذه اللحظة أجاب القرصان الذي كان في طريقه إلى الوصول في سرعة موئسة بضربة مدفع سقطت قذيفته على بعد ستين قدمًا من (سان فيرديان).

صاح اللواء: صاعقة للتصويب! إنهم يملكون مدافع مصبوبة صنعت خصيصًا.

أجاب أحد البحارة: أوه! هذا الرجل كما ترى.. عندما يتكلم لا بد من السكوت.. (فالباريسي) لن يخاف مركبًا إنجليزيًا...

صاح القبطان في لهجة يأس بعد أن صوب منظاره ولم يستطع أن يميز شيئًا من ناحية الساحل..: انتهى كل شيء... إننا لا نزال أبعد من فرنسا أكثر مما كنت أعتقد.

عاد اللواء يقول: ولماذا تكدر نفسك؟ إن ركابك جميعًا من الفرنسيين، وقد استأجروا مركبك. وهذا القرصان (باريسي) كما تقولون. فارفع العلم الأبيض و...

أجاب القبطان: ثم يخرق مركبنا أليس ذاك هو كل ما يجب أن يكون وفقًا للظروف عندما يريد أن يضع يده على فريسة ثمينة؟

- آه! إذا كان قرصانًا!

قال الملاح بتعبير نافر: قرصان! آه! إنه يسوي أموره دائمًا حسب الأصول أو يعرف كيف يكون كذلك.

صاح اللواء وهو يرفع عينيه إلى السماء: على أي حال فلنستسلم.

وكانت لا تزال لديه القوة ليحبس دموعه. وعندما انتهى من هذه الكلمات حملت ضربة مدفع ثانية قذيفة مصوبة تصويبًا أدق إلى جدران السفينة (سان فيرديناند) فاخترقتها.

قال القبطان وهو في حالة حزن: أوقف كل حركة.

وعاون الملاح الذي دافع عن أمانة (الباريسي) بذكاء بالغ في هذه المناورة اليائسة، وانتظر النوتية خلال نصف ساعة قاتلة فريسة لارتياع عميق. كانت (سان فيرديناند) تحمل أربعة ملايين من القروش التي تؤلف ثروة خمسة مسافرين، وثروة اللواء التي تبلغ أحد عشر ألفًا من الفرنكات.

وأخيرًا عندما وجدت السفينة (عطيل) نفسها على بعد عشر مرات من مرمى البندقية أشهرت بوضوح فوهات الاثني عشر مدفعًا المبشرة بالخطر والمستعدة لإطلاق النار، وكأنما حملتها ريح نفخها الشيطان خصيصًا من أجلها، ولكن عين الملاح الماهر كانت تفطن بسهولة إلى سر هذه السرعة، وكان يكفي تأمل وثوب السفينة ذات الصواري وشكلها المسحوب بالطول، وضيق عرضها، وارتفاع مجموع صواريها، وتفصيل أشرعتها، وخفة جهازها الرائع، والسهولة التي كان يتصرف بها مجتمع ملاحيها المتحدين

كرجل واحد من أجل تمام توجيه صفحتها البيضاء الممثلة في القلوع – كل شيء كان يتم عن ضمانات القدرة في هذه المخلوقة الخشبية الممشوقة القد التي كانت في سرعة وذكاء فرس حربي أو بعض الطيور الجارحة.

وكان طاقم نوتية القرصان صامتين، وعلى أهبة الاستعداد في حالات المقاومة لأن يلتهموا المركب التجاري المسكين الذي بقي لحسن حظه مطرقًا كتلميذ مخطئ أمام أستاذه.

صاح اللواء وهو يضغط على يد القبطان الإسباني: توجد مدافع عندنا!

فألقى هذا الأخير نظرة مليئة بالشجاعة واليأس معًا نحو الرجل العسكري القديم وهو يقول له: ورجال!

ونظر اللواء إلى بحارة (سان فيردينان) ثم أجفل. وكان التجار الأربعة مصفرى الوجوه كما كانوا يرتعدن. في حين كان الملاحون قد تجمعوا حول واحد منهم كما كانوا ينسقون أنفسهم ليقفوا في صف (عطيل)، فأخذوا ينظرون إلى القرصان باستغراب جشع، وظل رئيس العمل والقبطان والماركيز يتبادلون وحدهم أفكارًا شديدة السخاء، وهم يفحصون أنفسهم بالنظر.

- آه! يا قبطان «جوميز» لقد ودعت منذ زمن بعيد وطني وأسرتي، وكان القلب ميتًا من الحسرة واللوعة. فهل علي أن أفارقهما ثانيًا في اللحظة التي أجلب فيها الفرح

والسعادة إلى أولادي؟

واستدار اللواء كي يقذف إلى البحر بدمعة غضب وكمد، ولحظ مدير الدفة وهو يسبح فيه نحو القرصان.

أجاب القبطان: في هذه المرة لا شك أنك ستقول له وداعًا إلى الأبد.

وأفزع الفرنسي الإسباني بالنظرة البلهاء التي وجهها إليه. وفي هذه اللحظة كانت السفينتان تقريبًا بحذاء بعضهما البعض. وآمن اللواء من مرأى طاقم ملاحي العدو بنبوءة «جومين» المحتومة.

كان ثلاثة رجال واقفين حول كل مدفع. وبمجرد رؤية حالتهم العضلية القوية وملامحهم المقرنة وأذرعهم العارية العصبية كان يمكن اعتبارهم تماثيل من البرنز، بل لو حانت ساعة موتهم لقتلوا دون أن يطرحهم الموت. وبقي الملاحون المدججون بالسلاح، وقد ظهر عليهم النشاط والسرعة والشدة بغير حراك، وكانت كل هذه الوجوه القوية قد سمرتها الشمس سمرة شديدة وجمدتها الأشغال، وكانت عيونهم تلمع على نحو ما تبدو ذرات النار وتشير إلى مدى ذكائهم الحيوي ومتعهم الجهنمية.

وساد صمت عميق فوق ظهر السفينة، وكأنما صار لونه أسود من ازدحام الرجال والقبعات. وهذا يكشف عن النظام الذي لا يخمد والذي يمثل إرادة صلبة استطاعت أن تحني هامات هؤلاء الأبالسة الآدميين. وكان الرئيس

واقفًا عند أسفل الصاري الكبير بذراعين متشابكتين وبدون سلاح. ولكن كانت توجد فأس عند قدميه فقط، وكان على رأسه قبعة من اللباد ذات أطراف كبيرة كي تقيه الشمس، فكان ظلها يحجب وجهه، وكان رجال المدفعية والجنود والملاحون أشبه ما يكونون بالكلاب الراقدة أمام أسيادها، ويديرون أعينهم على قبطانهم وعلى السفينة التجارية. وعندما تلامست السفينتان. جذبت الهزة القرصان من أحلامه، وقال كلمتين في أذن ضابط شاب كان واقفًا على بعد خطوتين منه.

صاح الملازم: كلاب المهاجمة!

واشتبكت السفينة (عطيل) بالسفينة (سان فيرديناں) في سرعة خارقة. ووفقًا للأوامر التي لقنها القرصان في صوت خفيض وأعادها الملازم، ذهب الرجال المختصون بكل فرع من فروع الخدمة كرهبان الدير في سيرهم نحو الصلاة إلى السطح، حيث شرعوا في تقييد أيادي الملاحين والركاب ووضعوا الأيدي على الكنوز. وفي لحظة كانت الأطنان مليئة بالقروش والمؤن الغذائية كما كان بحارة (سان فيرديناں) منقولين فوق جسر (عطيل).

واعتقد اللواء نفسه تحت تأثير حلم عندما وجد يديه موثقتين، ووجد نفسه ملقى فوق بالة صغيرة كما لو كان هو نفسه سلعة. وحصل اجتماع بين القرصان والملازم وأحد الملاحين الذي ظهر أنه يشغل وظيفة رئيس العمل. وعندما انتهت المناقشة التي لم تدم طويلًا، صفَّر الملاح

إلى رجاله، وبكلمة الأمر الذي أملاه عليهم قفزوا جميعًا فوق ظهر (سان فردينان) وزحفوا داخل الحبال، وأخذوا ينزعون عوارض الصواري والأشرعة والعتاد من السفينة في مهارة شبيهة بمهارة الجندي الذي يخلع في ميدان القتال ملابس زميل له استشهد وصارت أحذيته وكساؤه موضع طمعه.

قال القبطان الإسباني ببرود إلى الماركيز: «لقد ضعنا».

وكان القبطان قد راقب بالعين حركات الرؤساء الثلاثة في أثناء التداول وأثناء حركات البحارة الذين قاموا بإجراءات النهب المنتظم لمركبه.

سأل اللواء ببرود: كيف؟

أجاب الإسباني: ماذا تريد أن يفعل بنا؟.. لقد اكتشفوا بلا شك أنهم سوف يبيعون (سان فردينان) بصعوبة في موانئ فرنسا وإسبانيا، وسوف يخرقونها كي لا يشغلوا أنفسهم بها. أما عن أنفسنا فهل تعتقد أنهم يستطيعون أن يتحملوا غذاءنا وهم لا يعرفون في أي ميناء يطلقوننا؟

ولم يكد ينتهي القبطان من كلامه حتى سمع اللواء صياحًا مروعًا تبعه ضجيج أصم نتيجة سقوط أجسام عديدة هابطة في الماء. فاستدار ولم يعد يرى التجار الأربعة. وكان ثمانية من رجال المدفعية ذوى الوجوه المتوحشة لا يزالون بأذرعهم مرفوعة في الهواء في اللحظة التي كان الرجل العسكري ينظر إليهم في رعب.

قال له القبطان الإسباني ببرود: حينما كنت أقولها لك.

ونهض الماركيز فجأة. كان البحر قد استعاد سطحه الهادئ سلفًا، ولم يتمكن من رؤية المكان الذي ابتلع منذ هنيهة رفاقه التعساء، وكانوا في تلك اللحظة يتدهورون بأقدامهم، وقبضات أيديهم مشدودة الوثاق تحت الأمواج ما لم تكن الأسماك قد سارعت إلى التهامهم. وعلى بعد خطوات منه كان يوجد مدير الدفة وملاح (سان فيردينان) اللذان كانا يمتدحان سابقًا قدرة القبطان (البارسي). وقد أخذا صادقان القراصنة ويتآخيان معهم، فيرشدانهم بالأصبع إلى أولئك الذين كانوا يجدونهم جديرين من بينهم بالانضمام إلى طاقم (عطيل) أما الآخرون فقد كانت أقدام كل منهم مقيدة بطحلبتين برغم أيمانهم المغلظة.

وانتهت عملية الانتقاء، فوضع المدفعيون الثمانية أيدهم على المحكوم عليهم، وقذفوا بهم دون أي شعائر إلى البحر. وجعل القراصنة يتأملون بفضول خبيث الأساليب المنوعة التي كان الرجال يتساقطون بها وطرائقهم في تغضن الأوجه، وكذلك آخر أوضاع عذابهم، ولكن وجوههم لم تكن تظهر أي سخرية أو اندهاش أو شفقة. لقد كان ذلك بالنسبة إليهم مجرد حدث بسيط جدًا يبدو أنهم تعودوه. أما كبار السن فكانوا يفضلون تأمل الأطنان المليئة بالقروش الموضوعة عند أسفل الصاري الكبير بابتسامة حزينة مقتضبة.

وأخذ اللواء والقبطان «جوميز» يتشاوران في صمت بنظرة كمد وهما جالسان فوق إحدى البالات. وسرعان ما وجدا أنهما الوحيدان اللذان بقيا أحياء من طاقم (سان فيرديناند) وتحول الملاحون السبعة الذين اختارهم الجاسوس من بين البحارة الإسبانيين تحولًا ظاهر المرح والسرور إلى قوم من (بيرو).

وفجأة صاح اللواء الذي أسكت السخط الوفي الكريم عنده كلا من الألم والنظر في العواقب: يا للأنذال القساة!

أجاب «جوميز» في برود: للضرورة أحكام، وهم يطيعون الضرورة... إذا عثرت مرة أخرى على واحد من هؤلاء الرجال أفلا تدفع بسيفك خلال بدنه؟

قال الملازم وهو يلتفت نحو الإسباني: يا قبطان، لقد سمع (الباريسي) عنك، فأنت كما يقول الرجل الأوحد الذي يعرف جيدًا كل المضايق في جزر (الأنتيل) وسواحل (البرازيل)؛ فهل تحب..

فقاطع القبطان الملازم الشاب بتعجب الاحتقار وأجابه: سوف أموت كبحار وكإسباني مخلص وكمسيحي، هل تسمع؟

صاح الشاب: إلى البحر.

وبمجرد صدور هذا الأمر أمسك اثنان من المدفعين «بجوميز».

صاح اللواء وهو يوقف القرصانين: إنكم جبناء.

قال له الملازم: يا شيخي... لا تتحامل كثيرًا. إذا كان شريطك الأحمر يؤثر على قبطاننا فإنني لا أعبأ به شخصيًّا... وسوف يكون لنا أيضًا بعد هنيهة طرف قصير من محادثة...

وفي تلك اللحظة أدرك اللواء عند سماعه ضوضاء صماء لم تمتزج بأي شكوى أن الشجاع «جوميز» قد مات كبحار، وصاح في نوبة غضب مخيف: ثروتي أو الموت!

أجابه القرصان وهو يضحك متهكمًا: آه! إنك معقول فالآن... أنت واثق من أن تنال منا شيئًا...

ثم بإشارة من الملازم اندفع اثنان من الملاحين يقيدون قدمي الرجل الفرنسي. ولكن هذا الأخير ضربهما في جرأة غير متوقعة، وسحب بحركة لم يكن ينتظرها أحد، سيفًا متدليًا إلى جانب الملازم، وبدأ يلعب به برشاقة كلواء قديم من الفرسان يعرف مهنته.

- آه! يا قطاع الطريق، لن تلقوا إلى الماء محاربًا قديمًا من رفاق «نابليون» كما تلقون بالمحار.

وانطلقت رصاصات مسدس أوشكت أن تلامس الرجل الفرنسي أثناء مقاومته، فاسترعت هذه الطلقات انتباه (الباريسي) الذي كان حينذاك مشغولًا بمراقبة نقل العتاد وأدوات السفن التي كان قد أمر بالاستيلاء عليها من سفينة (سان فيردينان).

وبدون انفعال جاء وأمسك من الخلف بتلابيب اللواء الشجاع، ورفعه بسرعة وسحبه نحو الحافة، وتحفز لإلقائه إلى الماء كقصبة حقيرة؛ وفي هذه اللحظة التقت نظرات اللواء بعين الرجل الذي أغوى ابنته التي تشبه عين الوحش، وفي لمحة تعرف الأب ونسيبه، فضغط القبطان دفعته بحركة مضادة لتلك التي كان قد أتمها من قبل، كما لو كان الماركيز منعدم الوزن، وبدلًا من أن يعدل به إلى البحر وضعه واقفًا تحت الصاري الكبير، وتعالت الهمسات فوق سطح السفينة، وعندئذ ألقى القرصان بنظرة إلى رجاله، فساد أعمق الصمت فجأة.

قال القبطان بصوت ثابت واضح: إنه والد «هيلين»... والويل لمن لا يؤدي له الاحترام.

فدوى تهليل الهتافات المليء بالفرح فوق سطح السفينة، وتصاعد في السماء كصلاة في الكنيسة وكأول نداء في قداس «إلهك». وأخذت الطحالب تتراقص فوق الحبال، وألقى الملاحون طاقياتهم في الهواء، وجعل المدفعيون يدبدبون بأقدامهم، وظل كل شخص يتحرك ويصرخ ويصفر ويقسم بأغلظ الأيمان. وأدى هذا التعبير المتعصب في هذه البهجة إلى أن اللواء صار قلقًا كئيبًا، وعزا هذه العاطفة إلى سر مفزع، فلم يكد يستعيد الكلام حتى صاح صيحته الأولى: ابنتي! لكن أين هي؟

فألقى القرصان إحدى نظراته العميقة نحو اللواء، وهي

نظرة لم يملك أحد استنتاج تفسير لتأثيرها الذي يؤدي دائمًا إلى انقلاب في أشد الأرواح إقدامًا وبأسًا، فأسكته مثيرًا بذلك رضى كبيرًا لدى الملاحين وسعادة جمة بين الجميع، حين رأوا قوة رئيسهم تطبق على كل الناس، وقاده أمام باب إحدى القمرات، ودفعه بقوة وهو يقول: ها هي ذي.

ثم اختفى تاركًا الرجل العسكري القديم غارقًا في نوع من الذهول أمام مرأى اللوحة التي ظهرت أمام عينيه. وعند سماع «هيلين» باب الغرفة وهو يفتح في تعجل هبت واقفة من رقادها فوق الأريكة الوثيرة، ولكنها رأت الماركيز، وصرخت في دهشة، كانت قد تغيرت تغيرًا كبيرًا حتى إنه كان يلزمها عينا والد كي يتعرفا عليها. كانت شمس المناطق الاستوائية قد زادت وجهها الأبيض جمالًا بصبغ سمراء علت بشرتها وبتلوين رائع أضفى عليها تعبيرًا شعريًّا. واشتم في المكان جو العظمة، وثبات الجلالة، واستروح شعورًا عميقًا تنبهر منه أشد الأرواح غلظة. وكان شعر رأسها الطويل الكثيف المتهدل في حلقات فوق عنقها المليء بالنبل يضفي صورة من القوة أيضًا على زهو هذا الوجه وخيلائه. وأتاحت «هيلين» في ثنايا وضعها وحركتها الفرصة لوعيها لكي يومض بالمقدرة التي كانت تمتلكها. وكان الرضى بالانتصار يملأ رفق خياشيمها الوردية، وكانت سعادتها الهادئة بادية في كل تطورات جمالها. فقد كانت تجمع في شكلها بين عذوبة العذراء وذلك اللون من الغرور

الخاص بالحليلات. وكأنما أرادت لجارية وحاكمة في آن معًا أن تطيع، لأنها كانت قادرة على أن تحكم. وكانت تلبس ملابس رائعة مليئة بالجاذبية والأناقة، وكانت زينتها لا تتكلف سوى الحرير الهندي. أما أريكتها ووسائدها فكانت من الحرير الكاشمير وجهزت أرضية (القمرة) الواسعة ببساط عجمي؛ ولكن أطفالها الأربعة كانوا يلعبون عند قدميها مستغرقين في بناء قصور عجيبة بعقود من اللؤلؤ ومن الجواهر الثمينة، والأشياء النادرة الغالية. وكانت بعض الزهريات المصنوعة من الخزف (السيفر) المطلي بريشة السيدة «جاكوتوه» تحتوي على زهور نادرة تعبق المكان بشذاها.. زهور الياسمين المكسيكي وزهور (الكاميليا).. وترفرف بينها عصافير أمريكية صغيرة مستأنسة، ولعلها كانت من أنواع الياقوت والسفير والذهب الحي، وكان مثبتًا في هذا (الصالون) «بيانو» كما كان على الحائط خشب مغطى بالمفارش الحريرية الصفراء، وبعض اللوحات ذات المقاييس الصغيرة هنا وهناك من تصوير كبار الفنانين: غروب الشمس للمصور «جيدان» كانت تجاور لوحة من تصوير «تيربور» وعذراء من تصوير «رافائيل» تنافس في شاعريتها تخطيطًا للمصور «جيروديه» ولوحة «لجيراردو» تطغى على لوحة «لدرولينج»؛ وكان فوق مائدة من خشب (اللاكيه) الصيني طبق من الذهب المليء بالفاكهة الشهية. على أي حال كانت «هيلين» شبيهة بملكة في إمبراطورية ضخمة وسط مخدع جمع لها فيه عشيقها المتوج أرفع وأنفس الأشياء الموجودة فوق

الأرض.

وركز الأولاد نظراتهم بحيوية نفاذة على جدهم، وكانوا قد تعودوا الحياة وسط الصراع والأعاصير والزوابع، فصاروا يشبهون أولئك الرومانيين الصغار المتطلعين نحو الحرب والدم على نحو ما صورهما «دافيد» في لوحته عن «بروتس».

صاحت «هيلين» وهي تمسك بوالدها كما لو كانت تحاول أن تتأكد من صحة الرؤية: كيف يمكن هذا؟

- هيلين!

- والدي!

ووقع كل منهما بين ذراعي الآخر. ولم يكن عناق الأب العجوز أشد قوة أو عاطفة من عناق ابنته.

- هل كنت فوق ذلك المركب؟

أجاب بتعبير حزين، وهو يجلس فوق الأريكة، ويتأمل الأولاد الذين تجمعوا حوله، وصاروا يتفحصونه بانتباه ساذج: نعم... أوشكت على الهلاك لولا.. قالت وهي تقاطعه: لولا زوجي... أظن..

صاح اللواء: آه لماذا كان مقدرًا أن ألقاك هكذا «يا هيلنتي» أنت يا من بكيتك مرارًا. كان علي إذن أن أئن من أجل مصيرك.

سألت وهي تبتسم: لماذا؟ ألن تكون إذن سعيدًا لو

عرفت أنني أسعد زوجة بين كل الزوجات.

صاح وهو يقفز من الدهشة: سعيدة؟

- نعم يا والدي.

واصلت كلامها وهي تمسك بيديه وتقبلهما، وتضغط عليهما بصدرها الخافق، بحيث أضافت إلى هذا التلاطف جو احتفال الحفاوة، وأسبغت عليه بتألق عينيها من الانبساط والسرور دلالة أكبر.

سأل وهو مليء بالفضول لمعرفة حياة ابنته ناسيًا كل شيء أمام طلعتها الساطعة: وكيف هذا؟

أجابت هي: أصغ يا أبي... إن عشيقي وزوجي، وعبدي وسيدي رجل ذو روح أكبر اتساعًا من هذا البحر الذي لا حدود له، وأشبه بالمساء في خصوبة رقته.. إنه إله في النهاية! منذ سبع سنوات لم تبدر منه قط عبارة أو شعور أو حركة يمكن أن تتنافر مع الانسجام القدسي في أحاديثه وملامساته وحبه. لقد نظر إلي دائمًا وعلى شفتيه ابتسامة الصديق، وفي العينين شعاع من الفرح، ويسيطر صوته الشبيه بالرعد هناك فوق السفينة على زئير العواصف أو زوابع المعارك أما هنا فصوته رقيق منغم مثل موسيقى «روسيني» الذي تصل أعماله الفنية إلى هنا. إنني أحصل على كل ما يمكن أن تبدعه نزوات امرأة. بل إن رغباتي تُستوفى أحيانًا بأكثر من المطلوب. إنني ملكة البحر وطاعتي واجبة هنا كما لو كنت الحاكمة -

أوه! سعيدة..! واصلت كلامها وكأنما تقاطع نفسها: سعيدة ليست الكلمة التي تستطيع أن تعبر عن سعادتي. إن لي نصيب كل النساء! الإحساس بالحب! والتفاني الكبير من أجل المحبوب، والالتقاء في قلبه.. الخاص به.. بشعور لا نهائي تضيع فيه روح المرأة وعلى... الدوام، قل لي... هل هذه هي السعادة؟ لقد التهمت ألف وجود حشوت بها وجودي أنا وحدي. ها أنا ذا وحدي الآمرة. ولم تطأ مخلوقة من جنسي قدمها قط فوق هذه السفينة النبيلة حيث يوجد «فيكتور» دائمًا على بعد خطوات مني إنه لا يستطيع أن يبعد عني إلا بمقدار ما يذهب من مؤخرة السفينة إلى مقدمتها... ثم واصلت بتعبير دقيق خبيث: سبع سنوات! حب يقاوم طول هذه السنوات السبع، هذه المتعة المتصلة، وهذه التجربة المستمرة في كل اللحظات.. هل هذا هو الحب؟ لا! أوه! لا. إنه أفضل من كل ما أعرفه في الحياة... وينقص لغة الناس القدرة على التعبير عن سعادة علوية من السماء.

وأفلت سيل من الدموع من عينيها المحتدمتين. فألقى الأطفال الأربعة عندئذ صيحة شكوى، وجروا نحوها مثل جري الكتاكيت صوب أمهم، وأدهش الأكبر اللواء بنظرته إليه في تهديد.

قالت: «أبيل»... يا ملاكي إنني أبكي من الابتهاج.

وأخذته فوق ركبتيها فربت الطفل عليها بألفة، وهو يمر بذراعيه حول رقبة «هيلين» ذات الجلال كالشبل الذي

يريد اللعب مع أمه.

صاح اللواء وقد أذهلته إجابة ابنته الحماسية: ألا تملين؟

أجابت: بلى. على الأرض حين نذهب إليها، وحتى هناك لا أفارق زوجي على الإطلاق.

- ولكنك كنت مشغوفة بالحفلات والأعياد والموسيقى؟

- الموسيقى هي صوته. أعيادي هي الحلي التي أبدع وضعها أمامه. وعندما تعجبه زينتي، أليس هذا كما لو كانت الأرض بأكملها تعجب بي! ذاك فقط هو السر الذي بسببه لا أرغب في وداع كل هذه الماسات والعقود والتيجان والأحجار الكريمة والثروات والزهور وروائع الفن التي يجزل لي عطاءها وهو يقول: «هيلين» ما دمت لا تذهبين إلى المجتمعات فإني أريد أن تأتي المجتمعات إليك.

- ولكن فوق هذه الضفة يوجد رجال... رجال شديدو الوقاحة مفزعون لهم شهوات...

قالت وهي تبتسم: إنني أفهمك يا أبت...اطمئن. فلم تكن إمبراطورة محاطة برعاية وإكرام مثلما يبذل لي، فهؤلاء الناس يتطيرون ويتشاءمون ويرهبون القدر، ويعتقدون أنني الروح الحامية لهذه السفينة ولمشروعاتهم ولنجاحهم. أما هو فألهم. وفي إحدى المرات حدث يومًا أن واحدًا من الملاحين لم يوف لي الاحترام... قولًا -أضافت ضاحكة- وقبل أن يبلغ «فيكتور» ذلك ألقى رجال الطاقم الرجل في البحر برغم العفو الذي منحه إياه. إنهم يحبونني

مثل ملاكهم الطيب، إذ أني أرعاهم عند المرض، وكان لي حظ إنقاذ بعضهم من الموت بالسهر عليهم في ثبات المرأة ومواظبتها. فهؤلاء الرجال المساكين عمالقة وأطفال في آن معًا.

- وعندما تقع المعارك؟

- لقد تعودتها ولم أرتعد إلا خلال المعركة الأولى.. أما الآن فقد ألفت روحي هذا الخطر بل حتى... إنني ابنتك... وإنني أحبه.

- وإذا هلك؟

- سأهلك.

- وأولادك؟

- إنهم أولاد المحيط والخطر، ويقاسمون والديهم حياتهم... وجودنا وجود واحد ولا ينفصم. إننا نعيش جميعًا نفس المعيشة، والجميع مسجلون على نفس الصفحة، ومحمولون على نفس الزورق.. نحن نعرف ذلك.

- أتحبينه إذن إلى هذا الحد حتى تفضلينه على كل شيء؟

قالت في تكرار: على كل شيء ولكن ليس علينا أن نستطلع مدى هذا السر. على فكرة! هذا الطفل العزيز، بشكل ما هو أيضًا «هو»!

ثم ضغطت على «أبيل» بقوة غريبة، وانهالت تطبع قبلات تلتهم بها خديه وشعره...

صاح اللواء: ولكن... لن أعرف كيف أنسى أنه قذف منذ قليل بتسعة أشخاص إلى البحر.

- كان لا بد من ذلك بغير شك... لأنه ذو دوافع إنسانية وكريم إنه يسيل أقل دم ممكن لكي يحافظ على مصالح عامة الناس الذين يحميهم وعلى القضية المقدسة التي يدافع عنها. حدثه عما تراه سيئًا وسوف ترى أنه سيعرف كيف يجعلك تغير من وجهة نظرك.

قال اللواء كما لو كان يتحدث إلى نفسه: وجريمته؟

أجابت هي في اعتزاز بارد: ولكن... إذا كانت هذه فضيلة؟ إذا لم يستطع العدل الإنساني أن ينتقم له؟

صاح اللواء: ينتقم لنفسه؟

سألته: وما هي جهنم إذا لم تكن انتقامًا أبديًا من أجل بعض الأخطاء في يوم من الأيام!

- آه! لقد ضعت. لقد رقاك رقية سحرية. لقد بلبل أفكارك إنك تهذين.

- ابق هنا يومًا يا والدي، وإذا شئت أن تصغي إليه وأن تتأمله فسوف تحبه.

قال اللواء بتجهم: «هيلين» إننا على بعد فراسخ من فرنسا..

وجفلت، ونظرت من كوة الحجرة، وأشارت إلى البحر وهو يبسط نجيلًا هائلًا من الماء الأخضر.

أجابت وهي تطرق السجاد بطرف قدمها: هاك بلادي.

- ولكن ألن تأتي لترى أمك وأختك وأخويك؟

قالت والدموع في حلقها: أوه! نعم! إذا أراد هو، وإذا كان في استطاعته أن يرافقني.

واصل الرجل العسكري: لم يعد لك شيء «يا هيلين» لا وطن ولا أسرة؟

أجابت في حالة من الزهو وبلهجة مليئة بالنبل: إنني زوجته... هاك منذ سبع سنوات أول سعادة لا تأتيني منه. وأضافت وهي تمسك يد والدها وتقبلها: وهاك أول مؤاخذة أسمعها.

- وضميرك؟

- ضميري! إنه هو ضميري.

ثم ارتعدت بشدة في هذه اللحظة، وقالت: ها هو ذا.. حتى في وقت المعارك أتعرف على خطوته من بين كل الخطوات فوق السطح.

وفجأة جعلت الحمرة خديها أرجوانيين، وجعلت ملامحها ساطعة وعينيها لامعتين، وصارت بشرتها بيضاء بياضًا مطفأ.. كان ثمة سعادة وحب في عضلاتها، وفي عروقها الزرقاء، وفي رعدتها غير الإرادية كأي إنسان. وقد انفعل اللواء إزاء هذه الحركة المشحونة بالحساسية.

وفعلًا بعد لحظة دخل القرصان، وجاء يجلس فوق

مقعد كبير، وأمسك بابنه الأكبر وأخذ يلعب معه. وساد الصمت لحظة، إذ أخذ اللواء يتأمل بعض الوقت هذه القمرة الأنيقة الشبيهة بعش العصافير الأسطورية، وهو مستغرق في أحلام مثل الشعور المنبه في خيالات النعاس. ففي هذه القمرة تموجت هذه الأسرة فوق سطح المحيط منذ سبع سنوات بين السماوات والأمواج، معلقة بإيمان رجل واحد، ومسوقة خلال أخطار الحرب والعواصف كما يكون أحد البيوت العائلية مسلمًا قياده في الحياة لرب في قلب الشقاء الاجتماعي... ونظر بإعجاب إلى ابنته.. الصورة الوهمية لإلهة البحرية.. عذبة الجمال.. غنية بالسعادة... ويبدو كل ما حولها من كنوز باهتًا إلى جانب كنوز روحها وومضات عينيها والشاعرية التي لا توصف والتي تعبر عنها في شخصها وفيما حولها.

وأعطاه هذا الموقف غرابة أذهلته، وعلوًا وسموًا في العاطفة، وفي الاستدلال، مخلوطًا بالأفكار العادية البسيطة. وكانت الروابط الاجتماعية الباردة المحدودة الأفق تموت إزاء هذه اللوحة. وأحس الرجل العسكري العجوز بكل هذه الأشياء، وفهم كذلك أن ابنته لن تهجر إطلاقًا مثل هذه الحياة الفسيحة الخصبة في تقابلاتها، المليئة بحب صادق إلى هذا الحد. ثم إنها إذا كانت قد تذوقت مرة خطرًا دون أن تهابه فلن تستطيع العودة إلى المشاهد البسيطة في مجتمع مبتذل محدودة.

سأل القرصان قاطعًا الصمت وناظرًا إلى زوجته: هل

أضايقكما؟

أجابه اللواء: لا لقد روت لي «هيلين» كل شيء وأرى أنها ضاعت من أجلنا...

قال القرصان بقوة: لا -بعد بضع سنوات بحكم حق الاكتساب بمضي الوقت سيؤذن لي بالعودة إلى فرنسا، عندما يكون الضمير نقيًّا وبتحويل قوانينكم الاجتماعية التي أطاعها رجل...

ثم سكت مستنكرًا أن يأخذ في تبرير مسلكه.

قال اللواء مقاطعًا إياه: وكيف تستطيع... كيف تستطيع ألا تشعر بوخزات الضمير إزاء عمليات القتل الجديدة التي ارتكبت أمام عيني؟

أجاب القرصان بهدوء: «ليس لدينا مؤن للغذاء».

- ولكن إذا نزل هؤلاء الرجال على الشاطئ...

- سوف يقطعون علينا خط الرجعة ببعض المراكب، ولن نتمكن من الوصول إلى (سيلي).

قال اللواء مقاطعًا: «قبل أن يخطروا في فرنسا «أميرالية» البحر الإسبانية».

- بل إن فرنسا تستطيع أن تستاء من رجل لا يزال خاضعًا لمحاكم الجنايات فيها، ويسمح لنفسه بوضع اليد على مركب شراعي ذي صاريين مجهزة بطاقم من أبناء «بوردوه». وعلاوة على ذلك ألم تُطلق بعض الأحيان

طلقات عديدة من المدافع أكثر مما يلزم في ميدان المعركة؟

وسكت اللواء، وقد أخجلته نظرة القرصان. ونظرت إليه ابنته بشكل يعبر عن الانتصار أكثر مما يعبر عن الحزن...

قال القرصان بصوت منخفض: «يا لواء، لقد شرعت لنفسي قانونًا بعدم تشتيت الأسلاب على الإطلاق. ولكن مما لا شك فيه أن نصيبي سوف يكون أكبر شأنًا مما كانت ثروتك، فاسمح لي بأن أعيدها في عملات أخرى..

وسحب من درج البيانو كتلة من الأوراق المالية، دون أن يعد كل حزمة، وقدّم مليونًا منها إلى الماركيز، ثم واصل كلامه: «فأنت تعرف أنه لا يمكنني أن أتسلى بمشاهدة العابرين في طريق (بوردوه) والواقع أنه إذا لم تكن قد استهوتك أخطار حياتنا البوهيمية، ومشاهد أواسط أمريكا، وليالينا الاستوائية، ومعاركنا، ومتعة تحقيق النصر لراية أمة صغيرة أو اسم «سيمون بوليفار» فعليك أن تفارقنا... يوجد زورق طويل ورجال مخلصون في انتظارك، وأتعشم لقاء ثالثًا تكون السعادة فيه تامة..

قالت «هيلين» في نغمة مستاءة: «فيكتور، أود رؤية أبي لحظة أخرى»».

- عشر دقائق أكثر أو عشر دقائق أقل قد توقعنا وجهًا لوجه أمام مركب حربي. ليكن! سوف نتسلى قليلًا، فرجالنا في ملل.

صاحت زوجة البحار: «أوه! ارحل يا أبي.. واحمل إلى

أختي وإخوتي وإلى... أمي، هذه التأكيدات والوعود مما أحفظه من ذكرياتي».

وأخذت قبضة من الأحجار الكريمة والعقود والجواهر ولفتها في بعض الحرير الكاشمير وقدمتها إلى والدها في حياء.

سألها وهو يبدو مذهولًا من تردد ابنته الملحوظ عندما نطقت بكلمة «الأم»: «وماذا أقول لهم من قِبَلك؟».

- أوه! هل تستطيع أن تشك في روحي ومشاعري، إنني أدعو كل يوم من أجل سعادتهم.

واصل العجوز كلامه ناظرًا بانتباه: «هيلين»، ألن أراك بعد اليوم؟ ألن أعرف أبدًا لأي دافع إذن يرجع هربك؟».

قالت بنغمة متجهمة: «إنني لا أملك هذا السر. كان يحق لي أن أبلغك إياه، لكني حتى آنذاك قد لا أبلغك إياه. لقد عانيت أثناء عشر سنوات من شرور لا تصدق...».

ولم تكمل بل مدت يدها إلى أبيها بالهدايا التي شاءت أن تبعث بها إلى أسرتها. وكان اللواء قد اعتاد في أثناء أحداث الحرب أفكارًا واسعة الأفق فيما يتعلق بالأسلاب، فقبل الهدايا المقدمة من ابنته، وأرضاه أن يفكر أن القبطان الباريسي ظل رجلًا شريفًا في حربه ضد الإسبان، تحت تأثير إلهام روح على هذا القدر من

النقاء والتربية مثل روح «هيلين». وغلبته مشاعر حماسه للشجعان، وظن أنه سيكون محل سخرية إذا تصرف كرجل شديد التعفف، فضغط بشدة على يد القرصان، وقبل حبيبته «هيلين» ابنته الفريدة في رقة خاصة بالجنود، وسقطت دمعة على وجهه ذي الغرور، وابتسم لها تعبيره الحازم أكثر من مرة. وانفعل البحار بقوة فأعطاه أولاده ليباركهم. وفي النهاية قال الجميع كل للآخر وداعًا للمرة الأخيرة، خلال نظرة طويلة لم تخل من حنان.

صاح الجد وهو يقذف بنفسه إلى السطح: «كونوا دائمًا سعداء».

وكان ثمة مشهد فريد في انتظار اللواء، فقد أُودعت «سان فيرديناn» النار فاشتعلت ككأر ضخمة هبت في مقدار من قش. وشغلت الملاحين عملية خرق السفينة الإسبانية، ولاحظوا في أثناء ذلك أنها كانت تحمل فوق ظهرها حمولة من «الروم» «الليكير» (الخمور القوية) التي كانت متوافرة فوق «عطيل»، ووجدوا أنه قد يكون ممتعًا أن يشعلوا طاسة كبيرة من المزيج الكحولي وسط البحر، وكانت هذه تسلية مقبولة إلى حد ما بالنسبة إلى قوم تجعلهم رتابة البحر الظاهرة، ينتهزون كل الفرص من أجل بعث الحياة في معاشهم. وعند نزول اللواء من المركب إلى الزورق الذي ينتمي إلى (سان فيرديناn)، والذي يشغله ستة من الملاحين الأقوياء، وجد نفسه لا إراديًا يقسم انتباهه بين حريق (سان فيرديناn) وابنته المعتمدة على القرصان..

فكلاهما يقف في مؤخرة مركبه.

وإزاء كل هذا القدر من الذكريات نسي اللواء وهو يرى فستان «هيلين» الأبيض يرفرف خفيفًا مثل شراع إضافي، ويميز هذا الشكل الجميل الطويل فوق المحيط برهبته التي تفرض نفسها، وتسيطر على كل شيء حتى البحر - نسي اللواء أمام هذا كله بفعل لا مبالاة الرجل العسكري أنه كان يتموّج فوق مقبرة الرجل الشجاع «جوميز». وامتد فوقه عمود ضخم من السحاب الداكن الذي كانت تتخلله وتنفذ فيه أشعة الشمس هنا وهناك فتكسبه وهجًا شاعريًّا. كان ذلك أشبه بسماء ثانية.. قبة قاتمة تتلألأ تحتها أنواع من الثريات، وتحلق فوقها زرقة السماء التي لا تتغير، والتي بدت أجمل ألف مرة بفعل هذا التقابل العارض. وكانت الأصباغ العجيبة في هذا الدخان الذي بدا أحيانًا مائلًا إلى الاصفرار، وأحيانًا ذهبيًّا، وثالثة أحمر اللون أو أسود، قد ظهرت كأنها مصهورة في شكل أبخرة تغطي المركب الذي ظل يلمع ويقرقع ويطنّ طنينًا أشبه بالصراخ. وعلا صفير الشعلة، وهي تغض الحبال وجرت داخل المركب مثلما تطير ثورة شعبية في طرقات المدينة. وكانت تصدر عن شراب (الروم) نار ذات لهب أزرق يرتعش كما لو كانت جنية البحار قد حركت هذا «الليكير» (الخمر القوي) الغاضب، وكأنما حركت أيضًا يد طالب من طلاب العلوم ذلك اللهب بمزيج من الكحول والسكر في أثناء احتفال من احتفالات إله الخمر. ولكن

الشمس كانت أقوى ضوءًا وكانت تحس بغيرة من ذلك الوهج الوحّ، فلم تعد تظهر خلال أشعتها إلا قدرًا ضئيلًا لا يكاد يذكر من ألوان الحريق، وأصبحت كقفص أو كوشاح يخفق وسط سيل من نيرانه.

وتعلقت (عطيل) بالرياح القليلة التي استطاعت أن تلتقطها في ذلك الاتجاه الجديد كيما تلوذ بالهرب، وكانت تميل مرة على جانب، ومرة على الجانب الآخر كطيارة تمايل في الهواء، وكان هذا المركب الشراعي ذو الصواري وذو الشكل الجميل يلوذ بالفرار نحو الجنوب. وكان أحيانًا، يختفي عن أنظار اللواء وراء العمود المستقيم الذي كان ظله يسقط بطريقة وهمية فوق المياه، وكان أحيانًا أخرى يظهر وهو يرتفع في خفة وانفلات.

وفي كل مرة كانت «هيلين» تستطيع أن ترمق أباها، كانت تأخذ في تحريك منديلها لتحيته. وسرعان ما غرقت «سان فيردينان» محدثة غليانًا لم يلبث أن أزال المحيط أثره. ولم يبق من كل هذا المشهد بعد ذلك سوى سحابة متأرجحة بفعل الرياح. وصارت (عطيل) بعيدة واقترب الزورق من الساحل، واعترضت السحابة بين هذا الزورق الهشّ والمركب الشراعي، وكانت آخر مرة رأى فيها اللواء ابنته خلال شق بين هذا الدخان المموج، رؤية أشبه برؤى الأنبياء! وكف المنديل الأبيض والفستان وحدهما عن أن تقع عليهما العين فوق هذه الأرضية التي لها لون الصدأ، ولم يعد المركب الشراعي مرئيًا بين الماء الأخضر والسماء

الزرقاء، ولم تعد «هيلين» سوى نقطة لا تُرى أو مجرد خطر منطلق رقيق، أو ملاك من ملائكة السماء... مجرد فكرة... أو ذكرى.

بعد أن نمى الماركيز ثروته مات منهوكًا من الإجهاد. وبعد وفاته ببضعة أشهر في سنة 1833 اضطرت الماركيزة إلى أن تصحب «موينا» إلى مياه (البيرينيه) وأرادت الطفلة الهوائية المزاج أن ترى روائع الجبال. وعادت إلى المياه، وعند عودتها حدث مشهد مروع، وهذا مؤداه.

قالت «موينا»: «يا إلهي لقد أسأنا يا أمي بعدم المكوث أيامًا أطول في الجبال! لقد كنا هناك في حال أفضل من هنا بكثير، هل استمعت إلى الأنين المتواصل الذي يصدره هذا الطفل الكريه، وثرثرة هذه المرأة الشقية التي تتحدث بدون شك في لغة إقليمية، لأنني لم أفهم كلمة واحدة من كل ما قالته؟ أي نوع من الناس هذا الذي صار جارًا لنا! لقد كانت هذه الليلة أبشع ليلة قضيتها في حياتي.

أجابت الماركيزة: «إنني لم أسمع شيئًا.. ولكن يا طفلتي العزيزة سوف أبحث عن المضيفة، وأطلب منها الغرفة المجاورة، وسنكون بمفردنا في الجناح، ولن تحدث ضوضاء بعد الآن. كيف حال صحتك هذا الصباح؟ هل أنت مجهدة؟».

وعندما قالت الماركيزة هذه العبارات الأخيرة نهضت لتقترب من سرير «موينا»، وقالت لها وهي تبحث عن

يدها: «أريني».

أجابت «موينا»: «أوه! دعيني يا أمي فأنت مبردة».

عند قول الفتاة الشابة هذه الكلمات تدحرجت تحت وسادتها بحركة تقطيب، ولكن في تظرف، بحيث كان من الصعب على أن تستاء منها. وفي هذه اللحظة صدرت شكوى بلهجة ناعمة طويلة تكاد تمزق قلب المرأة وتدّوي في الغرفة المجاورة.

- ولكن هل استمعت طيلة الليلة لهذا؟ ولماذا لم توقظيني؟ كنّا استطعنا..

وإذا أنين أشد عمقًا من كل ما سبق يقاطع كلام الماركيزة التي صاحت: «هنا شخص يحتضر!»، وخرجت بقوة.

صاحت «موينا»: أرسلي «بولين» إلى هنا! سوف ألبس ملابسي.

وهبطت الماركيزة مسرعة، وقابلت المضيفة في الفناء وسط أشخاص كانوا يصغون إليها كما يبدو وبانتباه.

- سيدتي. لقد وضعت في الغرفة المجاورة شخصًا يبدو أنه مريض مرضًا شديدًا..

صاحت سيدة الفندق: «آه! لا تحدثيني عن تلك المرأة، لقد أرسلت من يحضر لي العمدة. تصوري أنها امرأة شقية تعيسة وصلت بالأمس مساء هنا على قدميها. إنها

قادمة من (إسبانيا) بغير جواز سفر وبغير نقود. لقد حملت فوق ظهرها طفلًا يحتضر. ولم أستطع أن أعتذر لها عن استقبالها هنا، وفي هذا الصباح ذهبت بنفسي لأراها، لأنها حين هبطت هنا بالأمس أثرت في نفسي تأثيرًا مؤلمًا. مسكينة هذه المرأة الصغيرة! لقد كانت نائمة مع طفلها وكلاهما في نزاع مع الموت.. قالت لي وهي تخرج «دبلة» ذهبية من إصبعها: «سيدتي، لم أعد أملك سوى هذه. خذيها ثمنًا لمبيتنا عندك، وسيكون ذلك كافيًا فلن تكون إقامتي طويلة». يا للمسكينة الصغيرة! لقد قالت وهي تنظر إلى طفلها: «سوف نموت معًا». فأخذت «دبلتها» وسألتها من هي؟ ولكنها لم تشأ إطلاقًا أن تبوح باسمها.. فأرسلت أطلب الطبيب والسيد العمدة.

قالت الماركيزة: «ولكن أعطيها كل النجدة التي تلزمها. يا إلهي ألا يزال ثمة وقت لإنقاذها! سوف أدفع لك كل المبالغ التي تنفقها...».

- آه! يا سيدتي. يظهر أنها شديدة الزهو والكبرياء. ولا أدري ما إذا كانت توافق على ذلك...

- سأذهب لأراها...

وفي الحال صعدت الماركيزة إلى غرفة المجهولة دون أن تفكر في الألم الذي قد تحدثه رؤيتها لدى هذه المرأة في اللحظة التي يقال عنها في أثنائها إنها تحتضر. وامتقع لون الماركيزة لمرأى المحتضرة، فبالرغم من كل الآلام المفزعة

التي غيرت من طلعة «هيلين» الجميلة تعرفت الماركيزة على ابنتها الكبرى. وعند مرأى المرأة التي تلبس الثياب السوداء اعتدلت «هيلين» في جلوسها، وصرخت صرخة فزع، وسقطت ببطء فوق سريرها، إذ تحققت أن تلك المرأة كانت أمها.

قال السيدة «ديجليمون»: ابنتي! ماذا يلزمك؟ «بولين».. «موينا»...

أجابت «هيلين» بصوت ضعيف: «لم أعد في حاجة إلى شيء كنت أتعشم رؤية أبي، ولكن حدادك يريني...».

ولم تكمل. وضمت طفلها إلى قلبها كيما تدفئه، وقبلته فوق جبهته، ونظرت إلى أمها نظرة يقرأ فيها العتاب مخففًا بالعفو. ولم تشأ الماركيزة أن تفهم هذا العتاب، ونسيت أن «هيلين» كانت فيما مضى طفلة محوطة بالدموع واليأس... طفلة الواجب... طفلة كانت سببًا في كل ما نزل بها من الشقاء الكبير، وتقدمت برقة نحو ابنتها الكبرى، وهي تتذكر فقط أن «هيلين» كانت أول من عرّفها متع الأمومة، وكانت عينا الأم مليئتين بالدموع.. وعندما قبلت ابنتها صاحت: «هيلين! ابنتي».

واحتفظت «هيلين» بالصمت، واستنشقت آخر تنهد صدر عن آخر أطفالها.

في تلك اللحظة دخلت «موينا» و«بولين» خادمتها والمضيفة والطبيب. وأمسكت الماركيزة بين يديها يد

ابنتها الباردة كالثلج، وتأملتها في يأس حقيقي. لقد أحنق الشقاء أرمل البحار التي استطاعت أن تنجو من الغرق دون أن تنقذ من كل أسرتها الجميلة سوى طفل واحد. وقالت لأمها بصوت مفزع: «كل هذا من إنتاجك! لو استطعت أن تكوني لي ما...».

صاحت السيدة «ديجليمون» وهي تخفي صوت «هيلين» بوقع صوتها: «موينا» اخرجي. اخرجوا جميعًا!

واستطردت الأم: بالله، يا ابنتي دعينا دون أن نجدد في هذه اللحظة ذلك الصراع الحزين...

أجابت «هيلين» وهي تقوم بمجهود غير عادي: سوف أسكت. لقد صرت أمًّا وأعرف أنه يجب بالنسبة إلى «موينا» ألّا... أين طفلي؟

وعاودت «موينا» الدخول مدفوعة بالفضول، وقالت تلك الطفلة المدللة: يا أختي هاك الطبيب.

واصلت «هيلين»: كل شيء غير مجد.. آه لماذا لم أمت في سن السادسة عشر عندما كنت أريد أن أنتحر! إن السعادة لا يمكن أن تحيد عن قوانينها... «موينا».. أنت...

وماتت «هيلين» وهي تميل برأسها نحو رأس طفلها الذي ضمته بتشنج.

قالت السيدة «ديجليمون» عندما عادت إلى غرفتها حيث صهرتها الدموع: لقد أرادت أختك بلا شك أن

تقول لك يا «موينا» إن السعادة لا توجد أبدًا بالنسبة إلى الفتاة في الحياة الخيالية الروائية المفرطة وبعيدًا عن الأفكار المقبولة وبخاصة بعيدًا عن أمها.

* * *

6

شيخوخة أمّ مذنبة

أثناء يوم من أوائل شهر يونيو سنة 1844 كانت سيدة في حوالي الخمسين من عمرها -وإن كانت تبدو أكبر سنًا من عمرها الحقيقي- تتنزه في الشمس ساعة الظهر على طول ممشى حديقة قصر كبير في شارع «بلوميه» باريس. وبعد أن دارت دورتين أو ثلاثًا في الطريق الضيق المتعرج، حيث بقيت حتى لا تغيب عنها رؤية شبابيك الجناح التي يبدو أنها كانت تجذب كل انتباهها، جاءت تجلس على أحد المقاعد نصف الريفية التي كانت تصنع من أغصان الأشجار صغيرة مزودة بقشورها. ومن المكان الذي كان فيه ذلك المقعد الأنيق كانت السيدة تستطيع أن تحدق إلى أسوار الفناء والمتنزهات الداخلية التي وضعت في وسطها قبة «الأنفاليد» الذهبية الرائعة التي ترتفع بين أعالى آلاف أشجار (الدردار) وإلى المنظر الجميل ومظهر الحديقة الأقل عظمة التي تنتهي عند واجهة رمادية لأروع قصور ضاحية (سان جيرمان). وهنالك صمت مطبق، والحدائق المجاورة والمتنزهات و(الأنفاليد) «مقبرة نابليون»؛ لأن هذا الحي العريق لا يبدأ فيه النهار إلا ظهرًا. وبغض النظر عن بعض النزوات، وعن أن بعض النساء الشابات لا يردن امتطاء الخيل، أو أن أحد الدبلوماسيين المسنّين لا يجد محلًّا لأداء بعض التشريفات

في هذه اللحظة... خدم وسادة... الكل ينام أو الكل يستيقظ.

وكانت السيدة المبكرة جدًّا هي الماركيزة «ديجليمون» والدة السيدة «دي سانت هيرين» التي تملك هذا القصر الجميل، فقد حرمت الماركيزة نفسها من هذا القصر لصالح ابنتها التي وهبتها كل ثروتها دون أن تحتفظ لنفسها بغير معاش مدى الحياة. وكانت «الكونتيسة موينا دي سانت هيرين» آخر من رزقت به السيدة «ديجليمون» من الأطفال، ولكي تصبح قرينة وريث بيت من ألمع البيوت الفرنسية ضحت الماركيزة بكل شيء.

ولا شيء أكثر طبيعية من ذلك: فقد خسرت ولدين على التوالي: أحدهما «جوستاف ماركيز ديجليمون» الذي مات بالكوليرا، والثاني «أبيل» الذي زل عن (قسطنطينة). وقد أخلف «جوستاف» أرملة وأطفالًا. ولكن عاطفة السيدة «ديجليمون» الفاترة نحو ولديها كانت أكثر ضعفًا أيضًا حينما انتقلت إلى أحفادها الصغار، وكان سلوكها مهذبًا حيال السيدة «ديجليمون» الصغرى، ولكنها تمسكت بعاطفة سطحية مما يفرض علينا الذوق السليم واللياقات أن نظهره حيال أقربائنا.

ولما كانت ثروة أولادها الذين ماتوا قد تمت تسويتها فقد احتفظت لعزيزتها «موينا» بكل مدخراتها وأملاكها الخاصة. وكانت «موينا» منذ طفولتها جميلة جذّابة، فصارت باستمرار بالنسبة إلى السيدة «ديجليمون» موضع

إيثار أشبه ما يكون بتلك الإيثارات الفطرية أو اللا إرادية لدى أمهات الأسر.. تعاطفات محتومة تبدو بغير تفسير أو لعل الملاحظين يعرفون تفسيرها أكثر مما يخطر على البال. وكان كل شيء في «موينا»... وجهها الجذاب.. ورنة صوت هذه الابنة المدللة... طريقتها.. خطوتها.. هيئة سحنتها.. حركاتها.. كل شيء كان يوقظ لدى الماركيزة أشد الانفعالات عمقًا وأكثرها قدرة على الإحياء أو بعث الاضطراب أو أسر قلب الأم. لقد كان مبدأ حياتها الحاضرة وحياتها المستقبلة، وحياتها الماضية، مبثوثًا في قلب هذه المرأة الشابة حيث ألقت بكل كنوزها.

ومن حسن الحظ أن «موينا» عاشت بعد وفاة أربعة أطفال كلهم أكبر منها. وقد فقدت السيدة «ديجليمون» في الواقع على أتعس نحو ممكن، كما يقول أهل المجتمع، بنتًا ساحرة الفتنة كان مصيرها مجهولًا تقريبًا، وصبيًا صغيرًا مات في سن الخامسة في نكبة مروعة. ولا شك أن الماركيزة عاشت بشارة من بشارات السماء في الاحترام الذي يبدو أن المصير قد احتفظ به لابنة قلبها، وفي الذكريات الضعيفة التي أبقاها عن أولادها الذين سقطوا سلفًا وفقًا لأهواء الموت، فظلوا داخل أعماق روحها كمقابر مقامة في أرض معركة أوشكت أن تخفيها زهور البساتين.

وكان في مقدور المجتمع أن يطلب من الماركيزة بيانًا قاسيًا عن هذه اللا مبالاة، وعن ذلك الإيثار والتفضيل،

غير أن مجتمع باريس مجذوب في غضون سيل من الأحداث والأزياء والأفكار الجديدة، حتى إن كل حياة السيدة «ديجليمون» قد خضعت فيها بشكل ما لزامًا للنسيان، فلم يفكر أحد في أن ينسب إليها جريمة البرود أو النسيان التي لم تكن تهمّ أحدًا في حين أن حنانها القوي نحو «موينا» كان يهم قومًا كثيرين، وكانت له القداسة الكاملة التي نمنحها عادة للحكم المسبق.

وعلاوة على ذلك لم تكن الماركيزة تتردد على المجتمع إلا نادرًا وكانت تبدو في نظر أغلب الأسر التي تعرفها طيّبة رقيقة ورعة متسامحة. والواقع... ألم يكن من الضروري أن يتوافر للمرء اهتمام قوي حتى ينفذ إلى ما وراء هذه المظاهر التي يكتفي بها المجتمع؟ ثم ما الذي لا نغفره لكبار السن عندما يزولون كالظلال ولا يريدون أن يكونوا سوى ذكرى؟

على أية حال كانت السيدة «ديجليمون» نموذجًا يذكره الأطفال لوالديهم، كما يذكره الأصهار لحمواتهم ملاطفة. فقد أعطت «موينا» قبل الأوان كل ممتلكاتها سعيدة راضية بسعادة ابنتها الكونتيسة. ولا تعيش إلا بها ومن أجلها. وإذا كان الشيوخ الحذرون والأعمام المهمومون قد لاموا هذا السلوك قائلين: سوف تندم السيدة «ديجليمون» يومًا ما على أنها تخلت عن ثروتها لصالح ابنتها، لأنها إذا كانت تعرف قلب السيدة «دي سانت هيرين» معرفة جيدة، فهل هي واثقة أيضًا من أخلاق صهرها؟ ولكن

لم يقابل هؤلاء المتنبئون إلا باستقباح عام لأن الثناء العام كان يهطل من كل الأنحاء على «موينا» كالمطر.

قالت سيدة شابة: لا بد أن يقال هذا الحق في صالح السيدة «دي سانت هيرين» إذ لم تر أمها أي تبديل حولها. والسيدة «ديجليمون» تعيش عيشة رائعة، ولها عربتها تحت أمرها، وتستطيع أن تذهب إلى أي مكان في المجتمع كما كانت من قبل...

أجاب طفيلي عجوز بصوت خفيض، واحد من هؤلاء الناس الذين يرون لأنفسهم الحق في تحميل أصدقائهم عبارات لاذعة مدعين بذلك إثبات استقلالهم: باستثناء بيت الإيطاليين.. ذلك أن الأرملة لا تحب سوى الموسيقى وأشياء أخرى غريبة في الواقع عن ابنتها المدللة. وكانت موسيقية جيدة في أوانها! ولكن لما كان مسكن الكونتيسة مُعرَّضًا على الدوام لغزوات الفراشات الشابة، ولا شك أنها ستضايق فيه هذه المرأة الصغيرة التي يتكلم عنها الجميع سلفًا بوصفها فاتنة كبيرة.. فلذلك لا تذهب إطلاقًا إلى بيتها المسمى «بالإيطاليين»».

قالت فتاة في سن الزواج: إن السيدة «دي سانت هيرين»، تدبر لأمها أمسيات ممتعة في (صالون) تتجه إليه باريس كلها.

أجاب الطفيلي: «صالون لا تسترعي فيه الماركيزة انتباه أحد».

قال أبله معجب بنفسه مؤيدًا جانب الشابات: الواقع أن السيدة «ديجليمون» لا تكون أبدًا بمفردها.

أجاب الملاحظ العجوز في صوت خفيض: في الصباح... في الصباح تنام «موينا» العزيزة، وفي الساعة الرابعة تكون «موينا» في الغابة، ومساء تذهب «موينا» العزيزة إلى الحفل الراقص أو إلى الولائم... ولكن صحيح أن السيدة «ديجليمون» تملك المورد الأصلي حين ترى ابنتها العزيزة وهي تقوم بارتداء ملابسها أو في أثناء العشاء عندما تتناول «موينا» العزيزة عشاءها مصادفة مع والدتها العزيزة... واستطرد الطفيلي، وهو يأخذ بذراع رجل خجول مهذب حديث العهد بالبيت الذي كان يسكن فيه: «ومنذ ثمانية أيام على الأكثر يا سيدي رأيت تلك الأم المسكينة حزينة ووحيدة بالقرب من مدفأتها. سألتها «ماذا بك؟» فنظرت إليّ الماركيزة وهي تبتسم، ولكن من المؤكد أنها كانت تبكي وقال لي: «لقد فكرت. إنه شيء فريد أن أجد نفسي وحيدة وقد كان لي خمسة أطفال. ولكن هذا يناسب مصيرنا! ثم إنني سعيدة بأن أعرف أن «موينا» تسرّي عن نفسها» وكانت الماركيزة تستطيع أن تطمئن إليّ لأنني كنت أعرف زوجها سلفًا. كان رجلًا مسكينًا، وكان يدين لها بلا شك بضيعته ومهامه في بلاط «شارل العاشر»».

ولكن أخطاء كثيرة تنزلق في غضون الأحاديث التي تجري بين الناس في المجتمع، وتندس فيها بخفة

غير محسوسة أضرار عميقة إلى درجة أن مؤرخ العرف الأخلاقي مضطر إلى أن يزن التأكيدات، التي يضعها كثير من غير المهتمين بلا مبالاة في غير قليل من الحكمة، ولعله لا ينبغي في النهاية بالنسبة إلينا أبدًا أن نقول من هو المخطئ ومن هو المصيب: الطفل أم الأم؟ إذ لا يوجد بين هذين القلبين سوى حكم واحد ممكن، وهذا الحكم أو القاضي هو الله!... الله الذي غالبًا ما يبث انتقامه في وسط الأسر، ويستعين استعانة أبدية بالأولاد ضد الأمهات، وبالآباء ضد الأبناء، وبالشعوب ضد الملوك، وبالأمراء ضد الأمم، وبكل شيء ضد كل شيء... وذلك بأن يعمد في عالم الأخلاق إلى إحلال مشاعر معينة محل أخرى، كما تدفع أوراق الشجر الصغيرة أوراق الشجر الشائخة في الربيع.. وبأن يتصرف وفقًا لأمر ثابت ولغرض لا يعلمه سواه. ولا شك أنه قد وسع كل ما يقع أو بتعبير أفضل، أن مرجع كل شيء إليه.

وكانت هذه الأفكار الدينية، الطبيعية جدًّا في قلب المسنين تطفو مبعثرة في روح السيدة «ديجليمون». فقد كانت المعالم هنالك واضحة نصف وضوح. فأحيانًا تعتم، وأحيانًا تنبسط انبساطًا كاملًا كالزهور التي تزعجها العاصفة فوق سطح المياه. كانت جالسة مجهدة ضعيفة بفعل تأمل طويل، أو بتأثير أحد هذه الأحلام التي تنتصب في وسطها الحياة بأكملها وتنبسط في عيني أولئك الذين يستشعرون الموت.

وكان يمكن أن تصبح هذه المرأة التي شاخت قبل السن لوحة غريبة بالنسبة إلى بعض الشعراء العابرين في «البوليفار» (المتنزه الكبير)؛ إذ كان يمكن أن يعرف كل الناس عند رؤيتها جالسة في ظل شجر الطلح الرطيب... في ظل شجر الطلح عند الظهيرة.. كان يمكن أن يعرفوا جميعًا كيف يقرأون آلاف الأشياء المكتوبة فوق ذلك الوجه الشاحب البارد حتى حين يوجد وسط أشعة الشمس الدافئة. فقد كان وجهها المليء بالتعبير يمثل شيئًا أكبر خطرًا من مجرد حياة تذبل، أو أعمق من مجرد روح انحطت بالتجربة. لقد كانت أحد الأنماط التي تستلفت نظرك، وتدفعك إلى التفكير من بين ألف وجه يستهان به لخلوه من أي طابع. فكما لو كنت إزاء ألف لوحة في متحف، ثم تجد نفسك متأثرًا بقوة سواء أمام رأس «ميريبو» السامية الجليلة التي صورها ألم الأمومة، أو أمام وجه «بياتريكس تشينكي» التي استطاع المصور الإيطالي «لوجيد» أن يصور فيها أكبر براءة تلمس القلب في أعماق أبشع الجرائم، أو أمام وجه «فيليب» الثاني الحزين حيث استطاع «فيلاسكيز» أن يطبع إلى الأبد جلال الرعب الذي توحي به الملكية. فبعض الوجوه الإنسانية ذات صور طاغية تحدث إليك، وتستجوبك، وتجيبك عن أفكارك الخفية، بل تنظم أشعارًا كاملة. وكان وجه السيدة «ديجليمون» الذي يشبه الثلج واحدًا من هذه القصائد المفزعة، أو واحدًا من تلك الوجوه المنتشرة بالآلاف في (الكوميديا الإلهية) التي ألفها «دانته

أليجييري»».

وتستطيع طباع الجمال المميزة أن تعين تمامًا في أثناء الموسم السريع الذي تظل المرأة فيه كالزهرة على مداراة ما يقضي به ضعفها الطبيعي وقوانيننا؛ ويمكن أن تبقى كل الانفعالات خفية تحت التلوين الفني في وجهها الناضر، وتحت وهج عينيها، وتحت شبكة ملامحها الرقيقة الناعمة، وكثير من الخطوط المتضاعفة المنحنية أو المستقيمة مع احتفاظها بالصفاء وبالتوافق التام. ولا تكشف عندئذ حمرة الخجل شيئًا مع وجود تلوين بالألوان الشديدة القوة سلفًا. وتمتزج كل المواقد الباطنة امتزاجًا حسنًا مع اشتغال عينيها بالحياة، حتى الشعلة العابرة للعناء لا تظهر في كل ذلك إلا كدلال زائد إضافي. وكذلك لا شيء أكثر أمانة في الكتمان من «الوجه الشاب» لأنه لا شيء أكثر منه ثباتًا. فوجه المرأة الشابة يمتاز بهدوء وانصقال ونضارة سطح البحيرة.

ولا تبدأ سيماء وجه المرأة إلا في سن الثلاثين!

فحتى تلك السن لا يعثر المصور في وجوههن إلا على لون وردي ولون أبيض، وعلى ابتسامات، وعلى تعبيرات تكرر نفس الفكرة.. فكرة الشباب والحب.. فكرة ذات زي واحد، وبلا عمق. ولكن في الشيخوخة يكون كل شيء في المرأة قد تكلم، وتكون العواطف قد رسخت فوق وجهها، فقد كانت عشيقة وزوجة وأمًّا، وانتهت أعنف تعبيرات البهجة، والألم بأن غضنت وأنهكت ملامحها

فاندفعت فوقه في صورة ألف من التجاعيد التي تحتفظ كل منها بلغة معينة، ويصبح وجه المرأة حينئذ جليلًا من الاشمئزاز جميلًا من الكآبة أو رائعًا من الهدوء، وإذا كان مسموحًا بمواصلة هذه الاستعارة الغريبة قلنا إن البحيرة المجففة من مائها تبيح رؤية أخاديد كل السيول التي أوجدتها. فرأس المرأة العجوز لا يصبح بعد ذلك منتميًا إلى المجتمع الذي يرعبه، بسبب استهتاره، أن يستشعر فيه انهيار كل أفكار الأناقة التي اعتادها أو إلى عالم الفنانين العاديين الذين لا يكتشفون فيه شيئًا. ولكنه يظل منتميًا إلى الشعراء الحقيقيين، وإلى أولئك الذين يملكون عاطفة الإحساس بالجمال مستقلًا عن كل ما يجري به العرف والاتفاق مما تستند إليه كل الأحكام المسبقة في مسائل الفن والجمال.

وبالرغم من أن السيدة «ديجليمون» قد وضعت فوق رأسها قبعة كالبرنُس من أحدث الطرز لم يكن من الصعب رؤية شعر بأسها الذي كان أسود اللون في السنوات الماضية وقد صار أبيض من شدة الانفعالات القاسية؛ ولكن الطريقة التي فرقته بها في عصبتين كانت تبوح بجودة ذوقها، وتكشف عن عادات الرقة والدلال لدى المرأة الأنيقة؛ وترسم جبهتها الذابلة المغضنة بطريقة مكتملة في الصورة التي تتوافر فيها بعض آثار بريقها القديم. وكان شكل وجهها وانتظام ملامحها يبوحان بفكرة ضعيفة في الحقيقة عن الجمال الذي كان يملؤها بالغرور، غير أن

هذه العلامات كانت تكشف على الأكثر عن الآلام التي بلغت في الماضي درجة الحدة اللازمة لكي تحفر وجهها وتبعث الجفاف في فوديْها، مع تغوير الخدود وانحدار الجفون وانتزاع الرموش التي تخلق دلال النظرة.

كان كل شيء ساكنًا في هذه المرأة: خطواتها وحركاتها كانت تتميز بالبطء الرزين والتهويم الذي يفرض الاحترام. وبدا تواضعها، الذي استحال إلى حياء نتيجة من نتائج العادة التي اعتادتها منذ بضع سنوات في أن تصبح لا شيء أمام ابنتها، ثم صار كلامها نادرًا عذبًا مثل كلام كل الأشخاص المرغمين على أن يفكروا وأن يجمعوا شتات فكرهم وأن يعيشوا داخل ذواتهم. وأوحى ذلك الموقف وذلك الحزم بعاطفة لا تقبل التحديد. لم تكن خوفًا أو رأفة.. وإنما ذابت فيه خفية كل الأفكار التي توقظ هذه العواطف المنوعة.

على أية حال كانت طبيعة تجاعيدها، والطريقة التي تغضن بها وجهها، وشحوب نظرتها المتأملة. كل هذا كان يشهد بأسلوب فصيح على الدموع التي يلتهمها قلبها أولًا بأول، فلا تسقط إطلاقًا فوق الأرض وكان الأشقياء الذين اعتادوا تأمل السماء كي يرفع الله عنهم شرور الحياة -يستطيعون بسهولة أن يتعرفوا في عيني هذه الأم على قسوة عادات الصلاة في كل لحظة من لحظات اليوم، وعلى الدوار الخفيف لهذه الأسرار المثخنة التي تنتهي بالقضاء على زهور الروح حتى تبلغ عاطفة الأمومة.

ويملك المصورون الألوان اللازمة لأمثال هذه الصور، أما الأفكار والأقوال فلا تقوى على ترجمتها بأمانة، إذ تلتقي فيها داخل أنغام لون البشرة، وفي إطار تعبير الوجه، ظواهر لا تقبل التفسير مما تدركه الروح عن طريق الأبصار. ولكن حكاية الأحداث التي ترجع إليها مثل هذه الانقلابات المربعة في سحنة الوجه هي الحيلة الوحيدة المتبقية للشاعر كي يجعلها مفهومة. وكان ذلك الوجه ينم عن زوبعة هادئة باردة، وعن كفاح خفي بين بطولة ألم الأمومة وسقم مشاعرنا الفانية مثلنا نحن أبناء الفناء، ولا يوجد منها شيء أبدي. ونشأ عن هذه الآلام المكبوتة باستمرار على طول الزمن شيء مرضٍ في هذه المرة. ولا شك أن بعض الانفعالات الشديدة العنف قد أحدثت تغييرًا جسمانيًّا عضويًّا في هذا القلب المليء بالأمومة، وأن مرضًا لعله مرض «أم الدم» قد صار يهدد هذه المرأة ببطء على غير علم منها. فالآلام الحقيقية تبدو هادئة جدًّا في مظهرها داخل مهادها العميق التي تكونت فيه. حيث تظل نائمة، ولكنها توالي قرض الروح كالحامض المخيف الذي يثقب البلّور!

في تلك اللحظة خططت دمعتان خدي الماركيزة، ونهضت كأن فكرة أشد إيلامًا من كل الأفكار قد جرحتها جرحًا بالغًا. لا شك أنها تأملت مستقبل «موينا»، والواقع أن كل ضروب الشقاء الخاصة بحياتها كأنما هبطت على قلبها حين تنبأت بالآلام التي كانت تنتظر

ابنتها.

وسيفهم موقف تلك الأم إذا شرحنا موقف ابنتها.

كان الكونت «دي سانت هيرين» قد رحل لإنجاز مهمة سياسية منذ قرابة ستة أشهر. وفي أثناء هذا الغياب تسلت «موينا» التي كانت تملك دواعي الزهو كعشيقة أليفة، وجمعت بين كل رغبات الأهواء في الطفلة المدللة إما عن خفة وطيش أو عن رغبة في الانسياق مع آلاف ميول التدلّل في المرأة.. ولعلها أرادت أن ترى مدى قدرتها في أن تتعابث بعاطفة رجل ماهر، ولكن بغير قلب يدعي السكر من نشوة الحب.. ذلك الحب الذي تمتزج به كل ألوان الطموح الاجتماعي المغرور لمختال أحمق.

وكانت السيدة «ديجليمون» ذات تجربة طويلة علمتها معرفة الحياة ووزن الرجال والخوف من المجتمع، فلاحظت التقدم الذي تحقق خلال هذه الخديعة، وأحست مقدمًا بضيعة ابنتها وهي تراها تقع بين يدي رجل لا يدرك قداسة شيء. ألم يكن ثمة شيء مخيف في نظرها أن تتعرف على ملامح رجل داهية في الإنسان الذي كانت تصغي له «موينا» بلذة كبيرة؟ إن طفلتها الحبيبة كانت تقف إذن على حافة الهاوية. وكانت واثقة بذلك ثقة مفزعة، ولم تجرؤ على أن تقفها، لأنها كانت ترتجف أمام الكونتيسة. كانت تعرف مقدمًا أن «موينا» لن تصغي لأي إنذار من إنذاراتها الحكيمة. فلم تملك أيَّ نفوذ على هذه الروح التي كانت شبيهة بمادة الحديد بالنسبة إليها

وغاية في الطراوة والليونة بالنسبة إلى الآخرين. وفي الماضي كان حنانها يدفعها إلى الاهتمام بشقاوات عاطفة تسوغها الصفات الرفيعة في صاحب الإغراء، أمام ابنتها فتتبع حركة تدلل وفتنة. وكانت الماركيزة تحتقر الكونت «ألفريد ديفانديبيس» لعلمها أنه رجل ينظر إلى صراعه مع «موينا» كدور من أدوار الشطرنج.

وبالرغم من أن «ألفريد ديفانديبيس» كان موضع اشمئزاز من هذه الأم التعيسة، كانت مضطرة إلى أن تدفن أسباب كراهيتها الشديدة في ثنايا أعمق أعماق قلبها. لقد كانت ذات علاقة موثقة حانية بالماركيز «ديفانديبيس» والد «الفريد» بحيث خولت هذه الصداقة المحترمة في عيون الناس للرجل الشاب حماقة التردد ترددًا أليفًا على بيت السيدة «دي سانت هيرين» التي أظهر لها عاطفة ظل يضمرها في قلبه منذ طفولته.

وعلاوة على ذلك كان من العبث أن تعزم السيدة «ديجليمون» على إلقاء بعض العبارات المخيفة بين ابنتها و«ألفريد ديفانديبيس» كي تفصل بينهما، إذ كانت واثقة بأنها لن تنجح في ذلك بالرغم من قوة هذه العبارة التي كان يحتمل أن تصمها في عيني ابنتها، فقد كان «ألفريد» فاسدًا إلى حد بعيد، وكانت «موينا» تتمتع بفكر أكبر من أن يصدق كل ما يبوح لها به. بل كانت الكونتيسة الشابة تروغ وتتملص منها وبأن تعاملها على أساس أنها تتبع حيل الأمومة. وكانت السيدة «ديجليمون» قد بنت زانزانتها

بيديها، وأحاطت نفسها فيها بجدران حتى تموت فيها وهي ترى حياة «موينا» الجميلة تضيع.. تلك الحياة التي صارت كل مجدها وسعادتها وعزائها... بل صارت وجودًا أعز ألف مرة عليها من وجودها... آلام بشعة لا تصدق وخالية من التعبير!... هوات بلا قاع!

وجعلت تنتظر بفروغ الصبر نهوض ابنتها، وبالرغم من ذلك كانت تخشاه. مثل الشقي المحكوم عليه بالإعدام الذي يود لو ينهي حياته، والذي يملؤه البرد بالرغم من ذلك حين يفكر في الجلاد. وقد عزمت الماركيزة على أن تحاول محاولة أخيرة، ولكنها كانت تخشى الإخفاق في محاولتها أقل من خشيتها أن تخدش كبرياءها خدشًا أليمًا على قلبها حتى استنفدت كل شجاعتها. ووصل حبها كأم إلى هذا الحد: أن تحب ابنتها وتخشاها فتمسك بخنجر وتذهب لاستقبالها.

وعاطفة الأمومة عادة كبيرة في القلوب المحبة حتى إنه على الأم، قبل أن تبلغ حدّ عدم المبالاة، أن تموت أو أن تستند إلى قوة ضخمة.. الدين أو الحب. ومنذ استيقظت الماركيزة من النوم أخذت ذاكرتها المحتومة تتبع آثار كثير من هذه الوقائع الصغيرة من حيث المظهر، ولكنها أحداث كبيرة الشأن في الحياة الأخلاقية. فالواقع أن حركة بسيطة تسبب أحيانًا مأساة مروعة، كما تؤدي لهجة الكلام إلى تمزيق حياة بأكملها، وتقتل نظرى لا مبالاة أوفق المشاعر. وكانت الماركيزة «ديجليمون» قد شهدت

لسوء الحظ الكثير جدًّا من هذه الحركات، واستمعت إلى الكثير جدًّا من هذه الأقوال، وتلقت الكثير جدًّا من النظرات المفزعة للروح، حتى أمكن أن تهبها ذكرياتها بعض العشم. فقد كان كل شيء يثبت لها أن (ألفريد) قد قضى عليها في قلب ابنتها بحيث صارت، وهي الأم، أقرب إلى الواجب المفروض منها إلى المتعة والسرور.

وكانت آلاف الأشياء، وأشياء لا قيمة لها، تثبت لها سلوك الكونتيسة المكروه حيالها وموقفها المشين في إنكارها للجميل الذي يحتمل أن تكون الماركيزة قد اعتبرت هذا الجميل نفسه عقوبة سالفة. وكانت تبحث لابنتها عن أعذار في مقاصد العناية الإلهية حتى تستطيع أن تتمادى قليلًا في عبادة اليد التي ضربتها. وتذكرت في ذلك الصباح كل شيء، وكان كل شيء يضربها من جديد بقوة في صميم قدح شرابها المليء بالهموم والأحزان، حتى أوشك أن يطفح إذا ألقيت فيه أصغر الآلام وأخفها؛ وكانت تكفي نظرة برود واحدة لقتل الماركيزة.

ومن الصعب تناول هذه الوقائع البيتية بالوصف ولكن بعضها قد يكفي لبيانها كلها -وحتى وقد نال الصمم قليلًا من أذني الماركيزة- لم تستطع قط أن تقنع ابنتها بأن ترفع صوتها قليلًا من أجلها. واليوم الذي توسلت إلى ابنتها فيه بسذاجة الإنسان المريض أن تكرر عبارة لم تتبينها بوضوح أطاعتها الكونتيسة إلى ذلك، ولكن في حالة من الإرغام والغضب لم تسمح للسيدة «ديجليمون» أن تعيد من جديد

طلبها المتواضع.

ومنذ ذلك اليوم اعتادت الماركيزة أن تهتم بالاقتراب من «موينا» كلما روت حادثة أو تكلمت. ولكن غالبًا ما بدت الماركيزة ملولًا من العاهة التي كانت تؤاخذ أمها عليها. ولم يكن هذا المثل من بين ألف أخرى يصيب سوى قلب الأم. وكان يمكن أن يسهو الملاحظ عن كل هذه الأشياء، لأنها كانت كلها من الدقائق الصغيرة التي لا تحسها عيون أخرى غير عيون امرأة. كذلك كانت السيدة «ديجليمون» قد قالت لابنتها يومًا إن الأميرة «دي كادينيان» قد جاءت لتوها، فما كان من هذه إلا أن صاحت ببساطة: «كيف هذا؟ إنها جاءت لزيارتك!» وقيلت هذه العبارات بلهجة وضعت فيها الكونتيسة احتقارًا رشيقًا طلته ببعض صبغات الدهشة، وتجد فيه القلوب الشابة الرقيقة عادة بعض حب الناس الذي يتمثل في تعوّد بعض الشعوب البدائية قتل شيوخهم عندما لا يعودون قادرين على الإمساك بفرع شجرة يهتز هزًّا قويًّا. ونهضت السيدة «ديجليمون» وابتسمت وراحت تبكي خفية.

ولا يظهر الناس من أصحاب التربية الصالحة -والنساء من بينهم بخاصة- مشاعرهم إلا في لمسات دقيقة لا ترى، ولكنها تكون صالحة للكشف عن ذبذبات قلوبهم بالنسبة إلى أولئك الذين تتوافر لهم في حياتهم مواقف مماثلة لموقف هذه الأم المثخنة بالجراح. وعثرت السيدة «ديجليمون»

وقد أثقلتها الذكريات على واحدة من هذه الوقائع المجهرية اللاذعة القاسية التي لم تفهم منها إلا آنئذ فقط ما كانت تخفيه وراء الابتسامات من الاحتقار الشرس. ولكن دموعها جفت عندما سمعت خصاص (شيش) النافذة يفتح في غرفة رقاد ابنتها، وعدت متجهة إلى النوافذ من الطريق الضيق الممتد بحذاء السور الذي كانت جالسة أمامه منذ قليل، وكانت تلاحظ -وهي ماضية في طريقها- مدى رعاية البستاني الخاصة التي بذلها في جرف التراب من هذا الممشى، وقد كان مهملًا قبل ذلك بوقت قليل.

وعندما بلغت السيدة «ديجليمون» تحت نوافذ ابنتها أقفل الخصاص (الشيش) فجأة. هتفت: «موينا».

ولم تتلق إجابة.

قالت خادمة «موينا» ردًا على سؤال الماركيزة بعد عودتها إلى مدخل البيت عما إذا كانت ابنتها قد استيقظت: «السيدة الكونتيسة في الصالون الصغير».

وكان قلب السيدة «ديجليمون» مليئًا إلى حد الفيض، كما كان رأسها مشغولًا بشدة زائدة كي يصل بها التفكير في تلك اللحظة إلى ظروف على قدر كبير من الخفة، وعبرت مسرعة إلى الصالون الصغير حيث وجدت الكونتيسة في قميص الحمام وقد ألقيت فوق شعر رأسها الأشعث طاقية بإهمال، وكانت قدماها في (شبشب) ووضعت مفتاح

غرفتها في حزامها، وعلى وجهها طابع الأفكار التي بلغت حد الزوبعة، كما كانت ألوان وجهها شديدة. وجلست فوق أريكة وبدت كمن غرق في التفكير.

قالت بصوت قاس: لماذا المجيء! وواصلت كلامها في حال مشتت بعد أن قاطعت نفسها: آه! إنك أنت يا أماه!

نعم يا طفلتي إنها أمك...

ونطقت السيدة «ديجليمون» بأقوالها في لهجة هذبت انسكاب القلب وعاطفة الحنوّ التي يصعب إعطاء فكرة عنها دون استخدام لفظة القداسة. لقد لبست في الواقع الطابع المميز المقدس للأم الذي اندهشت ابنتها منه واستدارت نحوها في حركة عبرت عن الاحترام والقلق وتأنيب الضمير معًا.

وأقفلت الماركيزة باب (الصالون) بحيث لا يستطيع أحد الدخول دون أن يحدث جلبة في الغرف السابقة عليه، وكان هذا الابتعاد ضمانًا للسرية.

قالت الماركيزة: يا ابنتي من واجبي أن أنيرك فيما يتعلق بإحدى الأزمات التي كانت أكثر أهمية في حياتنا النسائية، والتي قد توجدين فيها الآن على غير علم منك، ولكنني تحدثت عنها منذ قليل إليك كأم لا كصديقة. لست مسئولة عن هذه الأفعال إلا أمام زوجك، ولكنني جعلتك تشعرين نادرًا بسلطة الأمومة -ولعل ذلك كان خطأ- حتى صرت أعتقد أنه يحق لي أن أصغي لك ولو

مرة واحدة على الأقل في الموقف الخطير الذي تحتاجين فيه إلى نصائح. فكري يا «موينا» أنني زوَّجتُكِ من رجل ذي قدرات عالية تستطيعين أن تكوني فخورًا به وأن...

صاحت «موينا» في تعبير العصيان وهي تقاطعها: أمي... إنني أعرف ما تريدين أن تقوليه.. سوف تحاولين أن تعظيني بشأن «ألفريد...»

واصلت الماركيزة في تجهم، وهي تحاول حبس دموعها: «إنك لا تجيدين التخمين.. إذا لم تكوني قد أحسست...».

قالت بتعبير يكاد يكون مترفعًا: «وماذا؟ ولكن يا أمي في الحقيقة...».

صاحت السيدة «ديجليمون» وهي تقوم بمجهود عجيب: «موينا» لا بد أن تسمعي ما ينبغي علي أن أقوله لك..

قالت الكونتيسة وهي تشبك ذراعيها، وتتصنع الإذعان الوقح: «إنني مصغية».

وقالت بدم بارد لا يمكن تصوره: اسمحي لي يا أماه أن أدق الجرس «لبولين» كي أصرفها...

ودقت الجرس.

يا طفلتي العزيزة لا تستطيع «بولين» أن تسمع...

واصلت الكونتيسة في تعبير جاد بدا شاذًّا في نظر الأم: «يا ماما، لا بد لي...» وتوقفت، وكانت الخادمة قد وصلت فقالت لها: «بولين» اذهبي بنفسك عند «بودران»

لتعرفي سبب عدم وصول قبعتي إلي حتى الآن.

وعادت تجلس ناظرة إلى أمها بانتباه. وكان قلب الماركيزة قد تورم كما نال عينيها الجفاف. وأحست حينذاك بأحد الانفعالات التي لا تفهم سوى الأمهات آلامها. وأخذت الكلمة كي تثقف ابنتها بشأن الخطر الذي عاشت فيه، ولكن إما أن الكونتيسة وجدت نفسها قد جرحت بداعي الشكوك التي نشأت عند والدتها عن نجل الماركيز «ديفاندينيس» أو أنها صارت فريسة لإحدى نوبات الجنون غير المفهومة التي يكمن سرها في عدم الخبرة ونقص التجربة لدى كل الشباب. فانتهزت فرصة فترة السكون التي أتاحتها أمها كي تقول لها وهي تضحك ضحكًا مفتعلًا: «ماما، لم أكن أعتقد أنك تغيرين إلا فيما يتعلق بالأب...».

وأقفلت السيدة «ديجليمون» عينيها عند سماع هذه الكلمات، وخفضت رأسها، وأصدرت تنهدًا رقيقًا للغاية، وألقت ببصرها في الهواء كأنها تود أن تطيع عاطفة لا تقهر تدفعنا إلى الاستغاثة بالله في أزمات الحياة الكبرى، ثم وجهت نحو ابنتها عينيها مليئتين بجلالة مرعبة، ومطبوعتين بطابع الألم العميق، وقالت بصوت مضطرب في تجهم: يا ابنتي لقد كنت قاسية على أمك أكثر مما كانت قسوة الرجل الذي أذنبت في حقه، ومن المحتمل أكثر من الله...

ونهضت السيدة «ديجليمون» ولكن لم تكد تصل إلى

الباب حتى استدارت، ولم تشهد سوى الاستغراب في عيني ابنتها. وخرجت، وأمكنها أن تبلغ الحديقة حيث خارت قواها؛ وهناك استشعرت في قلبها آلامًا قوية وسقطت فوق مقعد.

واستطاعت أن تلمح هنالك بعينيها الجائلتين في التراب آثار خطوات قدم حديثة جدًّا ترك حذاؤه علامات يمكن معرفتها معرفة أكيدة. لقد كانت ابنتها ضائعة بلا أدنى شك، واعتقدت أنها فهمت الدافع إلى توكيل «بولين» بمهمة على هذا النحو.

وصحب هذه الفكرة القاسية إفشاء سر أشد كراهية وبغضًا من كل ما عداه لقد اعتقدت أن ابن الماركيز «ديفانديس» قد حطم في قلب «موينا» الاحترام الواجب من الابنة نحو أمها، وازداد عليها الألم، وغابت عن وعيها بلا حس، وبقيت كما لو كانت نائمة.

ووجدت الكونتيسة أن والدتها قد سمحت لنفسها بأن توجه إليها كلامًا لاذعًا جافًّا إلى حد ما وظنت أنها ستستطيع في الليل -بإحدى الملامسات أو بتربيته وبعض الاهتمامات- أن تعيد وصالًا أنضر فيما بينهما. ولم تكد تسمع صيحة في الحديقة حتى مالت بغير اهتمام كبير، في نفس اللحظة التي نادت فيها «بولين» ولم تكن قد خرجت بعد، نداء الاستنجاد، وأمسكت بالماركيزة بين ذراعيها.

كانت آخر كلمة نطقت بها هذه الأم: لا تثيري فزع

ابنتي.

وشهدت «موينا» نقل أمها شاحبة بغير حياة، وهي تتنفس بصعوبة مع تحريك ذراعيها كما لو كانت تريد أن تقاوم أو أن تتكلم. وتبعت «موينا» والدتها وقد صرعها هذا المشهد، وأعانت في صمت على رقادها في سريرها، وعلى خلع ملابسها، وثقلت عليها غلطتها.

وفي هذه اللحظة المتناهية عرفت أمها، ولم تعد قادرة على أن تصلح أي شيء، وأرادت أن تكون معها على انفراد، وعندما لم يعد أحد معهما في الغرفة، وأحست ببرودة هذه اليد التي كانت دائمًا تربت عليها وتلاطفها انهمرت دموعها.

وأفاقت الماركيزة على هذا النحيب فكان لا يزال في مقدورها أن تنظر إلى محبوبتها «موينا». ثم تحت تأثير صوت ابنتها الذي كان على وشك أن يمزق صدرها الرقيق غير المنظم، جعلت تتأمل ابنتها وهي تبتسم. وأثبت هذا الابتسام لقاتلة أمها الصغيرة أن قلب الأم هوة يوجد العفو في قاعها دائمًا.

وبمجرد التعرف على حالة الماركيزة أرسل خدم فوق الجياد ليأتوا بطبيب وبجراح وبأحفاد السيدة «ديجليمون». وقد وصلت الماركيزة الصغيرة وأولادها في نفس الوقت الذي وصل فيه رجال الحرف وكوّنوا جمعية رهيبة صامتة قلقة اختلط بها الخدم.

وجاءت الماركيزة الصغيرة التي لم تسمع أية ضوضاء تدق برقة على باب الغرفة، وعند سماع هذا الصوت استيقظت «موينا» بلا شك من ألمها، ودفعت فجأة مصراعي الباب، وألقت بنظرات شاردة نحو هذه الجمعية الأسرية، وبدت في حالة من سوء النظام، مما كان ذا تعبير أرفع من تعبيرات اللغة. وظل الكل صامتًا إزاء مشهد تأنيب الضمير الحي على هذا النحو؛ وكان من السهل أن ترى أقدام الماركيزة الصلبة الممددة في تقلص فوق سرير الموت. واعتمدت «موينا» فوق الباب، ونظرت إلى أقاربها وقالت في صوت أجوف:

«لقد فقدت أمي!»».

* * *

إمرأة في الثلاثين

يعد أنوريه دي بلزاك بين أشهر كتاب الرواية قاطبة، فعلى يديه اكتمل تحول الرواية من مجرد حكاية أو سرد لأحداث حقيقية أو خيالية إلى بناء فني متكامل يزخر بالحياة والأحداث، ويخضع لمعايير فنية واضحة. وهو لم يفعل ذلك كما يفعل النقاد عن طريق صياغة النظريات، وانما صنعه عملا عن طريق عشرات الروايات التي كتبها خلال حياته التي لم تزد على واحد وخمسين عاما. وليس أدل على منزلته الأدبية من أن أعماله قد تخطت منذ أمد بعيد إطار الأدب الفرنسي، ونقلت إلى الكثير من لغات البشر.

بلزاك، إلى جوار شكسبير وديكنز، أكثر الأدباء نشرًا في مختلف اللغات، لكن تفتقر المكتبة العربية لكثير من مؤلفاته، وقد ولد الكاتب الفرنسي الكبير في العشرين من مايو 1799، نفس السنة التي عاد فيها نابليون من حملته على مصر، أي انه ولد عشية إعلان نابليون نفسه إمبراطورا على الفرنسيين. وقد مات في الثامن من شهر أغسطس 1851عشية إعلان لويس نابليون، ابن أخي بونابرت نفسه، إمبراطورا من جديد.

وهكذا عاش بلزاك فترة من أغنى فترات تاريخ بلاده من حيث التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ما كانت لتفلت من نظره الثاقب، وهو ينتمي اجتماعيًا إلى الطبقات الوسطى. وكانت تلك الطبقات في قلب الأحداث التاريخية، فهي تزعمت الثورة الفرنسية الكبرى ضد النبلاء الإقطاعيين، وهي التي استفادت من إمبراطورية نابليون ثم انقلبت عليه حين رأت ضرر مطامحه الشخصية.

ISBN 978-977-765-150-9
9 789777 651509

t.me/twinkling4

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS